الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

ص.ب : ٤١٢٣ بيروت ـ تلفون : ٢٣٢٨٣٢

AL-ADAB : Revue mensuelle culturelle
Beyrouth - Liban
B. P. : 4123 - Tél. : 232832

صاحبها ومديرها المسؤول
الدكتور سهيل إدريس
Propriétaire - Directeur
SOUHEIL IDRISS

سكرتيرة التحرير
عايدة مطرجي إدريس
Secrétaire de rédaction
AIDA M. IDRISS

*

الادارة

شارع سوريا ـ رأس الخندق الغميق ـ بناية مروة

الاشتراكات

في لبنان : ١٢ ليرة ■ في سوريا ١٥ ليرة
في الخارج : جنيهان استرلينيان او ستة دولارات
في أميركا : ١٠ دولارات ■ في الارجنتين ١٥٠ ريالا
الاشتراكات الرسمية : ٢٥ ليرة لبنانية او ما يعادلها

تدفع قيمة الاشتراك مقدما
حوالة مصرفية او بريدية

الاعلانات
يتفق بشأنها مع الادارة

التحقيق

بقلم جميل كاظم المناف

محكمة الشعب ، او البرلمان زنزانة متعدده الاقبية نفيض بالمساجين الذين يخيم عليهم اليأس والحيرة والعذاب . ومحكمة الشعب خلية لا تهدأ . لانها وقحة . ووقاحتها تنبعث من وقاحة رؤسائها . ففي غرفـــة منعزلة تطل على ((نهر دجلة)) تقيم فرقة التحقيق والتعذيب التـــي يرأسها كل من : خالد طبرة ، وعمار علوش وناظم كزار ، ويبلغ عـــدد جلاوزة الغرفة التسعين ما بين قائد شيوعي نابذ وملاكم محترفومنبوذ وجد في امتهان التعذيب حرفة له ..

في كل ليلة يتصاعد الصراخ من تلك الغرفة المشؤومة حتى مطلع الفجر . ونحن المساجين نعيش في رعبة وهلع لان أيقاع الصراخ الانساني يهز قلوبنا هزا حتى لكان جميع مشاعرنا قد اندمجت في العـــاطفة الانسانية التي هي انعطاف وجداني تجاه البشر . كانت الوجوهواجمة وليس هناك معتقل يتكلم . بيد ان العيون كانت تعبر عن وجدانالمساجين ازاء التعذيب الذي يجري كل ليلة في الغرفة التي تقيم فيها هيئـــة التحقيق التابعة للحرس القومي .. الا ان المعتقلين سرعان ما ينســـون الصراخ في النهار ويتدفقون في حماس يتكلمون عن الواقع الذي هم فيه وعن مسبباته وعن المعنى الذي تبرزه اللحظات التي هم فيها .. لقد الفنا مجيء شباب فاقدي الوعي من كثرة التعذيب كل ليلة كمـــا الفنا الصراخ الذي استحال الى ترنيمة تعطي ما يتيسر للوجدان مـــن مشاعر . والفنا المعاملة المشؤومة والاكل الرديء الذي يقدم لنا . تلك هي حياتنا يوميا . مشهد مرير . اسئلة نطرحها على كل معتقـــل جديد . وقليلون هم الذين يصمتون ولا يسألون .. كانت قضايـــــا السجناء شيوعية وقومية الا ان اختلاف القضايا لم يمنع العواطف الانسانية التي كانت تمور في مشاعرنا من التعاطف ، معتقل مشلـــول اليدين . واخر يهذي ويصيح . وثالث يضحك باستمرار . اما انا فقد نسيت الايام الاولى التي مضت على جنوني المؤقت الذي حدثني عنه بعض المعتقلين . نسيت ما يقارب العشرة ايام من اعتقالي . وقضيتي كقضايا الشباب العربي المعتقل بالمئات . انها قضية المعتقد والفكرة . فانا شاب وحدوي . وكاتب ناشيء . ولذلك فوحدويتي كانت كافيـــة لالقاء القبض علي وتعذيبي في نظر الحرس القومي . ولقد وجدت فرقة التعذيب في ابحاثي ومقالاتي ما ينبئها بخطورتي واهمية مركزي . لقد مضى علي في السجن اكثر من ثلاثة اشهر رافقت فيها شتى فنـــون التعذيب والارهاب المعنوي ، والالام ما لا اجرؤ فيها على التحدث لان لحظات الالم البشعة وليالي التعذيب التي رافقتها يجعل الشعـــور الانساني متوترا في حالة شرحي للامور الجارية هناك .

طوال الخمسة عشر يوما التي اعقبت عودتي الى حالتي العقليـــة الطبيعية سمعت في الليل صراخا وعويلا ورأيت شبابنا يتعذبـــون ، وارجلا مكسورة واعينا زائغة . ونظرات لا زلت اراها حتى الان ، تلصق المعنى اللاانساني الذي تمارس به فرقة التعذيب اعمالها في خاطري . رأيت رجالا يضربون ((بالصوندات)) المليئة بالحديد والرصاص. يضربون طوال خمس ساعات او ست ، ثم يلفون في حديقة المحكمة فيصبحون مزبلة لجلاوزة التعذيب يلقون عليهم اعقاب السجاير والاوساخ .. واخرين يضربون على رؤوسهم طوال الليل فيصابون بالخبل حتى تستطيع

فرقة التعذيب أن تنزع منهم الاعترافات في حالات « الهذيان » التي تنتابهم . غير اني عرفت وسائل تعذيب اشد من الوسائل التي رويتها : فقد اختفى الصديق الوحدوي ، ع ، بعد ان عذب عذابا مبرحا . وقد تأكد ان جثته قد القيت في نهر دجلة بعد ان حشرت في صندوق صغير. لقد اصبح ، ع ، طعما للاسماك ، وطوال الايام التي تمر علينا في المعتقل كان كل واحد منا يحكي قصة تعذيبه للاخر . ذلك لاننا نجد لذة وسلوى في الحديث عن وضعنا . لقد التقيت بالسيد « خ »الذي عذبته فرقة التعذيب عاريا بعد ان ربطه فلول الجلاوزة الى اوتاد حديدية مدفونة بالاسمنت في الارض . وقد كان افراد الفرقة يضربونه على عضوه التناسلي وعلى ساقيه وما زالت ساقه اليسرى تحتفظبآثار الصوندات والحروق الكهربائية .. وفي احدى الليالي قذفوا الى زنزانتنا برجل طويل عرفت فيه سيدا مهذبا قال لي :

– لقد كنت في « قصر النهاية » اربعة وخمسين يوما ، كل ليلة احرق بالكهرباء واصعق ثلاث صعقات أو اربعا . لقد احرقوا ظهري وساقي ولساني .

ورأيت بعدئذ جنديا شابا من بغداد اسمه متى مفلوع الرأس،وقد حكى لي ذلك المنكود قصة تعذيبه وكيف ظل معلقا في سقف الغرفة سبعة ايام بلياليها . وكيف كان يعذبه الضباط البعثيون بقضبان حديدية وزن كل واحد منها اربعة كيلوات . وقد اراني ظهره الذي بدا لي كخريطة ذات أخاديد متتالية وهضبات متكررة كما اراني رأسه وقال لي : كان رأسي مشجوجا ، وها انت ترى أثر الصلع الذي اصابني من جرائه ، لقد فعل الضباط البعثيون ذلك بواسطة القضبان الحديدية، وفصتي انني متهم بالشيوعية ، بمؤامرة ، لقد اتهمني موقوف اسمه جوحي وانا لا اعرف هذا الجوحي ولم اره من قبل ..

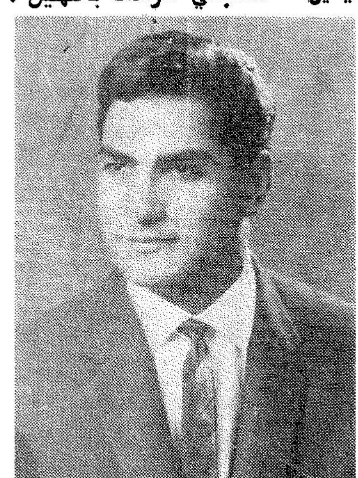
– لماذا اتهمك اذن ؟ .

– من كثرة التعذيب . لقد اخذ يهذي بعد ان اصيب بالخبل،فقال أن شخصا يدعى متى هو شريكي . والطريف انهم وجدوا كثيرا من الرجال باسم متى الا ان اختيارهم قد وقع علي . اما انا فقد جلبت رجال الكنيسة التي انتمي اليها والناس الذين تربطني اليهم رابطة المعرفة الشخصية ..

وسكت متى ثم شد على ذراعي بقوة وقال : استاذ انت مثقف وتعرف الظروف التي يخضع بها الانسان لاقسى بيئة ومحيط . لقد انحلت قواي العقلية واصبحت اتكلم دونما ارادة . كفاي يرتعشان . ورأسي يتدلى على كتفي .. هل تصدق انني لا اتذكر ما قلته بعد ما دخلت الغيبوبة ؟ تلك هي جادة الموقف المحصورة في لحظات متكررة تلف الشعور في دوامة مكرورة تحتم على من يوجد في محكمة الشعب ان يتخلى عن انسانيته . لقد عرفت ان كثيرا من الابرياء متهومون زورا بتهم شتى لان فرق الحرس قد تهسترت بعدما رأت نفور الشعب وابتعاده عن الحزب الذي تمثله . ان الحقد والكراهية في اعين فرقة التعذيب تطل علينا صباح مساء . فرقة التعذيب التي ترأسها شلة من البعثيين الحاقدين الذين لا يستيقظ وجدانهم . لان وجدانهم ابرد من عاطفة ميتة . اما افرادها فشيوعيون تخلوا عن شيوعيتهم . وعندما يعذبون زملاءهم في العقيدة يجسدون مركب النقص الذي دفعهم الى التعاون مع فرقة التعذيب . أن افراد هيئة التحقيق هم قادة الحزب الشيوعي واخلص الرفاق الذين كان يعتمد عليهم الحزب المذكور فقد برد عباس الخفاجي العضو الذي يعود انتسابه الى الحزب الى عام ١٩٤٧ بسلامة فكرة البعثيين وحراجة ظروفه المادية . اما ميرو وتاجوفائق عثمان فلم استطع ان اسمع تبريراتهما وان كنت اعلم انها توازي تبريرات عباس خفاجي . لقد عرفت ان قادة الحزب الشيوعي اناس يتخاذلون بسرعة امام الظروف الحرجة ويضحون بقواعدهم حينما تلوح لهم الحياة مرة وقاحلة .

***

كانت الساعة الثانية عشرة ظهرا حينما القي القبض علي من قبل الجاسوس عدنان عبد الرحيم . وحينما ادخلت الى المحكمة ، مقر فرقة التعذيب العليا ، موثوق اليدين ، استقبلني افرادها بالتهليل ، تعبيرا عن فرحهم وابتهاجهم بمناسبة القبض علي . ملأت انفي رائحة الدم فاخذت اجول بنظراتي في اطراف الغرفة التي يبدو عليها انها مقر التعذيب . فابصرت الصوندات والادوات الكهربائية والعصي وحبال التعليق . لفعتني عاطفة مشبوبة بعدما تنفست ضحكات الاوغاد الرنانة في جب التعذيب المنعزل عن الناس، وبعدما رأيتسحناتتنم عن لون وشكل جهنمي شيطاني النزعة. ويظهر ان السحنات



التي رأيتها قد وجدت في بيئة التعذيب الوسط الطبيعي الذي يشدها الى الحياة . لقد تراءى لي أن الساديين يألفون البيئات اللاانسانية بسرعة ، شغلني هذا الاستغراق مدة يسيرة من الزمن . وقد كشف هذا الاستغراق الحياة في خاطري وجعلها شيئا يغص بالتفاهات والتراكمات .. وصل الملازم عمار علوش ، الذي هو رئيس فرقة التعذيب ، ليتولى امر التحقيق معي ، وكن بصحبته خالد طبرة . ابتدرني بسخرية انسابت كانسياب الافعى بين الادغال :

– مناف جميل كاظم المناف اي حظ اوقعك في ايدينا . ايها الكاتب المفكر !

ثم توجه الي وصفعني بشدة ورفسني .. طافتفي خاطري فكره كنت الهي بها مشاعري : عملية نمو الحركات الهستيرية في التاريخ واستناد هذه الحركات الى العنف والقوة . كما طافت في خاطري عملية القاء القبض علي وكيفية محاولة الهرب التي قمت بها بعد ان لكمت الجاسوس عدنان رحيم وطرحته ارضا . وفشل محاولتي بعد ان ازداد عدد الحرس القومي وبعد ان شهر عدنان مسدسه . منذ أن دخل عمار علوش ادركت انني سوف اعذب وان ما ينتظرني سيىء الى درجة قصوى . لقد كان عمار يبتسم ابتسامة غدر ، اما خالد فانه امر بجلب طعام لي . وكان هذا الامر مفاجأة لي ، بيد انني عرفت انه حيلة وان التودد الذي بدا من جانب خالد هو « مصيدة » بعد ما ابتدرني :

– من هو المسؤول عنك ؟ . ما هي مكانتك في حركة الوحدويين الاشتراكية ؟

فاجبته : – هذا ما لا علم لي به .

فضحك وقال – كل طعامك ثم نتفاهم .. ولا تنس يا صديقي ان لنا طرقا اخرى ولكني اعدك بمعاملة حسنة اذا لنت واصبحت بجانبنا.

لم اذق الطعام ولكنني شربت قليلا من الماء . وبعد ان مرت فترة وجيزة دخل افراد الحرس الذين ارسلتهم الفرقة – لتحري مسكني – حاملة مجموعة من الجرائد والكتب والصور والرسائل .. حاولت ان احتج على جلب الصور التي ليس فيها ما ينفع الهيئة لانها بمجموعها صور ورسوم عادية الا ان خالد قال :

– عندما نفرغ من استجوابك سوف نعيد لك كل شيء لا حاجة لنا به ..

وكنت اعرف ان كل شيء سوف يضيع . ابحاثي وكتبي وقصصي التي لم تنشر في المجلات بعد . لانني رأيت اكداس الحاجات العائدة للمعتقلين مع نفايات الطعام والاوساخ .. وامسك خالد طبرة بيدي فقيدهماوامرني بالجلوس على الارض جلسة القرفصاء . وبعد فترة قصيرة ابتدأت الفرقة في تعذيبي . كانت الصوندات تهبط على ظهري وعنقي ورأسي . وراح الالم يقلب ملامح وجهي واخذ الخدر يدب في جسدي . كان خالد طبرة الملازم الاستثنائي يضرب ظهري . اما ناظم كزار فكان يضرب مفاصل ساقي . كنت انظر اليهما نظرة اشفاق لانني ادرك جيدا انهما يعملان

للباطل الذي يتخذ من القوة طريقاً لفرض ارادته .. وتوقف التعذيب وجأة . فقال خالد طبرة :

— خذ ورقة وقلما واكتب كل جواب يعن لك عن الاسئلة التي سأوجهها لك .

كانت لهجته افعوانية تنم عن الغدر. اقتادني احد افراد الحرس الى الشرفة الكبيرة المطلة على النهر وهناك اوثقوا ساقي وطرحوني ارضا . والصقوا على فمي قطعة كبيرة من البلاستر كيلا يسمعوا احتجاجاتي وآهاتي . وسرعان ما اتجه جلاوزة الحرس الى غرفة التعذيب التي اخرجوني منها ، وبعد لحظات عادوا ممسكين بصوندات ولوح خشب عريض . وضعوا اللوح على صدري وجلس احدهم في احدى جهتي اللوح كما جلس اخر في الجهة الثانية .. اما قيود قدمي فقد كانت مربوطة الى حاجز الشرفة الحديدي .. تركت ممددا على هذه الحالة لمدة عشر دقائق ، وكان الحس الداخلي الانساني يزداد حساسية في اعماقي بعد ان اصبحت نفسي كالجدار الذي ينقش عليه اي شيء تعبيرا عن ارادة شخص ما . لقد انفعلت بشدة واوغلت في الاستجابة الى حالتي النفسية واحسست بحاجتي الى تجديد ايماني بالانسان الذي كفرت به . ومرت اللحظات ثقيلة كالموت ، باردة كالعدم . ثم امتدت فوهة رشاش من نوع (بور سعيد) الى رأسي وامتدت معها رفسة سريعة من رجل الرجل الثاني في هيئة التحقيق . وكنت انظر الى اعلى . الى الرجل المنتصب فوقي . الى نظره الذي يشبه نظر البوم . لم يكن كل اعضاء الفرقة قادرين على اخافتي لانني كنت اؤمن انني اسير مع الشعب الذي يؤمن بان الوحدة ارادته وان الاشتراكية طريقه ..

— اسمع انك زميل بعثي قديم ناضلت في الحزب اكثر من سبع سنوات ولاجل ذلك نطلب منك ان تكشف لنا تنظيم حركة الوحدويين الاشتراكيين ، وعن الوكر الطباعي والقيادة المسؤولة واذا ما كشفت لنا ذلك فاننا سوف نعاملك كأي رفيق بعثي !.

كان يحكي اسلوبا من اساليبه . وقد لطخته لا انسانيته بشيء قرمزي اللون ينقلب في أي لحظة الى احد الالوان المراد اظهارها . كان يريد استجوابي بلطف لانه يعتقد انني صيد رفيق يلين بسرعة . الا انه سوف يستعمل العنف اذا ادرك ان اللاجدوى ترافق اساليبه اللاعنفية . لان مهمة الجلاد رتيبة تتكون من برودة وحرارة كحجارة الهذر الذي ينسخ العاطفة التي تهدم لانها شاذة . والشذوذ مهمة العبقري الى الاحسن ومهمة الرديء الى الاقبح . كان خالد يضغط قدمه فوق رأسي ويكرر ما قاله منذ لحظات . اما انا فكنت افسر اللحظة التاريخية التي يمر بها العرب ومكوناتها ومجالاتها التي انتجت حزبا دموي الوسيلة والطريق . حزبا جعل من شبابه فئراناً تقرض وزبائن موت لا حياة . وكذا الزمن الذي جعل من الحزب البعثي اداة نشوء فاشية . واداة صنع واتقان شعارات لا تستطيع ان تغير الواقع لانها تفتقر الى حرارة الايمان وصدق الرسالة :

— اظن انه لا فائدة من اللين مع هذا الناصري ؟

فأقره جميع افراد الحرس الذين يحيطون بي على ذلك . والحق انهم متعطشون الى التعذيب لانه مهمتهم . والمهمة التي تصبح حرفة تميت الشعور لان الحس الداخلي ينقلب فيها الى حس محرض . ان وجود افراد فرقة التعذيب اصبح مجموعة من الاستجابات الباردة في حالات التعذيب ولذلك فهم يمارسونه دونما شعور .. اخذوا يضربونني بشدة . في جميع انحاء جسمي . اما خالد فكان يردد على مسامعي : « سوف تتكلم يا مناف سوف تتكلم . سوف تقول لنا الحقيقة لاننا سوف نميتك بوسائلنا ! » وفي هذه الاثناء ركب احد افراد الحرس على بطني واخذ يصعد ويهبط فاخذت اقيء كل ما في بطني . وكان القيء لزجا . وقال احدهم وهو يلاحظني بطرف عينيه : « سوف ننتزع منك الاعترافات في حالة هذيان » . وكانت فوهة المدفع الرشاش قد عادت تلامس رأسي فاسلمت امري الى الله واخذت انظر الى السماء وانا ابتسم . الامر الذي زاد حنق افراد الفرقة فبصق اغلبهم على وجهي وانتزعوا قطعة البلاستر من فمي كيما يجبروني على بلع بصاقهم . الا انني اطبقت شفتي مما ادى بهم الى ضربي على وجهي اكثر من ربع ساعة في سبيل ان يدفعوا بي الى فتح فمي .. اخذ نفسي يزداد ثقلا من جراء ضغط اللوح على صدري فاخذت ارفس برجلي وسرعان ما غامت وجوه افراد فرقة التعذيب وراحت تبدو متلاصقة ومستطيلة . ومما زاد في سوء حالي الضرب الشديد الذي كان ينهال على رأسي .. اخذت لا اشعر بالم ولا احس بما يدور حولي وقد علمت فيما بعد انهم لدغوا لساني بسجايرهم وادنوا الى انفي عقارا يعيد الانسان الى وعيه ... وانفجرت ضحكات افراد الفرقة وهم يعلقون على حالة الهذيان التي اصابتني . كنت انا المسرح وهم الممثلون . كنت انا الجذر الذي يشعر بسطحية وجودهم . بالمهزلة المأساة التي يمثلون فيها طبيعة وجودهم ، كنت اهدم فيهم بقايا الضمير . بقايا الحي . وازرع فيهم الشر . لانهم في كل ضربة يقتلون الانسان في اعماقهم . كنت ادفع حزبهم الى الهاوية . الى الموت . الى الخيبة التي تلازم كل جماعة تحاول الافتراء على التاريخ .

جلس على صدري احد افراد الحرس واخذ يزودني بنصائح يظهر كما اسعفتني ذاكرتي انها ماخوذة من كتاب « في سبيل البعث » وقليل منها كان من انشائه . كان شديد السمرة ذا عين عوراء منسجمة مع شكله البشع . اما انفه فكان عريض التموضع ، اما فمه فقد كان يقوم بحركات تشبه حركات الاطفال . كانت تدور في نفسي معركة الحياة . مع الاشياء الهجينة والنقيض الذي يمارس الضد الشرير دائما . وكنت اضطر الى التحدث مع نفسي بلغة غير منسجمة بسبب قوة الصداع الذي اخذت اشعر به . والدوار الذي جعلني اشعر بجسمي وكأنه في قلب السماء . وبعد ما نلا الرجل الاعور مواعظه ، فك قيودي وامر الحرس بحملي الى غرفة التعذيب . حاولت ان اقوم فلم استطع . فحملني اثنان الى الغرفة المليئة خشونة وقسوة وعنفا . انها عار البعث ومهاوي خيبته .. وتمر دقائق كنت فيها اتفحص وجوه رجال الفرقة محاولا ادراك ماهية انفسهم المليئة باماني الذئاب وتحسرات الفراغ الذي لا شك انه يدفعهم الى الصرامة التي يغطون بها ضعفهم .

قال خالد : اجلسوه على الاريكة .

ثم امر بملء قلمه حبرا .. وفي هذه اللحظات اخذ افراد الحرس يشدون انحاء جسمي بحبال متينة وكمموا حلقي بقطعة البلاستر من جديد . وامتدت آلة مستطيلة الشكل الى يدي اليمنى فادركت في الحال انها الالة الكهربائية . وقال ناظم :

— اتعرف هذه الآلة التي يتكلم عنها سيدك عبد الناصر كثيرا ؟ انت تعرف ذلك اليس صحيحا ما اقول ؟..

وصمت برهة ثم اردف : نحن فاشست . اجل نحن فاشست كما قال عبد الناصر . وبالفاشية سنشق طريقنا .. ان مقالك الذي كتبته عنا والذي هو في حوزتنا الان يقول ذلك ونحن نصدقك ..

— اسمعوا : ان هذه الطرق غير مجدية لان كثيرين مارسوها قبلكم فباءوا بالخسران .. وسترون ان النتيجة ليست لصالحكم .. الا تشعرون بخجل ؟ الا تنصفون الشعارات التي تنادون بها ..

ولم اكد اكمل احتجاجي حتى انهالت على جسمي الصوندات بقسوة عنيفة مصحوبة بضحكات فاجرة . فادركت ان الكلام لا يجدي وانه لا طائل من أي احتجاج . لان الغرفة التي انا فيها توحي بجو ذئاب لا بجو انساني . كانت لحظات قاسية تلك اللحظات التي انهال علي فيها الحرس ضربا بالصوندات . علمتني اشياء كثيرة . علمتني أن اكون هادئا . وعلمتني عدم جدوى الصراخ والاحتجاجات وعدم احترام الغرفة المذكورة للانسانية والقانون والمنطق . وعلمتني أن الحرس يمتهن التعذيب الذي اصبح حرفته . شيء مضحك أن يعرف احدهم كيف تبني النظم ؟ وكيف يعرف انسان مثلي انهيارهم الذي يلوح أمام بصري ؟ ان مهنتهم التعذيب . وقد انقلبوا نتيجة لذلك الى وحوش ، مجرد وحوش ، اما الفكر الذي يتكلم عنه قادتهم فلم يسعف اولئك القادة برؤية مسار التاريخ .. لقد كان خالد طبرة يضحك ملء شدقيه وهو يقرأ ابحاثي ومقالاتي التي كانت أمامه . ويستهزيء من كلمات : ديمومة التاريخ . واللحظة الحضارية . والحالة العقائدية والاجتماعية التي وصل اليها الانسان . آنذاك كنت شعر بتفاهة الحزب الذي ينضوي فيه ووحشيته التي يجسد فيها روح الانتقام ضد الافكار الاخرى .. كان افراد الحرس على يساري ويميني . بعضهم يمسك بصوندات والاخر بالالة الكهربائية التي تمسك بيدي اليمنى . وكان في الغرفة آخرون ينظرون الي وهؤلاء من المعتقلين ويبدو ان الغرفة جلبتهم دون ريب لحضور مشهد التعذيب فيما نوقع الخوف في قلوبهم مقدما قبل ان تبدأ في تعذيبهم .

كان خالد طبرة يقضم شفتيه وهو يحرك الآلة الكهربائية . وكانت الآلة تجثم فوق ساعدي الايمن بهيئة رتيبة وقد عاق ملقطها الاول في معصم يدي أما الملقط الثاني فقد اتخذ له محلا في نهاية مرفقي . وكان هذان من الملاقط التي تشبه هيئتها اساور النساء . وانتفضت انتفاضة حادة . واخذ الزبد يخرج من فمي . واخذت اضغط على وثاقي محاولا فكه . وشعرت بيدي اليمنى تنفصل عن جسمي وبكتفي تنخلع . واخذت اقضم قطعة البلاستر حتى أتيت عليها كلها .. كانت تجربة مريرة ، تراقصت فيها أمامي الحياة كفقاعات الصابون وتمزقت فيها كل رؤى فكري وثقافي . وكان هناك شيء يملأ اعماقي في اللحظات التي كنت اتعذب فيها ، الامل كان دنى ودواني . الارتفاع والهبوط . التفوق على الجلادين . والشعور باليأس يجذباني ..

وصرخت بكل قواي عندما ارسلت الانتفاضة الثانية في جسدي واخذت اتلوى واتوتر حتى ادمى الحبل انحاء جسمي بينما كانت الكلمات تخرج من فمي متقطعة دونما توقف . وكان افراد الحرس يلقون علي الاسئلة التي وجهوها الي في البداية :

— أكشف لنا تنظيم حركة الوحدويين الاشتراكية .

— واين الوكر الطباعي والقيادة المسؤولة ؟

وتوقف التيار الكهربائي من اجل ان استطيع ان اجيبهم على سؤالاتهم . والتفت لاقول لخالد :

— انني لا أعرف شيئا .

واستبد الغضب بالحرس واخذوا يضربونني بالصوندات على رأسي ! اما خالد فقد ادار الالة الكهربائية واخذ ينظر الى ساعته ... واما انا فاخذت اصرخ بشدة واهذي ، الامر الذي جعل خالد يكمم فمي بقطعة كرتون كبيرة على شكل كرة فلفظتها مما جعله يأتي بحذاء عتيق فيدخله في فمي . وشددت بكل قواي على الحذاء ولفظته ايضا مما زاد حنق خالد وافراد الحرس الذين يتولون تعذيبي .. مرت عدة دقائق وانا على هذه الحالة . شعرت بعدها انني في حلم . واخذت اضحك بشدة . وارى — ضحكات الحرس القومي واسنانهم وشفاههم عريضة . فادرك خالد طبرة انني قد فقدت وعيي وان الاستمرار في تعذيبي بالتيار الالكهربائي سيؤدي بي لا محالة الى غيبوبة طويلة ... مما حدا به الى فك الآلة الكهربائية من يدي وفك الحبال من جسمي . وتوقف التعذيب ريثما يصل عمار علوش كما امر خالد طبرة .. وما ان وصل المذكور عمار حتى بدأت التيارات الكهربائية تلذع رأسي هذه المرة . وكانت طريقة التعذيب تختلف اختلافا بينا عما هي عليه عندما ربطت في يدي . فقد اضحت الملاقط عارية فاذا بالانتفاضات تجعلني اهذي اكثر فاكثر وقد عرفت فيما بعد أنني كنت اضحك واردد كلمات لا ترتبط ببعضها بعضا . كان بصري كليلا من شدة الانتفاضات العصبية التي انتابتني فكنت لا استطيع تمييز الاشياء جيدا .. طالت الجلسة وامتدت حتى منتصف الليل وكنت قد استعدت قدرة بصري على تمييز الاشاء فابصرت شخصا يجلس امامي يرتدي الملابس العسكرية . وقد عرفته فيما بعد . انه « حازم سعيد » الذي جعلني اعرف من خلال تصرفاته ان القضية بالنسبة لحزب البعث موضوعة بهذا الشكل : تثبيت دعائم الحزب دونما اهتمام للواقع والبشر .. لان الحزب لم يأت بفكرة ايديولوجية واذا لم يثبت دعائمه فان تناقضات الواقع ستمزقه .. اخذ حازم سعيد يضربني على رأسي ، بالكوبروا ير ، الذي جلبه معه وهو يردد بين الفينة والاخرى :

— ان زبائن مثقفين مثلك يجب تحطيمهم باسرع وقت .

كنت اهذي هذيانا جعلني لا اشعر بما يدور حولي في اغلب الاحيان . وحاولت ان اتماسك فلم استطع لان قواي الجسمية والعقلية قد انهارت فاخذت الارض تتراءى لبصري كرة تدور بسرعة مذهلة وهنا حلوا الحبال التي تطوق جسدي عندما ادركوا انني لا استطيع المقاومة واخذوا يدحرجونني على الارض . وعلى النقيض من ذلك كان فعل الملاكم: ميرو ، فقد امسك بي وانهال على وجهي بيديه . وبعد لحظات امسك اثنان بي وعلقوني في سقف الغرفة من يدي فشعرت بالموت يقترب مني رويدا رويدا .. انهالت علي الصوندات واللكمات حتى ظننت ان اسناني قد سقطت . كنت انظر اليهم واضحك لانني لم اكن اشعر بألم الضربات واللكمات .. وسمعت احدهم يقول :

— انزلوه سوف ننزع سرواله وقميصه ونعذبه عاريا .

وهنا أنزلوني بقسوة . فاصطدمت بالارض وتكومت كتراكمات الزمن . كان كل عضو مني يئن دونما صوت . اما انا فقد تهت في غيبوبة .. لم ادر كم مر من الوقت وانا متكوم في زاوية غرفة التعذيب جسد بدون ثياب الا انني دريت بآلامي وعرفتها . فهذا رسغي مبطوش وهاتان قدماي لا تتحركان . اما ظهري فقد تصلب كعمود . وشعرت انني قد تقيأت في اثناء غيبوبتي لعابا كالسم الاصفر . كنت ارتجف من البرد فاخذت ابحث عن ملابسي ، فألفيتها قطعا ممزقة خلفي . حاولت ان ارتديها لكي اغطي عورتي فكانت محاولتي شاقة ومضنية .

كان النهار يدفع شعاع الشمس الى الغرفة فزحفت لكي اندفأ وادركت انني قد قضيت الليلة الفائتة في التعذيب . ومع تحرك النهار الى امام تحرك افراد فرقة التعذيب واول عمل قاموا به هو سحبي على الارض كما تسحب الجيف والقائي في زنزانة قذرة . تدعى الزنزانة السادسة كما علمت فيما بعد .. وفوجئت بالعديد من الشباب يحيطون بي يسألونني عن كل شيء :

— من عذبك ؟. ما هي تهمتك ؟

وظللت صامتا لا اجيب . فبادروني باسئلة اخرى .. ولما ادركوا انني لا استطيع الجلوس حملوني الى فراش احد الاخوة الوحدويين فذهبت في سبات مزعج حتى منتصف الليل حيث اجلسوني . وافقت على صوت احد افراد الفرقة الذي كان ينادي باسمي .. لم استطع المسير فقد انهارت قواي . الا انني حاولت بكل جهدي ان اصل الى باب الزنزانة ومن سوء حظي انني لم استطع فحملني بعض المعتقلين حتى الباب حيث اخذ الحارس القومي يركلني ويدفعني امامه وحين أصبحت امام غرفة التعذيب . لكمني بقوة فسقطت كومة من لحم ميت. وحاولت جاهدا فحص ارجاء الغرفة بعد ان ادخلوني فيها فألفيت وجوها صديقة اعرفها حق المعرفة . مال علي خالد يسألني هل تعرف احدا منهم فقلت له : لا اعرفهم كلهم .

فقال : ايها القذر . اسمع : سوف نتبع في تعذيبك وسائل الجستابو والفاشست اذا لم تعترف . لاننا صفوة المجتمع وسوف

— التتمة على الصفحة ٧٠ —

اغنية إلى ابد

عاد في الثالث حيا وجه حقدي الازلي
ـ من تراب القبر محموما الي ـ
طائرا من دير ياسين الي
يغرس الصبار في المنفى بقلبي ..
لك يا طائر حبي
لك شمس ومراع في مدى صدري وفي
يا رؤى من شط حيفا بيدي
لك عهد الثورة الاحمر ،
عهدي الابدي
سوف تبقى الدهر في قلبي حيا
ويظل الثأر حبي
كذبوا ـ لم انس شي
ليهوذا وقضاة العهر اعددت
جحيما ، ثورة اقسى ،
انتقاما همجي
ولهم في الصبح ربيت صغيري
قلت : من حيفا لحيفا العود ، للمرج الغني ،
قلت للخفقة في قلبي صيري
الها مستكبر الجبهة فظا وثني
يذكر الخنجر في الرملة ،
في اللد ويافا ،
يستعيد
في دجى النجمة ايار وتشرين

يغني في القيود :
« من شراييني غد العالم ،
مما كنت ، مني والي » ..
مات كل الحب فيّ
بعد ساعات نفيري يعلن العودة
للساحة ـ
همسي بعد لحظات دوي
في يدي الميزان
لن اعدل ،
صدري اللوح والاقلام زحفي العربي
الف سبي بيميني الف سفر للعذاب
بعد لم يكتب كتاب
كلمة قيلت وماتت في الضجيج
كذبة سفر الخروج
سوف لا ينشق بحري اليوم ـ
قاع البحر صبار وتيه سرمدي
من شراييني غد العالم ،
مما كنت ، مني والي ..
غرقي والصلب والغربة
اوهام غبي
سوف يمحو الثأر ما اهوى
ويبني ـ من جديد ـ كل شي ..

قطر ـ دخان

حسن النجمي

"حتى يبقى العشب أخضر"

وهل كان الانفصال ممكنا

بقلم مطاع صفدي

لا تزال المسألة في قضية الكتابة هي ان يعرف الاديب لماذا يريد ان يكتب . وبقدر ما طرح هذا السؤال وتعددت الاجوبة ، فاننا لم نزل فعلا في حاجة الى وعي السؤال واستمهال الجواب قبل ان نلقي بـــه ببساطة من يرى الامور واضحة كل الوضوح ، ولكنه لا يرى شيئــا فـي الواقع .

ان كتبا كثيرة تتزاحم اليوم في الواجهات ، وتقفز الـى عيون المتفرج بعناوين صارخة ، تستفز فيه همومه الشخصية وغير الشخصية. ومع ذلك فان اليأس هو حصاد القراء من اكثر هذه الكتب . فقليــلا ما تبرز الحياة التي يحياها الانسان في هذه البلاد ، من الكتب التـي تتحدث بلغة هذه البلاد ، حروفا فقط ولا مضامين قط .

ومن انواع هذه الكتب التي قاربت حد اللامبالاة النهائي منقبل القراء ، هذا النوع الذي هو القصة القصيرة . النوع الذي كاد ان يقتله الملل وعدم الاهتمام ، قبل ان يتم غرس جذوره الحقيقية فــي تربة الثقافة العربية الجديدة .

وانا ، احد الذين يكتبون هذه القصة ، ويتابعون تطورها باهتمـام شخصي ، قلما عثرت منذ سنوات على مجموعة تستحق ان تقرأ مـن الدفة الى الدفة ، وتستحق اكثر من ذلك ان يترك الانسان نفســه لشحناتها وتأثيراتها ، فتأسره وجدانيا قبل ان تستبد به عقليا ، اقــول قلما عثرت على مجموعة تماثل في فعاليتها النفسية ، ما في مجموعــة (حتى يبقى العشب اخضر) لاديب نحوي .

ان هذه المجموع هي احد الاعمال الممتازة لثمرة الالتزام الحقيقي، الذي كدنا ان نضيع معانيه في مبتذلات الصحافة الادبية .

وبالرغم من أن موجة الالتزام قد انحسرت الى حد ما قبلانتبلغ اهدافها ، فان بعض الاقلام قد ترمي من خارج الجو الادبي نفسه،بمفاجأة، تعيد بعض الثقة بهذا الاتجاه .

ولسوف نرى ان اديب نحوي الذي جاء القصة مناضلا ، قبــل ان يأتيها مختصا ، قد نجح في تحقيق الكثير من الميزات التي كانيطمح الى انضاجها ادب الالتزام عن طريق المختصين من الكتاب .

فالقصة (الشعبية) بقيت مفقودة تقريبا من الادب القومي . واذا كان بعض الملتزمين اليساريين قد حاولوا ان يعالجوا هذا النوع مـن القصة، الا انهم كانوا يفتعلون (الشعبية) ، اكثر مما يعانونها او يعايشونها م نالداخل ومن الصميم . وكانت عقبتهم دائما انهم محجوزون امـا ضمن اطار ثقافتهم التي اكسبتهم برجزة فكرية ، او ضمن أطار طبقتهم الاجتماعية البرجوازية الاصل . فلم تكن النزعة نحو (الشعبيـــة) لتكفيهم في خلق ادب شعبي حقيقي .

ولذلك كان الافتعال يجر مدعي الشعبية الى اكثر الميزات سطحية للقصة الشعبية . فسادها هذا التهويل في كل شيء ، في الالام والمصائب. واصبح عامل التضخيم للفقر ومشتقاته ، هو الاساس في فهمهم للالتزام. وكانت شخصية ابن الشعب في تصورهم ذات متناول خارجي خالص، اسير للظروف المادية التي يقاسي منها . وحتى عندما يكتشفون فيهاصالة البساطة ، فهم يجردونها من اي حساسية انسانية ، ويوحدون بينهــا وبين الغباء . وكذلك فانهم اذا عرفوا فيه ايضا صفة السذاجة ، فانهـم يخلطون بينها وبين الجهل الاعمى . انهم باختصار يأتون الى الحيــاة الشعبية بشعارات خارجية . وبذلك يضيعون اي احتكاك فعال معخوافي هذه الحياة الحافلة الفنية بالمشاعر واللدنيات الدقيقة ، والانفعــالات العميقــة .

ثم ان اكثر الادب المتجه نحو الالتزام بالقضايا الشعبية ، يتناول جوانب الحياة الشعبية وهي في حال من التكرار والجمود . وقلمــا انتبه اديب الى هذا التناول من خلال الفعالية والنشاط الذي يصـل الى اعلى حدود التمرد والثورة .

ان اديب نحوي في هذه المجموعة المفاجئة ، لا يسجل نصرا نضاليا فقط ، ولكنه نصر فني ادبي حقيقي ، عندما استطاع ان يتجاوز دفعة واحدة ، كثيرا من عثرات الادب الشعبي الملتزم . فيقدم لنا اكبر مأساة عربية ، بعد مأساة ضياع فلسطين ، مأساة ضياع الوحدة بتلك الضربة الغادرة في انفصال ما زال يستمر ويتعقد منذ الثامن والعشرين من ايلول ١٩٦١ ، يقدمها لنا ، لا من خلال الامها وفواجعها ونكساتها المختلفة في نفوس الناس من آباء وابناء ، من نساء واطفال فقط ، ولكن مـن خلال حياة النضال الشامل الذي رفض ان يعترف بهذا الانفصال ،وما زال يؤكد هذا الرفض بكل وسيلة .

ان الانفصال كمأساة وكثورة على المأساة ، في حياة الجماهير من ابناء سورية ، ظل ضائعا تحت العناوين السياسية اللماعة الكبيرة . وحتى الدراسات النظرية لم تستكمل بعد شروط التحليل الواعـي والشامل لملابسات هذه التجربة بكل ابعادها . ولكن الادب جاء ليصور لنا حياة هذا الانفصال ، من خلال الناس البسطاء . فيطلعنا على ذلـك الجانب المجهول من مختلف المعاني والمواقف وردود الفعل لدى قـاعدة الشعب في جماهيرها الحقيقية .

فلم يحدث ان حركت كارثة قومية مثل هذا القطاع الكبير مـن الجماهير العادية البعيدة في الماضي عن اية ممارسة سياسية ، كمـا حركت ضربة الانفصال جماهير سورية ، وخلفت اثرها في كل نفس . لقد دخلت الكارثة ، في شكل مصيبة شخصية ، الى احياء البسطاء والفقراء من الناس ، كما دخلت بيوت المتوسطين .

ومنذ ان حل الانفصال بهذا البلد المناضل الابي وتتابعت فصولـه المختلفة ، في المراحل الرجعية ثم التقدمية المزيفة ، والمأساة تعشش في البيوت والقلوب . وتمتزج يوميا مع الام الناس وشجونهم ، فتؤلف بذلك العمق الشامل للوحة الحياة اليومية في البيت والحي والمدرسة والمعمل والحقل .

ولذلك انطلقت الى مقاومة الانفصال كتل من الجماهير لم يسبق ان شاركت في مجهود سياسي يومي ، كما تشارك في الاحتجاج ومقاومة هذه الكارثة ، تحت اي قناع او شكل .

واديب نحوي الذي عرفناه منذ القديم مناضلا جماهيريا ، عــاش تجربة شعبه في اكبر حصن للوحدة في مدينة حلب ، وفي منــاطق احيائها القديمة الشعبية ، العريقة بتراثمن النبل والعفوية والمطامح

البطولية .

لقد روى لنا (اديب) في مجموعته (حتى يبقى العشب اخضر) قصة النضال الشعبي ضد الانفصال ، من لوحاته الحقيقية ، ومن ابعاده اليومية ، ومن مآثره الصامتة الرائعة . وبالرغم من وحدة الموضوع في هذه المجموعة ، الا ان (اديب) كان يقدم لنا في كل قصة بعدا جديدا للمأساة ، ويبرز لنا نماذج انسانية اخرى تكشف في وقت واحد عن عمق جديد للانسان الشعبي ، وعن معنى نضالي اخر من معاني مقاومة الانفصال .

ثم مزج (اديب) هذا الانبثاق الانساني الملون بمادة من الفولكلور، لم تعرفها القصة العربية من قبل . لقد حاول اديب ان يبطن اثار النكبة وامتداداتها لكل مظهر من مظاهر الحياة الشعبية ، لعادات ابناء الحي والقرية ، وللمعتقدات الغيبية ، وللطقوس والاخلاق ومظاهر السلوك المعقدة ، التي يمارسها اكبر قطاع انساني من امتنا ، وكيف ان كل هذه الظواهر الاجتماعية والفردية قد اتخذت ايقاعا خاصا ، هو ايقاع الفجيعة والتمرد في الان ذاته .

واديب يكتب لنا كل ذلك من خلال ما عاناه هو نفسه بين رفاقه واصدقائه من ابناء الاحياء الشعبية . هذه الاحياء التي نشأ فيها اديب واحبها ، ثم تبناها انسانيا ، وجعل منها قطاعه المأثور للعمل الثوري .

واديب بلغت تجربته مع هؤلاء الشعبيين ذروتها خلال مرحلة الانفصال الاول . فلا يكاد يصور لنا لوحة شعبية الا وهي صدى لزخم معاناة حقيقية . فلقد ناضل اديب مع هؤلاء الناس ، سكن بيوتهم البسيطة واختبأ معهم في المقابر ، ونظم معهم مختلف اشكال المقاومة ضد سلطات الانفصال . وهكذا فان (اديب) وهو يكتب لنا تلك القصص ، التي بمثابة الوثائق والشواهد على نماذج حقيقية من الحياة والفعل والثورة ، انما يسعى الى تكرار الواقع نفسه على مستوى الفن والمثل الدرامي .

ولقد اتبع اديب في هذه القصص ذات الموضوع الواحد ، المتعدد في ردود المواقف الانسانية عليه ، اتبع اسلوبا مرسلا ، ولكنه يبقى ملونا ببساطة الحديث العادي . حتى ليشعر القارىء ان البطل اما انه يحدث نفسه او يحدث شخصا اخر . وهو في كل ذلك ، تراه يعيد ويكرر الفاظه وهي مشحونة بانفعالاته المباشرة . فالترداد ، والتقديم والتأخير ، والحوار الذاتي المرسل ، والالتفاتات الخارجية ، كلها عوامل تريد ان تربط السرد بالفجيعة الشعبية .

ومن ناحية اخرى ، فلقد كتب (اديب) هذه القصص بلغة اقرب الى العامة . ولكنها ، على شدة بساطتها ، لا تخرج اجمالا عن الفصحى من حيث ايقاعها في النفس ، وان تجاوزت اساليب السبك الفصيح . فلقد اراد الكاتب ان يكون شعبيا في كل شيء ، حتى في السرد اللغوي.

ومع ذلك فقد ظل اديب يحافظ على مستوى في الحس الفني، جعل العبارات العامية ، والحوار الذاتي ، وكل هذه السيالة من الدفق الكلامي الذي يبدأ في اول القصة ، ويتابع دفقاته وتموجاته ، ذات وقع شاعري ، يهز النفس ببساطته وبراءته .

فاذا ما استمعنا الى ذلك الشيخ الهرم الذي يجلس بجانب قبر ابنه ، وهو يسرد لنا آلامه من خلال خطاب يوجهه الى اولاد في سن ابنه اعتادوا ان يقرأوا القرآن على القبور لقاء اجور زهيدة ، فاننا نلمح ابعادا متتابعة وراء تلك الجمل البسيطة والذكية في الان ذاته . ففي هذه القصة الاولى من المجموعة ، والتي جاء منها اسم المجموعة (حتى يبقى العشب اخضر) يقدم لنا الكاتب لوحة انسانية حافلة بالظلال الموحية والملامح الشعبية الفولكلورية .

وتكاد هذه القصة في الواقع تكوّن النموذج الاساسي للنوع الذي سوف ينمو وينضج خلال بقية القصص في المجموعة . فهي تحوي مختلف الخصائص التي ستتضح بعض جوانبها بين قصة واخرى . كالبساطة المشبعة بالايحاء ، والانفعال المباشر والصدق المتعاطف بين البطل والقارىء ، والاشارات الرمزية ذات الدلالة الاجتماعية والثورية ، وذلك التموضع في الامكنة وضمن نماذج الحياة اليومية الشعبية ، وخلال العلاقات العضوية الانسانية في وحدة ابناء العائلة وابناء الحي ، كرمز للوحدة القومية في صورتها الانسانية المباشرة . ثم هذا الكشف المتواصل لجرم الانفصال ونذالته ، امام البراءة المطلقة التي يمارسها هؤلاء الابطال الشعبيون ، والتضحية المتواصلة من خلال ظروف الفقر والاضطهاد . فكأن الكاتب في النهاية يريد ان يعيد تلك الموضوعة الاساسية للثقافات الاشتراكية وهو ان الشعب وحده يملك كل ما خسرته الطبقة الفنية الاخرى وما لم يمكن ان تعوضه . انه مستودع البراءة والاخلاق ، وهو وحده الذي يستطيع ان يحس بالمفارقات والاخطاء والجرائم دون مواربة او تغطية .

في قصة (حتى يبقى العشب اخضر) يخاطب البطل اطفالايمارسون القراءة على القبور . فالمقبرة هي على طرف الاحياء ذاتها التي تعيش فيها هذه الطبقة ، والاولاد من الحي نفسه . والرجل يعرف آباءهؤلاء الاولاد . وهكذا تبرز هذه الرابطة العضوية في المكان وفي الجماعة الانسانية . فليس ثمة غربة بين الذات والذات . ولكنها غربة بين الناس جميعا وبين الجريمة ، هذا الوحش الخارجي ، الذي داهم كل علاقة طبيعية ، كل امن بريء ، كل سلام اصيل تلقائي . فكأنّ بمثابة الكاشف ايضا لاخفى آلام هذه الجماعة البشرية ، ولكنوز قيمها الابدية في الوقت ذاته .

ان « صالح ابو الشامات » الرجل « السوادي » الذي قضى حياته يكنس شوارع الاغنياء ولم يرزقه « الله » الا بولد واحد بعد تسع بنات وقتله الانفصاليون ، يقص علينا من خلال تفجعه على ولده وفقره وشيخوخته معنى ذلك الصمود الاصم المستمر امام النوائب كلها، حتى مصيبة الانفصال نفسها . ومن خلال كل ذلك يربط الكاتب حياة الشيخ بحيه وابائه واجداده وبارض « الجبانة » نفسها ، ويبرز عادات شعبية كثيرة من اثناء السرد كعادة زيارة القبور والقراءة عليها ، وانبات

الحشائش فوقها ، ودفن الموتى الاقرباء فوق بعضهم في قبر واحد . كما دفن هذا الشيخ ابنه « عبد القادر » في قبر ابيه « عبد القادر » وهو اسمه ايضا . فكأن ايقاع الميلاد والفقر والبنات التسع والمآسي القومية ، ودفن الاحفاد في احضان الجدود ، هو الايقاع الرتيب لحياة البؤس والنبل ، حياة الانسان العربي المسحوق .

ولعل من ابرز تلك اللفتات الرمزية ، التي تجري مجرى السهولة وليس الاصطناع ، في هذه القصة عندما يربط هذا الشيخ بين مقتل ابنه على يد الانفصاليين مع تحديد ذلك المكان « الغريب » ، مكان الاغنياء « قتلوه عند العبارة ، هل تعرفون بناية العبارة ، قريبا من باب الفرج ، حيث العمارات العالية والسيارات الكثيرة ، والسينما .. ؟ » ، وبين مقتل ابن جاره على يد اليهود في الجبهة .

ثم هذا الاقتران الشاعري ، وكانه جزء من سمفونية شعبية ، بين ابن الشيخ وبين الزهر ، اذ كان يعمل عند « جنيناتي » لغرامه بالزهور والورود . ثم حتى عندما مات ، فقد كان ينقل الزهور . ثم ايضا وضعه معلمه وهو جثة هامدة في صندوق للزهر ليخفيه عن الانفصاليين الذين كانوا يجمعون الجثث ويخفونها اثر كل معركة بينهم وبين الشعب .

ولم تبق لهذا الشيخ سوى امنية واحدة يتمناها على اولاد الحي : « لكن يا اولاد الحلال ، تعملون معي اكبر معروف ، ويكون لكم عند الله الثواب ، اذا حمل كل واحد منكم من بيته القريب أبريق ماء يوم الجمعة ، واتى في شهور الصيف حين ينقطع المطر ، فسقى هذا القبر بالماء ، حتى يبقى العشب الذي ينبت فوقه اخضر . »

***

وفي قصة « شيخ الضيعة » ينتقل بنا « اديب » الى لوحة فولكلورية جديدة ، تبرز الوانها الشعبية على عمق نضالي رائع . فالاحياء الشعبية والقرى الريفية ، التي دخلت كلها مجتمعة ، في حرب مختلفة الوسائل ضد الانفصال من يومه الاول ، هي التي تلقفت قضية الوحدة والاشتراكية ، بصورة لم يعرفها اي قطر عربي اخر من قبل . ان اديب يبرز لنا نموذج « شيخ الضيعة » بغروره الساذج وكبريائه المحببة ، من خلال حوار طريف مع حمال من المدينة . فنعلم ان شيخ الضيعة قد نزل المدينة هذا اليوم وهو يحمل اطعمة الى مكان معين ، نعلم انه السجن ، والى اشخاص ، نعلم انهم ليسوا ابناءه فقط ، ولكنهم ابناء «الضيعة» . ثم يحكي لنا القاص من خلال هذا الحوار الطريف الذي يكشف ، في طريقه ايضا كثيرا من مثل القروي وعاداته ، كيف ان هذه القرية الصغيرة الضائعة في ريف حلب ، قد وجدت هي ايضا اسلوبها في مناضلة الانفصال . فلقد رفعت علم الوحدة يوم ان زارها احد وزراء الانفصال . ثم انها ابدلت اسمها من « الرفاعية » الى قرية «الوحدوية» . ورفض شيخ الضيعة ان يختم المعاملات الا باسم القرية الجديد .

ويعرج الكاتب على فصل اخر من فصول الانفصال . ولكنه لا يقدم لنا ذلك الا من خلال الانسان ، الانسان العربي والشعبي . وفي هذه المرة نحن امام جندي شاب ، يقوم بخدمة العلم . وقد كلف في الثلاثين من ايلول المشؤوم بحراسة نوع معين من « السجناء » . انهم كوم من الرجال والنساء والاطفال ، قد كدست في البرية خارج حلب . وكانوا قسما من شهداء الايام الاولى للانفصال .

وان حمدان الذي يرفض ان يعترف بانه يخاف من هذه الحراسة للاموات ، يصر على ان ارتجافه هو لانه « بردان » . ولا بد لنا من ان نتعرف الى شخصية هذا الشاب . فيسرد لنا الكاتب خطوطا اساسية لحياته ، بذلك الاسلوب الذاتي ، الذي تظل كل تفاصيله ملونة بالموقف الاساسي في القصة : رفض الخوف والتمسك بالتجلد . ثم يتطور الموقف نفسه الى هذا الندم المحاط بالبراءة عن شيء لم يرتكبه الجندي . فلقد ظل يذكر القتلى كيف حدثوه في تلك الليلة ، وكيف كانوا يقولون له : هل نحن اشترينا لك البندقية يا حمدان لتقتلنا ؟

ولكن حمدان الذي تناط به فيما بعد حراسة « الجبانة » خوف ان يهرب اليها المجتمعون ليلة عيد الوحدة ، يدرك ان الذين قتلوا لم يقتلوا الى الابد . وان نيام الثلاثين من ايلول قد « قاموا » . وها هم يهجمون عليه من كل حدب وصوب فالمقاومة اذن لم تمت ، ولم تقتل ، ولم تنم الى الابد !

***

ومن القصص التي تجمع بين مختلف ميزات هذا النوع النادر في ادبنا المعاصر ، اي الفولكلور الشعبي ، والمأساة الانسانية ، والاسلوب الشاعري الملون ، والعمق القومي والوجداني ، قصة « ليلة الزفاف ». فهي في الواقع قصيدة شعبية منثورة ، ذات ستة اصوات في جوقة جماعية واحدة تتألف من ام العريس والعروس ووالدها والعريس والعروس . وترى الكاتب يدع كل صوت على حدة ، ينشد تساؤله عن السبب الذي جعل العريس يؤجل ليلة زفافه ، دون ان يعين موعدا اخر لها . ولكن هذا التساؤل يأتي ايضا كاشفا من خلفه مختلف مظاهر النموذج الفولكلوري للزواج ، وما يحاط به من طقوس وغيبيات ، وما يوضح من مفاهيم ومواقف الانسان الشعبي من هذا الطقس الحافل . ويسير كل نشيد ، مع ذلك ، على ايقاع جنائزي وتفجع بدائي ، وتوسل بالتعاويذ ، والادعية وترداد الامثلة الشعبية وغيرها .

فان ام العريس التي تبدأ هذه الجوقة الشعبية والطقسية،تأخذ في كشف تقاليد الاعداد لليلة الزواج « الكتاب كتبناه . ومد الصدر والجنب انهيناه » . وتتحدث عن الاستعداد في شراء الة الخزانة المؤلفة من قرص السكر الابيض والجوز واللوز والفستق . واستئجار التخت والكراسي والاتفاق مع « الخوجه » و « الرقاصات » . وكيف انها ارادت لابنها عرسا حافلا بالرقص والغناء وضرب « الصناجات » لا كعرسها الذي مضى دون ان يشعر به احد . ثم كيف مد العشاء وتهيأ كل شيء ولم يأت العريس . فقد قبضت عليه الشرطة . ولكن ها قد انتهى الحبس ومع ذلك فما زال العريس يرفض تحديد ليلة الزفاف . وتأخذ الام كما لو انها تحاول ان تتصور افراح ليلة الزفاف، فتبدأ في ايضاح تقاليد اخرى للحفلة قد يعرفها بعضنا ، ولكن اكثرنا هو في سبيله الى جهلها . ومع ذلك فعندما تبرز من خلال هذا السياق التفجعي ، تأخذ صورة فنية جديدة ، تكسبها ايحاء طقسيا اخر .

ويأتي صوت والد العروس الذي يدور نشيده حول موضوعةشعبية اخرى ، هي من تقاليد « الرجولة » في بلادنا . فكيف سيقابل الناس عندما يتساءلون عن سبب تأجيل الزواج من ابنته . ولا بد ان يلغط بعضهم حول « اخلاق » الفتاة وهكذا .. ثم يكشف هذا عن بعض تقاليد « المرجلة » عندما كان شابا ويشرب العرق ، ويتشاجر مع رفاقه دون ان يقرب من ... الشرطة . ولكن احمد كيف سكر ليلة زفافه وتخاصم مع الشرطة . ثم ها هو قد خرج من الحبس والى متى يؤجل الزفاف .

ويعلو صوت ام العروس ايضا في هذه الجوقة النموذجية ، فتضرب هي الاخرى على وترها الخاص ، من خلال مخاطبتها لام العريس. فتذكرها كيف طالت فترة مناقشة المهر . وكيف ان بنتها عيوش الجميلة « الشقراء البيضاء الخ » ، كانت مجال تنافس لاكبر عائلات الحي.ولكن اباها فضل احمد على الاخرين لان والده كان صديقا له . ولان«القسمة والنصيب» هي التي حسمت كل نقاش اخيرا . واخيرا تود الام ان تعرف من ام العريس ، بالرغم من ان الشباب يحسدون ابنها على هذه الفتاة الرائعة ، هل ان العريس قد « قلب » . والكلمة في العامية تحمل معاني كثيرة منها الخوف من التعريض بشرف الفتاة ، والشماتة من قبل الحساد وغير ذلك ، مما يعتبر في طقوس هذه الحياة اشبه بكارثة تحل بعائلة الفتاة وسمعتها معا .

وننتقل الى اسلوب اخر في النشيد على لسان العروس التي تخاطب بنات الجيران صديقاتها وهي تخشى من التأويلات والقيل والقال. وتكشف عن قصة حبها باحمد ، حين تذهب الى ملء (السطل) من (حنفية) الحي وتراه وتعجب بجماله . ثم تشن هجوما معاكسا على البنات اللاتي يتقولن الان حول الغاء الزفاف . فترميهن بالحسد والغيرة

لان احمد الشاب الجميل القوي ، قد اختارها هي من دون بنات الحارة كلها . وكذلك نعرف من خلال حديثها ان سبب زواجها كان هو الحب ، والحب وحده الذي تفخر به هذه الفتاة . ونعرف كيف ان اهلها ارادوا ان يقسروها على الزواج من شاب اخر دفع مهرا غاليا . ولكنها هددت هي بالسم . وهكذا فلم يكن السبب اذن كما ادعى والدها وهو انه كان صديقا لوالد العريس . ولا كما ادعت الام انها (قسمة ونصيب) .

ويأتي اخيرا صوت العريس ، ليكون خاتمة لهذه الجوقة المأساوية. فنعلم منه انه قد رفض الزواج حدادا على صديقه الذي اغتاله الانفصاليون يوم ان نظم معه مظاهرة للعمال في صبيحة اليوم التالي للانفصال . وحدادا ايضا على العشرات الاخرين من رفاقه الذين سجنوا وعذبوا . ومن خلال صوته يطلعنا على جانب من قصة الانفصال في يومه الاول في حلب . وكيف ان قائد الموقع كان مصمما على المقاومة ولذلك دعا زعماء العمال والاحياء لتنظيم مظاهرة في اليوم التالي وتسليمهم اسلحة . ولكن الانفصاليين كانوا في نفس الليلة قد استطاعوا ان يحتلوا الموقع ويسيطروا على حلب (عسكريا) .

ان احمد يقول مخاطبا امه : قومي وتغطي بالملحفة ، واذهبي الى بيت العروس وقولي لامها وابيها ، ولكل من يسألك من اهل الحارة : ان احمد بن حسن البطل ، لا يتزوج ابدا ، ولا يفرح ، الا بعد ان تعود الوحدة .

لا شك ان هذه القصة في المجموعة ، تأتي في المستوى الاول من حيث تحقق النموذج الشعبي الدرامي والانساني الذي التزمت به المجموعة كلها .

وفي القصص الاخرى يعرض اديب الوانا اخرى من نماذج الكفاح الشعبي العفوي الذي قدمته مدينة حلب عن سورية كلها . فلا يترك نموذجا الا ويحلله من خلال هذا الدفق الشعبي السمح ، ومن ملامح فولكلورية غنية ، ومن برادة انسانية مطلقة ، تكشف عن اصالة القيم في تربة هذا الشعب المكافح .

ان التعذيب في الاقبية ومراكز الشرطة ، وسجن المئات في غرف ضيقة ، و (تعرفة) الضرب بالسوط على الاقدام والظهور تبرز كلها من خلال قصة (الجدول والتعرفة) . والمعذبون دائما عمال وشباب صغار ، ومن عائلات فقيرة ، وامهاتهم تجاهدن في الخدمة والعمل من اجل تربيتهم ثم دفعهم الى ساحات النضال .

وفي القصة ايضا شبه اسطورة عن كيفية كسر يد احد رجال الشرطة الانفصاليين اثناء ضربه لاحد المعتقلين . وكيف تداول الناس هذه الاسطورة . اذ ان عجوزا هي ام لاحد الشباب الصغار المعتقلين ، قد وقفت خارج المخفر وكشفت عن رأسها ودعت على يد كل من يضرب ابنها بالكسر . وفي تلك اللحظة كسرت يد الشرطي . وتبين بعد ذلك كيف ان هذا الكسر قد حصل عندما استطاع الموقوفون ان يهجموا على الشرطي الوحش (اسعد طرابيشي) ، ووصل منهم شاب « أطول من اسعد طرابيشي واعرض ولون وجهه اسمر ، وله شاربان مبرومان . تلقاها (اي الذراع) بسرعة ، وهي نازلة وبكلتا يديه وزعق :

– قف يا كلب حتى اعلمك كيف تضرب الرجال ، لا النسوان العجائز والاولاد الصغار .

ثم هو ىبها على ركبته ، في ضربة واحدة : طاق .. فانكسرت شقفتين ! »

ومن هذه القصص النماذج ايضا (حجر الزهر) التي تحكي طرفة رائعة عن ذلك الاندفاع التي اختفت وراءه دائما ، وكلها منتزعة فعلا من صميم الواقع .

فان شيخا قد ابتكر اسلوبا لكي يضع حدا للتنافس بين ابنائه من اجل الاشتراك في المظاهرات الدائمة التي كانت تخرج من الاحياء الشعبية ، وتقدم في كل مرة عشرات من القتلى والجرحى والمعتقلين . وهو تنافس كان يجري بصورة خاصة على حمل علم الوحدة في مقدمة المظاهرة . كان الشيخ اذن قد توصل الى اسلوب لتنظيم هذا التنافس يضرب بحجر الزهر ، ولكل ولد رقم ، وكان الاب والام ، الحرمة (ايضا) والاولاد الكبار يتحايلون كلما جاء الزهر برقم الولد الاصغر عمر . ولكن عمر كان يتحرق للعمل ، وعندما وقع الزهر وجاء رقمه بالرغم من احتياطات الاب والوالدة ، فانه خرج في اليوم ليحمل العلم على رأس مظاهرة المعمل الذي يشتغل هو فيه ، فكان ان قتل قبل ستة اشهر . ثم حمل الاب العجوز هذا العلم ايضا باسم ولده الاصغر عمر. وكان نصيبه ان يدخل السجن ، وان يلعب بالزهر امام الاخرين الذين عابوا على رجل عجوز ان يلعب بالزهر ، ان يقامر، قبل ان يعرفوا قصته.

واما قصة (صفارة الحارس) فتعطينا ايضا صورة تحقيق عن اسلوب اخر من تنظيم النضال الشعبي في احياء حلب ، باسلوب رشيق معبر . فنعلم كيف ان (الاولاد) يخرجون ليلا ويلصقون المناشير ، ويكتبون عبارات الذم بالانفصاليين على الجدران . وكيف قد اخترعوا (لعبات) كثيرة لتضليل الحارس ، والهرب من صفارته . ونطلع على الوسائل الاولية التي يخترعها هؤلاء (الاولاد) في تأليف جمعيتهم ، وجمع الاشتراكات من (الخرجيات) ، والحصول على ورق للمناشير من دفاتر المدرسة ، وتدبير الصمغ بواسطة النشا .. وكل هذه الطرق البسيطة، التي كانت مع ذلك سلاحا رهيبا لزعزعة مختلف عهود الانفصال.

ولعل من اكثر هذه القصص تأثيرا ، قصة (مطاليب الشعب) . وهي تتلخص في مظاهرة صامتة من مختلف رجال وشيوخ الاحياء وقفت امام قصر المحافظ ثم عندما دخل وفد على المحافظ الذكي وقالوا كلمة واحدة : بدنا اولادنا ! راح هو الاخر يهدد ويرغي ويزبد ثم يلجأ الى اسلوب التطمين ، ويعد بالافراج عن المعتقلين .

ولكن غاب عن المحافظ ان (الاهالي) كانوا يطلبون : جثث ابنائهم الجثث التي دفنت فوق بعضها في حفر كبيرة .

« فكيف يذهب الواحد منا ، يوم نصف شعبان ، او صباح يوم العيد ، ويستطيع ان يعرف اين هو قبر ابنه ، ليقرأ له سورة ياسين ، ويفرق رطلين من الخبز للفقراء على روحه .. كيف ؟ يا سيدي ، يا عطوفة المحافظ ؟ »

***

ان (اديب نحوي) الذي عانى الانفصال الرجعي الاول كواحد من طليعة القادة الشعبيين في حلب المجاهدة ، عانى هذه القصص ايضا . فكان واحدا من القلائل الادباء السائرين في قافلة الثقافة الشعبية الهادفة . وفي مجموعته الاولى هذه لم يقدم شواهد ووثائق عن احداث وظواهر ونماذج من العمل ضد الانفصال والانفصاليين ، لم تعرف الا من خلال بعض عناوين الصحف والاخبار العابرة ، بل اعطى فنا شعبيا جديدا غنيا ، لم يشق طريقه بعد في آدابنا المعاصرة .

وان (اديب) الذي ما زال يقود هذا النضال الشعبي في حصن الوحدة الاكبر في حلب ، ضد الانفصال البعثي الجديد ، الذي حاول ان ينجح في القمع والارهاب والتعذيب ، ما لم ينجح فيه انفصال الكزبري السابق ، هو الذي يفتتح ادب (الوثائق) في ثقافتنا الملتزمة الجديدة.

ان هذه المجموعة الرائدة ، الى جانب الذخر الفني والفولكلوري ، تريد ان تبرهن على شيء واحد ، لكل انفصالي رجعي او عقائدي وهو :

ان محاربة الوحدة في سورية مستحيل ، ولا يقدم عليه الا مجنون او عميل ، وكذلك فان استمرار الانفصال في سورية هو مستحيل اخر .

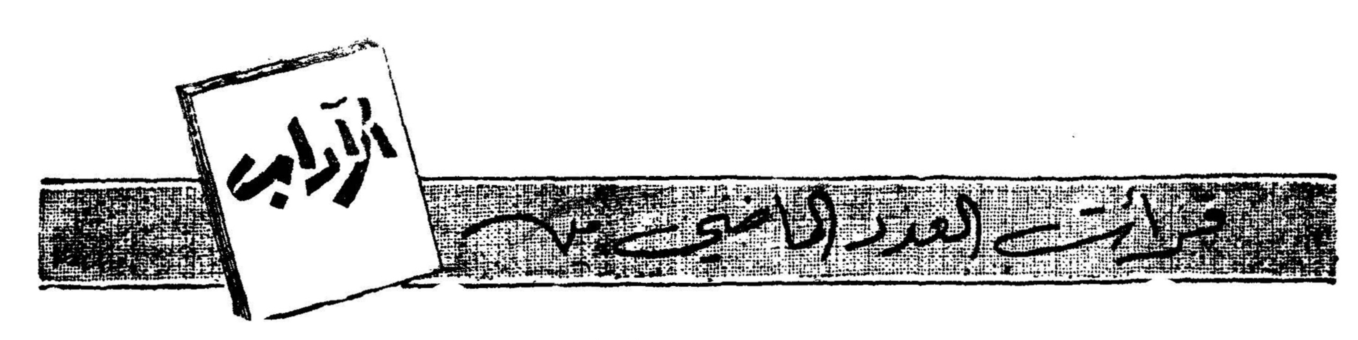
ولعل الانفصاليين القدامى الذين جربوا هذا (المستحيل) وآثروا السلامة موقتا ، يقدمون لتلامذتهم الجدد هذه النصيحة ، التي راحوا يصطدمون بها كل يوم ، وتحت كل قبو للتعذيب ، وفي دهليز كل حي ، وفي كل غرفة من قضبان وعصي وزبانية .

الانفصال مستحيل ، ومحاربته مستحيل اخر ، فلا بد قبل ان (يستقر) من قتل كل الشبان ، كل الشيوخ كل النساء وكل (الشعب) في سورية .

والذين ما زالوا (ماضين) في هذا القتل ، بدأوا هم انفسهم يدركون عقم المحاولة . وراحوا يوما بعد يوم يغرقون في الدم ، دم (الشعب) حتى اعناقهم .. وان موعد اختناقهم فيه لقريب . وذلك هو الممكن وحده . .

في كل هذه المأساة المستحيلة !

مطاع صفدي



القصـــائد

بقلم الدكتور احمد كمال زكي

***

نحن ندعو الى ان يقرأ الشعر ...

وشرح الشعر او تحليله – في رأينا – وسيلة الى قراءته ، وليس مؤامرة يقصد بها قتله . ولقد كنا اعتدنا الا نقرب القصيدة العمودية بأي نوع من انواع المناقشة ما لم تكن بلاغية تتناول اصول الصناعة اللفظية ، وكان وضوحها المفرط يعفينا دائما من الالتفات الى قيمة التجربة التي تتضمنها . الا ان شعر اليوم وقد ارتبط بروح العصر – ففارق طور البداوة والرومانسية – يحتاج الى اكثر مما عولجت به قصيدة الامس ، بحيث يصبح علينا ان نتسلح باكثر اسباب المعرفة – ومنها الفلسفة – من اجل ان نجعل شعر اليوم يقرأ ، ومن اجل ان نتبين بعد قراءته التجربة .

اقول ذلك وبين يدي قصائد « الاداب » التي نشرت في عدد مايو سنة ١٩٦٤ ، ومع حرصي الكامل على التزام الموضوعية في نقدها فانني لم انجح كثيرا في ان اجعل اغلبها يقرأ . وعدم النجاح في حد ذاته تسليم بصعوبة تلك القصائد ، ولكنه لا يعني قط ان اصحابها مزيفون ، بل على العكس لقد كنت اجابه منهم بانطباعات صادقة . وكان واحد كفواز عيد يفتنني بالمعية ميزت انتاجه على نحو حاولت ان اقيمه من قبل ، غير انني احسست ان في ابياته ما يحول دون تلقيها تلقيا كاملا .

ومن ناحية اخرى لحظت ان استغلال الاساطير والفولكلور كله لم يكن من العمق بحيث يمنع من ان تنوء القصائد بمثل ذلك التصنع الذي ورثناه عن الاولين . وتردد الشعر من ثم عند هذا وذاك – الا قليلا – في ضبابية لم تستطع ان تخفي الارتباك في الاسلوب ، ولا الاغراق في الاصالة . وكان يبدو لي ان الشاعر المعاصر ملء الرأس بما يصرفه عن التلقائية العاقلة ، بمعنى انه كان يشعر بعقله اكثر مما كان يفكر بقلبه .

ان مواهب الشعراء على ما كشفت عنه محاولاتي لنقدها نقدا موضوعيا لم تسفر الا عن ان قصائدهم لم تكن – في مجموعها – انتاجا متكاملا بقدر ما كانت تصويرا لرؤي ميتافيزيقية غامضة ، وللحكم استثناء ارجو ان يبين عند التفصيل !

قصيدة الراوي :

ما زال الصديق عدنان الراوي مرتبطا ارتباطا تاريخيا بالتعبير التقليدي ، ولقد اراني محتاجا الى من ينبهني الى انه في قصيدته « عندما يغيب حامل السهام » يشجب التقليد ، ولكنني لا افتأ اصر على انه لم يفعل فيه اكثر مما فعل في حدود تقليدياته . فهو لا يزال بعيدا عن الحركة الشعرية الجديدة في ابعادها الانسانية واشكالها المتحررة ، ومجرد تخليه عن التنسيق البيتي لا ينقله قط من مرحلة الى مرحلة . لقد عمل عدنان الراوي سنين طويلة في حقل ضمن فيه ان يكون لاستعداده الجماهيري وضخامة نبرته تأثير ايجابي علينا ، واخشى ان يفقد هذه الخاصة لو تغنى بمثل ما صدر عنه – نوعا وشكلا – في قصيدته « عندما يغيب حامل السهام » .

والقصيدة بعد هذا جميلة ، بل اجمل كثيرا مما كتب قبل . والتجربة المرة – تجربة فراق زوجة وابنة له – من الاشياء التي لا تزال بعيدة عن الدائرة ، غير انه استطاع ان يفيض بانطباعات تصويرية رقيقة جاعلا بها بيته عرشا لاميرته ، ومسرحا لابنه الصغير يلعب عليه دوره في تكسير كل شيء وتناديه مراياه الباقية من اجل ان تنكسر .

ومع ذلك فقد ازعم ان عدنان الراوي لم يرصد في هذه القصيدة الحلوة اكثر من جبن عاطفي تحت وطأة فراغ يشعر به كل اب وزوج ، مع ملاحظة انه خلط فيها عروضيا ، وذلك عندما جعلها من الكامل مصطنعا بعض زحافات الرجز ، ان لم يكن قد قصد الى ان تكون رجزا باستثناء المقطعين الرابع والخامس .

السهـوب :

هذه القصيدة التي كتبها من دمشق فواز عيد نموذج جيد من نماذج الشعر الجديد . ولكن من الواضح ان الشاعر على ما قدم فيها من محاولات لتوطيد دعائم « الحقيقة » و « المعرفة » لم يسهم اسهاما فعالا في الكشف المنشود ، حتى حدود ان يكون الكشف صوفيا او ميتافيزيقيا . بل كانت الكثافة الشعرية تتأرجح عنده من حين الى حين ، بحيث عجزنا معه عن ان نصل الى حالة مستقرة من التلقي الشعري .

ويبدو لي ان فواز عيد لا يزال يبحث عن نفسه برغم ما ظفر به من نجاح في قصيدة « السهوب » وفي غيرها ، او لنقل يبدو انه لم يتوصل الى اسلوب خاص في التعبير الشعري الذي يمنحه الحرية لان يربط بين الحالات – المادية والروحية – الربط الذي يترجم عن التعقد المجتمعي دون ان يتعقد . فبينما نراه ينطلق – بعد استهلال تقليدي – وراء تلك البعيدة ليعلن تمرده على الذين يعجنون النرجس بالطين يقف فجأة عند العربي الذي يصدع الشمس بسيف وعباءة ، وذلك دون تحديد واضح للطريق الذي قطعه . حقا لا نلمح في حديثه زيفا وهو يتحدث عن زيف ولا نسمع صخبا وهو يومىء الى معركة المصير العربي ، الا انه يرفض ان يخفف العبء عن ادائه الفني ، بل يبدو كما لو كان يقصد الى ان يغلف صوره تغليفا اخطأه اكثر من شيء الا الايحاء الفضفاض .

وعلى الرغم من ذلك فالقصيدة بحق من احسن قصائد العدد ، ودلل فواز عيد بمضمونها الذي يرصد لانتظار الخلاص من العسف وانتظار للربيع الذي تسبقه عادة رياح الخماسين على انه الانسان العربي الرشيد ، وكم ارجو ان يبعث رغم انف السهوب بريده الحلو الى الجنوب .

قصيدة شوشة :

هي دعوة الى النسيان ، وفي الوقت نفسه دعوة الى الالم والموت . ولست ادري الام يظل فاروق شوشة – المقيم في الكويت – مع احزانه التي لا مبرر لها على الاطلاق ، بل لست ادري متى يعفينا من الاجترارات العاطفية التي تكبو بنا في سلبية مطلقة . انا شخصيا احب غنائيات اي

شاعر بقلبه الذي يحب حتى التفاؤل ، ولكني لا احب غنائيات كل شاعر يحزن على القلب الذي ضيعه .

وتبدو القصيدة ـ على النقيض من كل اشعار عدد الاداب الماضي ـ واضحة تنساب في تيار هادىء بلا زخرفة ولا صناعة . ولكن التوافق الايقاعي فيها يحمل لنا رتابة تفضح ما وصلت اليه حالة الشاعر من خمود وجمود !

فهو يبدأ بالنغمة المألوفة التي تكشف عن وقع الالم .. دموع وصراخ ، ثم يتبع ذلك استسلام وخنوع وصبر بلا حدة ، في حين كان امامه نقلات التجربة من بدنها الى ان تصير المحاجر رؤي واسرارا ، الى ان تكون النهاية قبض الريح فقط .. اقول كانت امامه هذه كلها مثارا لايقاعات مفاجئة تزيل عن القصيدة رتابتها ! والعجيب انه يعود من حيث بدأ بعبارات اخرى ، دون ان يخلصها من ظلالها الاولى ، بل يأبى الا ان يكرر الالفاظ نفسها التي ورطته في المسارب التي قد يلتقي فيها مع اخر او اخرين .

ولغة فاروق شوشة ـ وهي ترتبط الى حد بعيد بلغة عدنان الراوي ـ من النوع الذي يقصد الى الصورة الفنية من أقرب سبيل ، وحتى رموزها لا تخرج عن التشبيهات والاستعارات التي دارت من قبل في اغلب القصائد التقليدية . خذ مثلا قوله « تعود لتمسح الهدب الكسيح » وقوله « سنرجع دونما ظفر فقد دميت اظافرنا » وقوله « لعل مأتم الاحزان تمنح بأسنا مأوى » وخد ما تريد من عبارات ، فانها لا تشكل الشاعر الذي يتفرد بشيء ما .. بشخصية تنم على استقلال حقيقي !

ومع ذلك فكل صورة ـ اعترف ـ تضيف اسى الى الاحساس بالفجيعة الهامدة والتخدير المميت . وندرك على العموم ان فاروق شوشة عندما يتحدث عن موت قلبه ، انما يتحدث عن مرارة هي في اعماقه ولكنها لا تخرج الا في هذه الصورة التي تبدأ بالاشارة الى النهاية ، ثم يعاد ذكر النهاية مرة ومرة ومرة .

بين قصيدتين :

واصل وثبا الى جيلي عبد الرحمن ، وهو صوت سوداني تدرب في مصر وغنى في موسكو للتغرب والتفجع . ولقد كنا نرى لجيلي وهو في القاهرة اشياء عن الغربة فنربطها بتفكيره في الاهل ، وكان مع ذلك سائرا على نحو ما في فلك الذين جعلوها مظهر احتجاج واعلان خصام . ولقد ظل يلح عليها في اغلب قصائده الاخيرة ، ولكن داخل المجال نفسه الذي لم يتعب من السير فيه ، فلم يخرج قط الى الصعيد الانساني الذي يستشعر الفقد حتى وهو بين الاهلين ، بمعنى ان جيلي ظل يريد شيئا وتعبيره الفني كان يدفعه الى شيء اخر .

وفي قصيدته « العائد » يضيف الى موضوعه الاثير تجربة الموت ـ والموت من الموضوعات الكبيرة التي تشغل اعظم حيز في الشعر الجديد ـ غير انه لم يستطع ان يودعه الا مقزى هزيلا ، وظل الموت عنده نهاية حياة عادية جدا . اما الظلال التي احاط بها عملية « التشييع » فترتبط بدورها بصور الاسى العادية ، ومن ثم لا يمكن ان نزعم انه اضاف الى تجربة التغرب شيئا ذا بال .

ولكننا ونحن نحس ان الشاعر مضيع فعلا وانه لا يملك الا ان يقول ما قال ، نراه يصدر عن استسلام مبعثه تقديره عجز الانسان ازاء الموت ذلك التقدير الشوقي ، بل المسلم الخالص :

من مات يا احبتي عليه رحمة الاله
عزاؤنا المكتوب في الجباه
ونظرة كسيرة في غربة الحياه
وعودة أسيانة لم يحتضنها الفرح

ومن هنا تكون الغربة كالموت ، ويكون التشييع كالعودة ، انتنفادا هادئا الى ان يفتر الاحساس بحيث لا يملك الشاعر الا ان يقول في الختام :

غرباء نحن ويلتاه مثلما
يود ذلك الشقي في البعيد ينزح !

وتذكرنا القصيدة بعد هذا بقصيدة اخرى في العدد نفسه بعنوان « الراحل » كتبها من قطر الشاعر حسن النجمي . تذكرنا هذه بتلك من حيث ان الموضوع واحد هو الموت والغربة ، او الموت في الغربة . وفي رأيي ان درامية الرحلة التي بدأ بها النجمي بالاضافة الى تلك السخرية التي ختم بها لمن الاشياء التي صعدت بالشاعر الى عليين ، وكانت تساؤلاته المتساوقة مع الحدث تشدنا اليه كي تجعلنا نقول : هذه هي القصيدة الثانية ان لم تكن الاولى بلا منازع !

وقصيدتان من مصر :

الاولى لمحمد عفيفي مطر باسم « ليلة ميلاد » والثانية لعبد العظيم ناجي « اغنية خرافية » وبقدر معرفتي لمطر اجهل كل شيء عن عبد العظيم ناجي وان كنت اعجبت بقصيدته ايما اعجاب .

« ليلة الميلاد » لا تقدم شيئا الا انها هدية لسعيد الجداوي ، والا انها كان من الممكن ان تكون ابنة غير شرعية لقصيدة اليوت «اغنية العاشق بروفرك » او قصيدته الاخرى « نشيد في ليلة عاصفة » من بعض النواحي لو تعمق اسلوب الشاعر الانكليزي واستسلم لمرارات السخرية دون ان يهتف « آ ... مساء الخير » .

ملحوظة : الم يكن من الافضل لو قال « يا مساء الخير » كما نقولها في قعداتنا الخاصة ؟

واما « اغنية خرافية » فاكذب لو قلت انني فهمتها كل الفهم ، ولكنني اكذب ايضا لو لم اقل انني اخذت بغلافها المضبب . وان قصيدة فيها البيوت زاكمات الحجر والشمس تنكح ضلع الربيع وطيور العاج تغمس منقارها في الافق والعظاءة تبول فوق جبين القمر والقدر بعد ذلك او قبل ذلك يموت ، اقول قصيدة فيها كل ذلك على ما في بعضه من سماجة لعمل يلفت ، على الاقل حتى يجعلنا نسأل : ما هذا الذي يقال؟

ولقد تبين لي ان عبد العظيم يعرض لتجربة الموت وان الميت صديقة

عرفها الشاعر قبل ان يصرعها القدر ، وكانت تعيش عيشة خرافيـــة متدفقة تدفق القوة والشباب . ثم يتبع ذلك انفعال مدمـــر حين يدرك الشاعر ان التي كان يجب ان يشاركها الربيع يطلع عليها الليل المخيف

ولكن سربا من البوم ضخم العيون
اناخ على تلعة في جدار السماء
فخدش وجه القمر .
وخدش وجه القدر
فمـات القـدر

لعله قدرها هي ، وهو قدر خرافي ايضا كان قـــد هيأ للراحلة بيناوئني الارائك والاقئية ، الا ان الليل المخيف عندما هود وهوم اسرع فنقلها الى النعش الطري الكفن ثم الى مثواها الاخير . ويتحطم الايقـاع فجأة بعد ان يعود المشيعون يجدون اقدامهم او اشلاءهم ، فنرى الصحاب يجتمعون على الطعام والشراب ، ليواصلوا ما انقطع ، وهذه هي الحيـاة .. استمرار واستمرار !

ثـم مــاذا :

ويبقى في العدد ((خمسة اشياء صغيرة)) للشاعر العراقي عبـــد الجبار عباس وقصيدة ((اللقالق العائدة)) التي كتبها من موسكو حسب الشيخ جعفر . وتأخيري للقصيدتين لا يعني انهما اسوأ مـــا في عدد الاداب ، وانما يعني انهما بعض مثال للصعوبة التـــي يواجهها قارىء الشعر الجديد دائما .

والشاعران في رأيي ـ عبد الجبار عباس وحسب الشيخ جعفر ـ قادران على العطاء ، ولكن تعبيرهما أتهام لشاعريتهما . ربمـــا لضعف النسيج الفكري ، وربما لتمزق التجربة ، وربما لدخولهما آفاق الذات بفردية يائسة ، وربما لاشياء اخرى يعجز الاطار الحضاري ـ عندهما ـ عن استيعابها .

ولقد يمكن ان اقول ان عبد الجبار يعبر عن الخيبة ، او عن فشل العصر . ولكن النموذج الذي قدمه ـ فضلا عن انه يكرر نفسه فـــي قصائد مختلفة ـ لم يكن من التماسك بحيث ينضح فيه المضمون بسهولة. واما حسب الشيخ فتورط في اكثر مما تورط فيه عبد الجبار ، والتقى على الصعيد المهد مع من يغنون الحنين !

ان المنبع المشترك لهاتين القصيدتين هو التقليد ، تقليد شاعر مــا او تقليد شاعرية معينة . فبينما نرى صاحب ((خمسة اشياء صغيرة)) يبدأ بالمعاناة الفنية كما يبدؤها صلاح عبد الصبور ـ وقد يتفتح علـــى تعبيراته الخاصة ـ ثم ينطلق وراء نموذجين من نماذج ((اليوم)) الـــذي يستفتح بقطة عمياء ، نرى صاحب اللقالق مستهوى بالانسياب العاطفي الذي ينبثق عند الحنانين ويفور عندهم ايضا . وكانت صوره المتنوعـة في الظاهر لا تخرج عن القرية المهجورة البعيدة التي تغرق في المـــاء وتنسى في النخل ويظللها البردى ويعوج عليها اللقلق الدرويش ويفوح منها حصاد الارض والاكواخ .

دائما هذه الموتيفات ، ولا ابتكار الا حسن الاداء عند الشاعرين . وربما استطعنا بشيء من الاقتسار ان نزعم ان عبد الجبار في المقطعين الرابع والخامس من قصيدته استقطب الحياة في صورتين تمثلان الخارج والداخل لاي نموذج انساني ، وربما استطعنا بالاقتسار نفسه ان نقــول ان حسب الشيخ قصد ان يكشف عن ان الانسان العربي لا يمكـــن ان ينسى في مهجره ارضه وان بعد العهد بها ، او ربما قلنا ان المثاليـــة الماركسية لم تنزع من صدره تعلقه بالحس القومي ـ الذي ارتبط بيئيـا بقريته المهجورة ـ غير انه من المهم ان نسلم بقصور الشاعرين عـــن ان يقدما شيئا واضحا عن مأساة الانسان الحقيقية .

ومع كل هذا فكم اود ان اكون مخطئا في تقييمي ، وعذري ان الشعر الجديد ليس في متناول احد يدركه في اي وقت وكيفما شاء !

القاهـرة
احمد كمال زكي



بقلم عبد الفتاح الديدي

***

اعجبتني مقالة الاستاذ مطاع صفدي في قضية الوحدة والانفصال. وزاد من اعجابي بها انه اشاع منذ بداية هذه المقالة شعورا بأهميـــة الاحساس الثوري التقدمي ازاء مشكلة الوحدة . فقد اشار الـــى ان هدف الوحدة يظل هو نفسه اللحمة الاساسية لاي تكوين تقدمي ينجـم عن نضج الوعي السياسي من جهة وتحتمه التطورات التاريخية مـــن جهـة اخرى .

ولكنني اخالفه في قوله بأن الماضي له حقيقته المطلقة التـــي لا سلطان لاي ارادة ثورية عليها مهما بلغت ثوريتها وصلابتها . كما انني اخالفه ايضا في قوله بأن هدف الوحدة العربية ضمن نطاق هذا الصراع المباشر بين الغزو الحضاري وراء جنود الاحتلال وبين الانكماش الغريزي لانماط الحياة العربية كان اذن نداء غريزيا هو الاخر نحو المحافظة على كل ما جعل الوجود العربي يستمر فيه ولو ضمن شكله الابتدائي .

فايمان الاستاذ مطاع صفدي بأن الماضي يستحيل الـــى حقيقة مطلقة امام الارادات الثورية يقفل الابواب امام التحولات الكبرى التي تنشأ في هذه المنطقة . كذلك تصدر مثل هذه الفكرة عن عدم ايمـــان بالانسان .

ونعود فنوضح هذه النقطة الاولى بشأن مفهوم التاريخ فنقول انـه لا ينبغي بحال من الاحوال فقدان الامل من قدرة الجموع البشرية على ازالة الرواسب المتحكمة في مصيرها . وبعد ان تخلص العرب مـــن الاستعمار والحكومات الطبقية يمكن ان تسيطر الاجهزة الوحدوية في الاعلام والارشاد والثقافة على شؤون الجماهير في البيئات العربيـــة بحيث تعيد تثقيفها على نحو يؤهلها للتطور السريع .

حدث مثل هذا في الولايات المتحدة الامريكية بعد الحرب العالمية الاولى كما حدث مثله في المانيا واليابان بعد الحرب العالميـة الثانية . واعادة تثقيف الجماعات البشرية من شأنه ان يذلل العقبات امـــام المفهومات الجديدة وحياة المدينة الصناعية في العصر الحديث . واهـم ما نحتاج اليه بطبيعة الحال هو تقريب المعايير في الفهم والتذوق بـين الشعوب العربية وتهيئة الاذهان في شتى البقـــاع لاستقبال العصب الاساسي في الوضع الثوري العربي .

وهنا يكمن الامل في التحولات السريعة داخل الاطـر الشعبيـة الجماهيرية . ونستطيع ان نقتلع الجذور الفاسدة التي غرسها الحكام والمستعمرون في السنوات الماضية مـــن صدور الناس . فيفهمـــون ويدركون ويتأملون حقيقة مواقفهم ويعملون من ثم على الاستجابة السريعة لعوامل النهوض بالجماعات العربية .

والايمان بالانسان هو مصدر التطلع الى تصويب الاوضاع بالنسبة الى حياتنا في مناطق الشرق الاوسط . فالانسان كائن مرن ذو قـدرة عجيبة على التغير والتشكل فـــي شتى الصور والقوالب . وحقيقـة الانسان هي التي تحثنا على الاستمساك بقواه المتجددة وهي التي تدفعنا الى الاحساس بأهمية انبثاقاته غير المتوارثة . ويستطيع الفرد الا يتقيد اطلاقا بما يمليه الماضي الغريزي او الماضي المتمثل في مجموعة الاحكـام والعادات . يستطيع الفرد ان يقضي على وهـــم الصيرورة الحتميـة بالتجديد في اساليب استجاباته وبعدم التقيـد بالرسوم والمعالـــم التقليدية . وقدرة الانسان على التشكل لا تقف عند حد ومرونته فـــي الملاءمة بين قواه واحتياجاته لا حصر لها .

اما النقطة الثانية الخاصة بأن انكماش الانماط العربية كان نـداء غريزيا من اجل التصويب نحو الهدف الاسمى من الوحدة فهي ايضا غير صحيحة . وقد استخلصنا نظرتنا هنا من نفس الكلام الذي قلنـاه

بشأن حرية الانسان ازاء الزمن والتاريخ . فالانسان حر ايضا ازاء الغرائز والعادات . وهو لذلك امكانية مستمرة متفتحة على جميع الوان التجربة والخبرات . فالضرورات التاريخية والغريزية لها اهميتها في تصور الانسان للاحداث وفي اطمئنانه الى طبيعة الاحداث . انه يحب ان يصوغ الاشكال العامة للاحداث على النحو الذي يستريح اليه . ولكن لا شك ان جوهره قادر على الانفلات من الاوضاع وقادر على مواجهة المستلزمات باسلوب حديث .

لذلك اهتممنا بالاشارة الى ان حقيقة الصراع للابقاء على هدف الوحدة نصب اعين العرب دائما كان مصدرها على مستوى عقائدي لا على مستوى غرائزي . ونقول على مستوى عقائدي لان الغرائز كانت قادرة على أن تحيد بالجماهير في مناطق الشرق الاوسط الى صنوف الاستفادة والكسب والانتفاع بالغزو الحضاري وراء جنود الاحتلال. فمن الاصوب أن تدفعهم الغرائز الى الالتفات الى اهمية الانتفاع بما يقدمه هذا الغزو من فوائد . ولكن الجماهير ظلت تعاني العنت والفقر والجوع للاستمساك بعروة الاتحادات العربية لاسباب عقائدية حقيقية مرتبطة بكيان الانسان وقيمته وكرامته في هذه البلاد . لذلك قاومت غزو حضارات المستعمرين على امل الحرص على مساندة ابناء العقائد الواحدة بعضهم لبعض في احلك الظروف .

من هذا نرى اننا نؤمن بقدرة الانسان وملكاته في التطور والتبلور كما اننا نعتقد انه حرص على تحقيق هدف الوحدة بدافع من العقيدة والتماسك الروحي .

***

واذا انتقلنا الى الندوة التي ناقش فيها الدكتور عبد القادر القط والدكتور رشاد رشدي والاستاذ صلاح عبد الصبور أزمة الشعر العربي المعاصر نجد ثمة اتفاقا على ان من اسباب عدم الاقبال على الشعر اليوم ميل النقاد الى اهمال الشعر وابتعادهم عن الشرح والتفسير اللازمين لتشجيع القراء على تذوق القصائد واستشعار جمالها وقيمها . النقاد مسئولون عن عدم اقبال الناس على قراءة الشعر . فبدلا من ان يكرسوا جهودهم لعمليات التحليل والتفسير والابانة التي يبرزون بها دلالات الشعر ومزاياه وجماله يوقفون جهودهم على سرد النظريات التي تمس الشعر من بعيد ولا تنفذ الى اغواره .

المشكلة اذن في رأي الدكتور عبد القادر القط تتمثل في انصراف الجمهور عن تذوق الشعر . وهي قضية يوافقه عليها الدكتور رشاد رشدي ولكنه يضيف اليها عنصرا جديدا وهو ان المسئول عن ذلك الى حد كبير هم النقاد والمثقفون والحاملون لمشاعل الثقافة او مشاعل الدعاية للثقافة من الذين يحاولون محاربة الشعر الحديث أي الاصوات التي تنطلق اليوم لمحاربة هذا الشعر . وهو في رأيه شعر نابع من مزاج وعقلية مركبة تركيبا معينا مما يتماشى مع مزاج الجمهور ومزاج العصر الحديث حتى عندنا في مصر . فلا شك عنده من ان هذه المهاجمة تعوق تقدم هذا الشعر وتحول دون انتشاره . وما يزال الكثير من شعرائنا او ممن يمارسون الشعر .. ما زالوا يكتبون بالشعر التقليدي وهو شعر بطبيعة مزاجه يصرف عنه القارىء المعاصر ذا التركيبة المزاجية المعقدة تعقد الحياة التي يحياها . فاذا صمم كثير من الشعراء على المضي في الكتابة وفق هذه العقلية وبهذا الشكل التقليدي الذي يقلد اكثر مما يتبع تقليدا فنيا معينا يقع اللوم ولا شك على الشعراء انفسهم .

ويكتشف الاستاذ صلاح عبد الصبور وجها اخر للمشكلة فيقول ان الشعر تثقله دراسات البلاغيين العرب القدامى . ويضيف الى ذلك ان كتب التعليم قد نجحت في بث البغضاء للغة في نفوس طلبة المدارس ولكل ما يتصل باللغة . فازمة المتلقي في الحقيقة هي ازمة اللغة وقد صادفته في المدرسة . وبالتالي فمشكلة الشعر لن تحل الا اذا حلت مشكلة الكتاب العربي . بعد ذلك يمكن ان نلتقي عند مفهوم واحد للشعر . وفي الوقت نفسه فان النقد يحتاج الى دراسات اخرى من القيمة ـ القيمة المجددة ـ قيمة اللفظ والخيال وغير ذلك مما لا يستقيم الشعر بدونه .

ويأتي في غضون الندوة كلام الدكتور القط عن الناحيةالميتافيزيقية في الشعر . فيقول انه يخيل اليه ان الغموض في الرمز المغلق الغالب عليه والذي يحتذي الشعر الاوربي الذي يمثل حضارة غير حضارتنا او مرحلة حضارية غير المرحلة التي نمر بها ... يخيل اليه ـ هكذا يقول الدكتور القط ـ ان مثل هذا الشعر يحول دون انتشاره ويجعل الناس يقفون منه موقف الجديد او موقف الشك .

وينفي الاستاذ صلاح عبد الصبور ان هذا الشعر تقليد للغرب . ويقول انه يميل الى الاعتقاد بان هذا رد فعل للوضوح الزائد الذي يتسم به الشعر العربي .

ولنا تعليق بسيط على هذه الاراء . فهي وان كانت قد مستجوهر الاشكالات المتصلة بفنون الشعر اغفلت امرين غاية في الاهمية وهما اولا صلة الشعر بالمدنية وخاصة المدنية الصناعية . وثانيا صلة الشعر بالفلسفة .

واعتقد ان حل الاشكالات في الشعر المعاصر لن ينبع الا مندراسة هذين الجانبين الهامين . اولا من المعروف أن النزعة الرومانتيكية قد زالت دواعيها كما انها لن تتجدد على نحو ما جاءت بصورتها الاولى . كذلك ينبغي ان تزول روح البداوة والفطرة في اساليبنا الشعرية المعاصرة . ثم من الضروري بعد ذلك ان ياتي الشعر تعبيرا عن مدنيات حديثة محاذية لكل المدنيات السالفة . وسان سيمون هو الذي وضع فكرة الضمير المتمدن في عصر الصناعة . وجاء تعبيره ذاك مناقضا لفكرة الروح الجميلة عند اشليجل الناقد الالماني وفكرة الخيال الجامح عند نوفاليس .

وقد وضع الدكتور القط والدكتور رشاد رشدي والاستاذ صلاح عبد الصبور ايديهم على الطبيعة المركبة والمزاج المعقد للقراء في حياتنا العلمية الحديثة ولكنهم لم يتجاوزوا ذلك الى الكشف عن مقومات المدنية في العصر الحديث . وهذه المقومات هي التي يلزم انعكاسها على صفحة النظم الشعري بحيث تستهوي القارىء وتمده بشحنات شعورية مناسبة . والشعر الذي يتجاوب مع هذه الفترة هو ذلك الذي يستمد عناصره التجديدية من المعاني المنتقاة ومن الحضارة المادية . وليس معنى هذا ان الشعر ملزم بمجاراة عصر الالة بحيث يصف المخترعات الحديثة او العلوم السائدة . ان معنى ذلك هو انه من الضروري أن يصل الشاعر في ترقية مشاعره وعواطفه الى حد ان تصبح في مستوى مشاعر وعواطف الانسان الذي اخضعته المدنية والعلوم لمقاييسها . على الشاعر ان يمر بتجاربه الشعورية الى كل مستويات التعقيد الصناعي وكل مستويات الحياة الاجتماعية في ظروف المدنية السائدة حتى يسيطر على وجدان قارئه .

ونقول مرة اخرى انه ليس من الضروري ان يرد في شعر الشاعر ما يشير الى الصناعة والالات والعلوم ولكن من الضروري أن يكون قد اكتسب خبرات في هذه المجالات بحيث تخلص مشاعره من الطفولة والبكارة والانفعال الفج . وليس ما يأسر القارىء للشعر هو ورود كلمات ضخمة وتعبيرات مباشرة للطابع العصري في الحياة والفهم والتذوق وانما يأسره ولا شك وجود ما ينم عن تجارب حقيقية في حقل التفكير المعاصر وما يشير الى انه قد تخطى وتجاوز مرحلة الانفعال السطحي البريء .

وهذا هو ما ينقلنا الى الكلام عن النقطة الثانية وهي صلة الشعر بالفلسفة . فالشعر والفلسفة توأمان يولدان معا ويموتان معا ولكنهما يعيشان عيشة منفصلة . تنبع الفلسفة من حيث ينبع الشعر ويلتقيان عند مصب واحد ولكنهما يشقان طريقين مختلفين متباعدين . فالفلسفة تستخدم المنطق والمقولات والاحكام بينما يستخدم الشعر التصاوير والفن والتساؤل . ومهمة الشعر هي مهمة الفلسفة ولكنهما يتبعان منهجين مختلفين واسلوبين متباينين . ولكن الشاعر الذي لا يعطي نهايات الفلسفة في اشواطه وتحليقاته يظل بغير قدرة على النفاذ الى قلب القارىء ووجدانه . وهنا يلزم ان نذكر كذلك انه ليسضروريا استخدام الفاظ الفلاسفة او الفازهم في الشعر كيما يصير شعرا

ناجحا . كل ما في الامر ان المطلوب من الشاعر ان يؤدي بالتصاوير ما يؤديه الفيلسوف بالمنطق واصول التفكير .

والعمق هنا ليس معناه التعمية وانما معناه ان تجربة الشاعر التي يتقدم بها الى قرائه تستحق العناية والاهتمام . ولا يقبل العصر الحديث تجربة السذج من الشعراء . لا شك ان بعض السذاجة يفوق عمق الفكر الفلسفي ولكن ذلك لا يظهر الا من عمق الاحساس الذي يعرضه الشاعر في ابياته . فاحساس الشاعر يكشف عن معدنه ويبين الاصيل من الزائف كما يبين الفروق بين الدلالات السطحية والدلالات العميقة ذات الفن الجميل النابض بالحياة والقوة .

***

واستمر في التعرض لنفس هذا الموضوع حين اشير الى مقال الدكتور احمد كمال زكي عن النموذج الجديد . فليس الامر كما يبدو مما سبق ان قلناه امر تغيير القوالب الادائية للشعر بقدر ما هو امر اهتمام بالثقافة الحقيقية للشاعر . فنحن وان ربطنا صلاح - ولعله اكثر المحدثين حفظا للاشعار القديمة - باغلب شعراء العربية ابتداء من المهلهل الجاهلي نحس في الوقت نفسه - كما يقول الدكتور احمد كمال زكي - بتطلعه المخلص الى تراث الغربيين . اذن فالدكتور احمد كمال زكي يتفق معنا في ان الاشكال الحقيقي بالنسبة الى الشعر هو ضرورة تغيير العقلية والثقافة اللتين يصدر عنهما الشاعر . ومعنى ذلك كما يقول هو نفسه ان يكون الشاعر مثقفا وان يتنقل بثقافته الى العصر الذي يعيش فيه . ويورد الدكتور زكي نصا من مقال نشره الاستاذ صلاح عبد الصبور في مجلة المجلة بعنوان « مختارات معاصرة في فهم الشعر ونقده » مؤداه ان الميزة التي يجنيها الشاعر من خبرته بادب لغته وادب اوروبا هي ان تكون حس تاريخي لديه . والحس التاريخي هو ان يعيش الانسان في الماضي ويشاهده .

ويأتي تقدير الدكتور زكي لشعر الاستاذ صلاح عبد الصبور من قدرته على ان يميز بين الفروق الصغيرة ومعاني الكلمات بحيث امكنه ان يتمثل تجارب الاخرين - ايا ما كانت جنسيتهم - وان يبلور بعد ذلك ادراكه الحدسي للجوهر الشكلي والعاطفي لموضوعاته . فالتأثير الذي يحدثه الاستاذ عبد الصبور باشعاره ونماذجه تأثير عفوي صادق قريب الى حد البساطة وان يكن ذكيا الى ابعد حد .

وهذه من اهم الصفات التي ينبغي توافرها في الشاعر كما سبق ان قلنا في احدى الفقرات المتقدمة . ويعود الدكتور زكي فيحدد ملامح الشاعرية في اعمال الاستاذ صلاح عبد الصبور فيقول انه عمد بعد عام ١٩٦١ الى المزاوجة بين الغنائية والتفكير مما صار يدل على انه يتجه الى الغناء بفكره . ولقد تنبه صلاح عبد الصبور الى ان السهولة - بل الابتذال احيانا - لا تفي بمتطلبات العمق الفكري ولا العنف الدرامي اللذين اصبح يقصدهما . ويكفي في رأي الدكتور زكي استعراض ما حفل به شعر الشاعر من اشارات الى الاساطير ضمن الرموز الشعبية والجنس والموت والرحلة حتى نكتشف المعاني الكبيرة التي تدل على ان صلاح عبد الصبور شاعر ذو موقف .

***

وفي مقال الاستاذ جلال مظهر بعنوان « مستشرقون تآمروا على الشرق » محاولة جادة للكشف عن مؤامرة الاستعمار التي كانت تهدف اول شيء الى اخفاء مآثر العرب وافضالهم على الحضارة وعلى اوربا والى تلطيخ تاريخهم بل واسمهم ايضا . لقد قاد هذه الحركة جماعة من المستشرقين عمد بعضهم الى الدس بين السطور ورجع بعضهم الى النظريات الشعوبية القديمة يحييها ويزكيها . وعمد بعض اخر الى نظريات غريبة تؤدي الى انكار كثير من المستكشفات العربية الصميمة بل الى محاولة انكار فضل العرب في ارساء قواعد علوم برمتها .

لقد قام مستشرقون يهدمون العرب ويكيلون لهم ويعملون جاهدين على محوهم ومحو اثارهم . ولكن اوربا في الوقت نفسه لم تعدم ان تخرج كتابا موضوعيين نبلاء الغرض لا تسمح لهم ضمائرهم ان ينساقوا في خضم هذا البحر الزاخر بالتضليل وتشويه الحقائق .

ويتنبه الاستاذ جلال مظهر في مقاله الى ان المخطىء في هذا الشأن هو العرب انفسهم الذين ينتظرون خدمات الغربيين لعلومهم ومعارفهم ولا يقدمون هم انفسهم الى العناية بحضاراتهم وتراثهم . فالعربي نفسه هو المخطىء اذ لا يحمل مسئولية فكره وعلومه وثقافته بنفسه ويتركها في ايدي الغربيين . هذا مع ان العبء الحقيقي ملقى على كتفيه هو وعليه ان يقوم بالدراسات التي تكشف عن المواقف الصحيحة المتصلة بتاريخنا . لذلك يقول الاستاذ جلال مظهر : وانها لحقيقة ذات بال ان احدا من العرب حتى الان لم يقم بدراسات تاريخية مفصلة مقارنة في هذا الموضوع كالدراسات التي قام بها نفر من مستشرقي اوروبا وعلى الاخص في اواخر القرن الثامن عشر وفي القرن التاسع عشر عندما انبروا يدافعون عن حضارة العرب وعن تاريخ العرب في وجه زملائهم الذين يعمدون الى تشويهه وتوسيخه . ولولا تلك الدراسات المستفيضة العميقة البالغة الاهمية لما استطعنا نحن الان ان نعرف شيئا كثيرا عن حقيقة تاريخ حضارتنا وامجاد ابائنا .

والمقال بعد هذا مليء بالامثلة التي تدل على مدى تغلل الدعايات الصهيونية داخل اروقة المعاهد والجامعات الاوربية . وهذا كله انذار لنا بضرورة الاقبال بانفسنا على دراسة تراثنا وعلى تقدير حضاراتنا السالفة ومقارنتها بكل المواقف الفكرية في البلاد الاخرى حتى تتبين حقائقها على النحو الذي لا يدع الفرصة لمن يقصد الدس والغمز والتشويه .

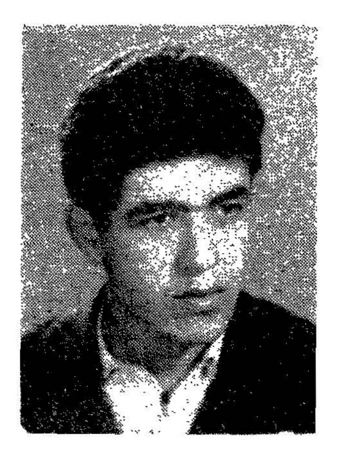
هذه مسئوليتنا وعلينا وحدنا حملها .

القاهرة

عبد الفتاح الديدي

المأساة في «في شمسي دوّار»

بقلم رشاد أبو شاور



المأساة ... مأساة جيلنا المعاصر الذي ما فتىء يندب حظه العاثر متخبطا في كل التيارات المتضاربة باحثا عن المنطلق نقطة البدء لما يؤمل ان يحقق من صبوات ورغبات مضطرمة من اهداف ومثل عليا تؤمن الخير والحب للناس جميعا من ابناء ارضنا المعطاء ، مأساة هذا الجيل انه جاء الحياة ليفتح عيونه على وطن مسلوب وخيرات منهوبة وقدرات ضائعة مبعثرة تسفحها كل قوى التأخر والانجرار الى الخلف . هذا الجيل قد تمرد واخذ يرفع صوته عاليا يرفض الزيف ، يريد ان يصل الى الحقيقة بصدق وبدروب شريفة دون مهادنة ، الجيل المتمرد الخلاق هذا قد انجب الشاعر : فواز عيد .

المأساة والهزيمة الكبرى التي تلوث وجدان هؤلاء الفرسان الذين نما في صدورهم الالم فكان تمردا شق دربه امامهم ساطعا في حلكة ظلمة العصور وبقاياها العفنة ، هذا التمرد على الزيف ، على الذل المتوارث الذي عشش في زوايا العيون والذي طالما دوخ الرؤوس واستفحل خطره ، ينفض الان عن كواهل الجيل بكل عظمة واندفاع العربي الثائر الصادق . ابناء هذا الجيل فرسان كبروا على حمحمة الخيل وصهيل الجياد في معركة النداء للتخلص من العار ... هؤلاء الفرسان هم الذيـن :

« قـالوا
نعود .... ولا نعود
كانوا صغارا
يكبرون على صهيل جيادهم في الليل
كانوا يكبرون »

لقد ندب الشاعر فواز هذا الجيل للواقع بكل ما فيه من تزمت ، والقارىء للديوان لا بد وان يلاحظ نمو خيط المأساة في وجدان الشاعر منذ فاتحة الديوان « الابواب » حتى القصيدة الاخيرة « لا نعش للغرباء » خيط المأساة هذا هو الذي يجعل من الديوان بكل قصائده قصيدة واحدة . انه في محاولته الاولى للهرب انما يزداد اقترابا والتصاقا بالواقع بالرغم من ضباب الاقبية وبالرغم من محاولة الانطواء .

« الابواب » مفتاح الديوان وهي بحق من اجود واروع قصائد الشعر الحديث من حيث قوة الشاعر الايحائية والبنائية والقدرة على اعطاء وخلق الصورة المتينة « والحديثة » بكل ما فيها من جهد خلاق ، الشاعر في « الابواب » التي هي ثلاثة اناشيد ذات بناء سيمفوني لا يمكن للقارىء ان يرتبط معها وان يفهمها الا بان يقرأ كل نشيد بنفس واحد متتابع ومن ثم يربط في ذهنه الاناشيد الثلاثة ، فالشاعر يهرب بنفسه بعيدا عن عالم الواقع ويحاول ان يطرد عن بابه ذلك العاشق الذي يمثل في ذهنه تجربة الحب معجونة بالفشل والاحزان ...

... وهنا بجانب موقدي كم قال ...
حدثني .. عن المدن الحزينه ...
عن غريق مات في الجزر البعيدة ..
عن حبيبته ..
روى في الليل
حدق في الرماد
وفـام ...
اسلم نفسه للريح ...
سال مع الظلام ...
مضـى ...
ترى لو عاد ..
لا تقرع ..
دروب التل تلهث عند ابوابي
وابوابي مغلقة من العصر القديمة لم تزل .

وفي النشيد الثاني يرجع الينا صدى النشيد الاول فيهمس باسلوب خفي ان الشاعر هو ذلك العاشق لكنه حنط ذكرياته تمثالا ، ومع ذلك فلا بأس من ان يضع اطفاله اماني غده على يدي التمثال ... هؤلاء الاطفال انما هم براءة الاحلام التي ولدت في قلب الشاعر والتي هي عبارة عن الحنين للبحث عما يسند اليه رأسه المتعب . واروع ما في النشيد الثاني تلك « الحكاية » قصة البحار التي كانت السنة اهل المدينة تلهج بذكرها ، ذلك الملاح الحزين كان يغيب اياما ليعود فيظهر من جديد حاملا معه الى المدينة الحناء والطيب وبعض الحزن الغامض ، غاب هذا الملاح ولكن لا ليعود بل ليختفي عن المدينة دون امل بعودة اخرى بعد ان غاب مركبه وتوارى في البحر .

« ويقال : ان ستارة زرقاء عابثها النسيم
هنـاك
فانحسرت
وظل القارب المسحور ينثر خلفها الحناء
ينثـر
ثم غاب ولم يعد . »

لقد توارى ، غيبه البحر كما غيب كثيرا من الرجال قبله ... غاب الملاح ... رحل الشاعر ، ابتنى لنفسه معبدا بعيدا عن الناس ، هرب من الفشل الى الحزن والبخور والمواقد والريح والعراء . ويتجلى الهرب في النشيد الثالث الذي يسميه الشاعر « المطر » او بعبارة اخرى ما يغسل الحزن ، في هذا النشيد خاتمة القصة وبداية المأساة . فمنذ البداية كان الشاعر « بطلا » يعترف بفشله وينعزل ليبحث عن تجربة جديدة ، انه يريد الانعزال ليراقب ثم لينحدر الى مجرى الحياة ويتعذب مرة اخرى ، ان وحدته وانعزاله هنا الى درجة التصوف ليست انعزالا نهائيا .

« من يقرع القصدير !؟
ابوابي مغلقة من العصر القديمة
لم تزل
من يقرع القصدير !؟
جدراني مقبرة
وكهاني على وهج المواقد نائمون . »

الرعب في قلب الرجل والمرأة ابتنى لنفسه عشا توارثه الابناء عن الاباء وابناء هذا الجيل بلا حب بلا حنان ، الحب اتصال للحظات في زوايا هروبية وتحت وطأة الخوف من العقاب ، الخوف يدفع هؤلاء

الشباب للهرب ، للتسكع في الحانات ، في المقاهي ، في الاقبية ،يبحث الشاعر عن الحب ، يفتش الجيل عن الاستقرار ، ولكنهما مفقودان وهذا هو قدر الجيل .

اين هي شهرزاد ، ومن تكون ؟ ما لون عينيها ؟ انها ليست الا في يوتوبيا حلما يخفق مثل ضوء صغير ويبتعد وينأى وان وجدت فهي مأساة متجددة . لذا يلوذ الشاعر بنفسه في زاوية من زوايا الكهف حيث صراخ البوق ، يلتفت حوله فلا يرى الا رؤوسا دائخة وعيونا جامدة :

« ويرش الكهف في الاهداب الوانا سخينة
توثق الاقدام بالبوق فلا تدري

متى كانت رزينة »

ليال صقيعية لليالي ابناء هذا الجيل ، الدخان ضباب الحزن الشفاف ، الليلة تتبع الاخرى عمرنا يفنى لا جديد غير مآس صغيرة مبعثرة تتفتح مع اشراقة كل صبح ، لا بأس من ان تضيع هذه الليلة ايضا ، لقد جئنا هنا للنسيان لاننا بلا شهرزاد بلا قرار ، شهرزاد احدى مشاكلنا وهي مشكلة كبيرة لانها الطريق للاستقصاء والبحث لانها العون في الطريق الوعر . نمد ايدينا فنقبض على وهم يراوغ على سراب مخادع ، على لا شيء ، العيون تحملق مشدوهة ، الانغام تحلم ، ولكن لقد فقدنا القدرة على الحلم .. لقد انتهينا .. انتهينا :
« تعبت أقدامنا

في الكهف ريح باردة
وارتمت منهارة في الليل عين جامده . »

ها هي ذي شهرزاد يحاول الشاعر الاقتراب منها ليهمس لها قائلا:
« شهرزاد
انت يا شمعية ياصمت غابه
من ترى اضناك !؟
اعطاك الكآبه
كلما قلت « غدا »
اجبن
والجبن صبابه . »

شهرزاد ايضا مثله صفراء كئيبة كزهرة بلا شذى ، لا تستطيع ان تهبه شيئا ، انها لا تملك ما تعطي فمأساتهما واحدة .

هل ينسى الشاعر الخنجر المنتظر بصلف خنجر مجتمع شرقي مغلق لا يأخذ ولا يعطي ، لكن ها نحن هنا نتعرف على المشكلة اكثر وعلى جذورها البعيدة ، ففي القصيدة الثالثة « القصب والمرايا »

« تروي العجائز انها احبته وهربت معه حيث ذبحت كالشاة وكان صوتها يتأوه تحت رذاذ القمر »

لماذا اختار الشاعر هذه الاسطورة الريفية ؟ ولماذا وضع روح الهاربة مع عاشقها والتي قتلت لانها تحب ؟ صورة امام عيوننا تلك التي تكاد دماؤها تنبجس من احرف القصيدة على الورق ، هذا هوذا العاشق لم يقتل لانه رجل لكنه هرب وما عاد يغني ، لقد سرق منه اللحن ، توارى ولم يرجع ، خلف وراءه « مذبوحة » عصرت دماؤها في احمرار شقائق النعمان ، مضى مع الليل دون ان يراه احد بعد ان انقطع اخر خيط يشده الى الحياة وما زال النهر يبكي والعجائز يروين بكل بساطة وكأنها حلم مر .

« قيل في الضفة ما عاد يغني
قيل قد يرجع يوما
قيل مجنون مضى في الليل
مات
قيل ما قيل
وقد القصب المتعب يلوي
وتجوس الريح افواس السكينه
وتروي من جرار الليل قامات القصب
ويدق النهر في الشطآن اجراسا حزينة . »

« الطريق الى المقبرة » هي القصيدة الضحية فبالرغم مما فيها من جمال الا انها قد قتلت بتأثر الشاعر بالموجة الجديدة . لقد اجاد الشاعر في اعطاء صورة للمدينة حيث لا صلة تربط ولا بساطة تجمع بل سيارات وفولاذ يندفع بهمجية ولكن كما قلت ان موجة « اليوت » اثرت في الكثيرين ومن بينهم شاعرنا هذا في قصيدته هذه .

اننا لم نصل بعد الى التعقيدات الحضارية كاوربا بل اننا ما زلنا في بداية الطريق ، فلماذا هذا الرعب وهذا التصوير لشيء غير موجود ؟ اين هي المعامل في بلادنا ؟ اننا ما زلنا في بداية الشوط ولم نقطع شيئا بعد ، ودمشق هي مثل الريف بالرغم من هذا « البهرج » بالرغم من السيارات والترام والسرعة في السير وعدم الالتفات .
« يتلمظ الفولاذ طعم دمائنا شبقا
وتزفر من قتار جسومنا

سحب الدخان

ان موجة التأثر او « الاستيراد » التي لا اصالة فيها قد طفت على معظم نتاجنا الحديث ولم يسلم منها حتى شاعرنا بالرغم من كونها طفيفة عنده ، ومع ذلك ارجو ان تمحو اصالة العربي في شاعرنا هذا التأثر ، فحياتنا ما زالت بكرا . المدينة ، الضياع ، التسكع ، اقدام المتعبين الهاربين تدق وجه الشارع ودنما هدف ولكن اخيرا وبعد هذا التطواف الممل تحدو الرغبة شاعرنا فيحاول العودة الى شهرزاد علها تشعل جذوة حياته الخامدة ولكن شهرزاد ما زالت هي هي محاصرة خطفت الجدران لونها بالرغم من حروف الشاعر الملتهبة وبالرغم من طهر مداده المصبوغ بدمه ، لنعد ولنرتم في الزمن في صراخ البوق في ليل الاقبية لان الهزيمة ما زالت باقية موطدة الاركان ، فوداعا ايها الاصدقاء ، ايها المهزومون :
« عم مساء يا صديقي
وافترقنا في الطريق
وتلفتنا
اذا : لا بأس ... امضي
خلفي السور
وقدامي تعاريج المضيق . »
ويصل الشاعر الى :
« اصدقائي
ذبل البوق ومات اللحن
مات
وتمطت في الزوايا من لياليها الرفات . »

هذه الصورة الصادقة عن ابناء الجيل هي ما يحلو لبعضهم ان يتهم الجيل بها « انهم لا شيء ، انهم السلبيون الهروبيون » ولكن ها هوذا الشاعر يرد عليهم بكل عظمة الجيل .
« يا صديقي
من هنا نبدأ في الغربة من حيث انتهينا . »
الى « من مراسي اغنيات لم يذعها الوتر . »

ابناء هذا الجيل كالاطفال في الحاحهم يريدون جوابا عن كل شيء، اطفال في طيبتهم وصفاء قلوبهم وفرسان في بطولتهم في قوة اختراق حواجز الواقع الى هناك ، الى الامل الكبير الموعود ، انهم اختاروا مصيرهم، حملوا العبء على اكتافهم ليحرروا انساننا العربي من كل القيود ومن

ـ التتمة على الصفحة ٧٩ ـ



طال انتظار الارض يا نيسان
للدفء ، للورد
لتمتمات العطر والالحان
للحب ، للالوان
لضحكة ضاعت مع الليل
في أبحر النار
وهامة منذ انبلاج النور
تهفو الى الغار

***

أين الفراشات ، ومن عاقها
عن رفة الاحلام والطهر
عن مبسم الزهر
عن الربيع الخصب في أرضنا
هذا الربيع الراعش السم
عن موئد الوهم

***

نيسان .. ما للشمس مسودة
هل ترهب الانسان
حنت شفاه الارض للاضواء
وأنهارت الظلماء
نيازكا عمياء ..
شقت جبين الارض بالارزاء
وانتحرت من يأسها الانداء
على شفا « فيزوف »
« فيزوف » يبكي داءه القديم
وينفث الحمم
هل ثم بعد اليوم من ألم
يستصرخ العدم
« فيزوف » قلب حاقد أكول
يهدر كالشيطان
فيزوف لم يخطر به نيسان

***

« يوتوبيا » جسر من النجيع
نعبره والنار في العيون
سقراط والكأس ..
ما زال في متاهة الطريق
يسائل النجوم
عن وجه « يوتوبي » وعن حلم جميل
حلم ضبابي قديم
كنـا نسجناه
كنـا اقتطعناه
من همسات الطير في الصباح
من ضحكة كفابة التفاح
رفت على كون من الاطفال
لا يعرف الضغينه
غير الدمى والشهقة الحنونه

***

نيسان والمسيح
اسطورتا جمال
المتعبون استوطنوا العراء
كالقمح في الحقول
والمنجل اللعين
يسحق رأس السنبله
فتهرع الحبوب
تحت رحى الاقدام

***

غصت حلوق الكرم بالنبيذ
واختنقت بالشوك ، بالرماد
وذابت الاشواق كالرصاص
في مقلتي ، في الموعد المعاد
هلا صدقت اليوم يا نيسان
هلا هدمت السجن والسجان ..
هلا أرقت العطر كالسحاب
في التربة المخصاب
أم أن قيدا غاضبا رهيب
يضم هذا الالق الحبيب
اقصاك يـا نيسان ..

***

هل من غد معطر الجبين
معصب العيون
يخطيء في مسره
يضل في عبوره
ويمـلأ الفضاء
بالحب ، بالعطاء
في يده نيسان ..
لينهض الانسان
من كبوة ، من قبضة العدم
من بؤرة الالم .

دمشق

مصطفى البدوي

محاولة لفهم رواية « الطريق »

الصمت .. والجائعون الى الحرية

بقلم صبري حافظ

(١) مقدمة ..

تؤكد (الطريق) .. رواية نجيب محفوظ الاخيرة ، ان كاتبها ما زال اكثر كتاب مصر التصاقا بالواقع اليومي الذي يصدر عنه ، واعمقهم فهما له ، واخلصهم موافقة لخطاه . فعبر مراحل تطوره الروائي المختلفة ، أثرى نجيب محفوظ هذه الحقيقة ودعمها بالرواية تارة وبالاقصوصة تارة اخرى . واثبت أن للفن دورا فعالا في تزويد احساس المتلقي بكل ما في الواقع من اخطاء ، وفي تعميق وعيه بشتى التناقضات التي يرتعش بها وجدان هذا الواقع . اذ اهتم نجيب دائما باكثر قضايا الواقع الحاحا للمعالجة ، ومركزها في المكان المحوري من كل اعماله الفنية . ومن هنا كان من الصعب أن نصل الى فهم حقيقي لاعمال هذا الكاتب الكبير دون ربطه بالواقع الموضوعي الذي ترتوي منه كتاباته ، تنهل من اكثر اباره عمقا . ودون فهم هذا الواقع فهما عميقا وشاملا ، يلقي دفقات من الضوء على هذه الاعمال ، ويساعد في الوقوف على وجهها الحقيقي . ولهذا السبب ذاته ، ولشدة التصاق الكاتب بالمناخ الحضاري الذي يصدر عنه ، وقع اغلب المفسرين لاعماله من غير المصريين بصفة خاصة ، في وهاد الفصل بين العمل والارض الحضارية التي ارتوى منها ، ومن ثم لاحت لهم هذه الاعمال العظيمة ، شديدة الاغراق في العبث والميتافيزيقا . ومن اسف ان كثيرا من الكتاب المصريين وقعوا في هذا الخطأ . وبدت لهم أعمال هذا الكاتب العظيم وكأنها اشياء مجردة ومنبتة الصلة بارض الواقع ، واخذوا يدسون بين تضاعيفها تفسيرات لا يمكن ان نوحي بها النظرة الموضوعية السليمة اليها .

وقد سبق لنجيب محفوظ أن شجب كافة هذه التفسيرات المهومة في صحراوات التجريد ، حينما قال في معرض الحديث عن اتجاهه الروائي الجديد (١) ان « الاتجاه الحديث في الرواية الاوروبية ، يجعل للفلسفة الميتافيزيقية مكانا واسعا فيها » وان « هذه الظاهرة دليل على ازمة الحضارة الاوروبية ، فعندما يفلس الانسان ، وعندما تفلس الحضارة ، تتذكر الله » .. اما واقعنا المصري فان له فيه نظرة جد مختلفة ، ولذلك يقول « لا اعتقد ان تجاربي الجديدة في الرواية لها صلة بالازمة الاوروبية ، فهذه ازمة خاصة جدا . وما زال مجال الرواية متسعا امام الروائيين في كثير من دول العالم التي تملك فلسفة حياة ، وعقيدة انسانية » .. هكذا وبوضوح شديد يشجب نجيب محفوظ اي محاولة لاسدال اردية ميتافيزيقية او عبثية على انتاجه الروائي في المرحلة الاخيرة(٢) مؤكدا ان جدة الشكل في روايات هذه المرحلة وليدة جدة الواقع الذي يعالجه وجدة المضمون الذي تحتويه ،

(١) نجيب محفوظ ، اتجاهي الجديد ومستقبل الرواية ، مجلة الكاتب، فبراير ١٩٦٤ .

(٢) (اولاد حارتنا) و (اللص والكلاب) و (السمان والخريف) و (الطريق) .

فحين تتحول الحياة الى مشكلة لا يصبح الانسان شخصا معينا ، بل مجرد انسان ، ليس هو شخصا بالذات يتميز عن سائر الناس بتفاصيله الخاصة وذاتيته ، ولهذا تختفي التفاصيل ويختفي السرد ، وتتصدر المناقشة كل العوامل الاخرى » .. اذ ان هم الكاتب الرئيسي هنا هو ابراز المشكلة التي تحتل المكان الرئيسي من لوحة التناقضات المجتمعية. ولهذا فان المعالجة الفنية لا تقدم في هذه الحالة صورة واقعية للواقع، او معاقرة فنية لاحدى شرائحه او قضاياه ، ولكنها تقدم من خلال الرواية، محاولة لتلخيص الواقع ككل ، لقسره باسلوب فني على ان يقول هنا موطن الداء ، على ان يمنح نفسه بطريقة اكثر وضوحا .. على ان يقول كل هذا من خلال احداث شديدة البساطة وممكنة الحدوث .. خاصة وأن « الجديد دائما ليس هو الموضوع الذي لم يطرق من قبل ، بل هو الفنان . والفنان انسان وعصر وحضارة . وكل جيل يعطى وجهة نظره في موضوعات ثابتة في جميع الازمان » ويحاول ان يقدم من خلال هذه الموضوعات رؤاه المختلفة للواقع ، وكلما تجدد هذا الواقع وتغير ، تجددت المعالجة الفنية له وتغيرت هي الاخرى ، لذلك يقول نجيب « حين بدأت الافكار والاحساس بها يشغلني ، لم تعد البيئة هنا ولا الاشخاص ولا الاحداث مطلوبة لذاتها ، الشخصية صارت اقرب الى الرمز او النموذج، والبيئة لم تعد تعرض بتفاصيلها ، بل صارت اشبه بالديكور الحديث . والاحداث يعتمد في اختيارها على بلورة الافكار الرئيسية ... والخطورة هنا ان تفرض الفكرة نفسها على الواقع فلا تتلاءم معه . او تضطر لان تخلق له واقعا خارجيا (٣) ولكن حين تنبع الفكرة من الواقع ونتيجة لمعايشة خصبة له ، لا يوجد التناقض بينها وبين الواقع حين تحاول التجسد في شكل من اشكاله » و « في محاولاتي الاخيرة تنبع افكاري من الواقع ، لانه هو الذي يوحي بها ، وبالتالي فانها تعود اليه دون ان يكون هناك فرض او تناقض » .

يؤكد نجيب محفوظ في هذه الكلمات حقيقتين .. أولاهما انه شديد الالتصاق بالواقع المصري المعاصر ، وأن معالجته لهذا الواقع في ظل ظروفه التاريخية ، هي التي استلزمت هذا الاطار من الواقعية الرمزية التي لا تقدم فيها الاحداث الواقعية لذتها ، بل لما وراءها من رموز يحاول الكاتب بشتى الصور أن يشي لنا بها . وثانيتهما ... انه يعالج في روايات هذه المرحلة افكارا منبثقة عن معايشة حقيقية خصبة لجزئيات الواقع . وعن تفهم واع لاهم قضاياه ومشاكله ... واذا اضفنا الى هذا كله اعتراف نجيب الصريح بأن « هناك قضية كانت تلح علي دائما ، وهي قضية الالتزام .. ومع انه من الصعب جدا تصور وجود كاتب غير ملتزم ، او حتى وجود مواطن غير ملتزم . الا ان الالتزام بمعناه الاصطلاحي هو الالتزام بموقف تقدمي من الحياة » . فاننا نستطيع ان نخرج من روايات هذه المرحلة برؤية الكاتب لجزئيات واقعنا المعاصر ، ولوجهة نظره في كافة قضاياه ، وان نعثر على الوجه الحقيقي لرمايات

(٣) كما فعل كافكا في اغلب رواياته واقاصيصه .

هذه المرحلة ، ونستخلصه من تحت ركام التفسيرات العبثية والميتافيزيقية

وبصفة عامة فاننا نقول ان (الطريق) شديدة الالتصاق بواقعنا المصري المعاصر من جهة ، وبروايات المرحلة الجديدة عند نجيب محفوظ من جهة اخرى .. فبينها وبين هذه الروايات الثلاث اكثر من وشيجة وان كانت اكثر التصاقا بسابقتها (السمان والخريف) .. اذ تعتبر صدورا ثنيا واعيا وعميقا عن الفترة التالية تاريخيا للفترة التي صدرت تعبيرا عنها (السمان والخريف) . ولاندراج الرواية تحت هذه المرحلة الروائية ، فاننا نستطيع ان نرصد عبرها كافة سمات هذه المرحلة (٤) من استعمال الضمائر الثلاثة في عملية القص الروائي ، الى التركيز على المنولوج الداخلي بأعتباره وسيله فعالة في كشف اعماق الشخصية والحدث على السواء ، الى تقلص الاسلوب السردي في عملية القص الروائي ، الى جدة الرؤية الاستاطيقية لابعاد الشخصية ، الى التداخل الموحي في الازمنة والنابع من بناء الرواية الفني الشديد النضوج .. الى شاعرية اللغة اسفرت عن وجهها الكامل في (الطريق) بالدرجة التي تدفعنا الى تسمية هذه الرواية .. بقصيدة شعر عظيمة .. اذ وصل بناؤها اللغوي الى الدرجة التي ينطبق عليها قول فاليري : ليس ممكننا ان نغير كلمة واحدة من كلماتها دون ان يختل بناؤها الفني ككل.. الى اندراج الرواية تحت ما اسميناه برواية البطل الواحد .

وهنا يجب ان نتريث قليلا لنناقش هذه السمة ، رواية البطل الواحد ، خاصة وان هذه السمة قد ارتبطت تاريخيا بمحاولة الفن التدعيمية لتأييد صعود الطبقة البرجوازية ، والتركيز على القيم الفردية ، وعلى عظمة الانسان الواحد ، من خلال تركيز العمل الروائي على شخصية العصامي .. النموذج المصفى لهذه الطبقة في مرحلة صعودها ، والذي يقف بكل فضائله في مقابل السيد الاقطاعي المتخم شرا ورذيلة .. وابرز مثال على ذلك رائعة دانيال ديفو (روبنسن كروزو). فهل جاء تركيز نجيب محفوظ على شخصية روائية واحدة ضمن هذا الخط ؟ ومن البداية نستطيع ان نقول لا .. ويؤيد هذا ان المرحلة الراهنة في واقعنا المجتمعي ليست في حاجة الى تأكيد صعود البرجوازية بأي حال ، فقد تضخمت هذه الطبقة بصورة واضحة ، وملكت زمام السيطرة تماما . وبرزت الحاجة واضحة الى فضح تيارات التفسخ والتهرؤ واللاانسانية السارية في اعماقها ، والى التنبيه الى جدران الصمت التي تسيج كل شيء ، والى قضبان السجن المرئية واللامرئية التي تحول دون الحقيقة والسفور . ومن ثم يجيء التركيز على البطل الواحد في هذه الحالة ضمن اطار محاولة الكاتب لتلخيص الواقع ، لاختيار اكثر النماذج دلالة عليه ، واخلصها تعبيرا عن كل ما يمور داخله من قضايا ، وافصاحا عن كافة ما فيه من ضغوط ، وعرضها داخل هذا الاطار الجديد من الواقعية الرمزية التي يؤكد نجيب خلالها ان سعيد مهران (٥) وعيسى الدباغ (٦) وصابر سيد سيد الرحيمي .. ليسوا سوى صور منا .. مما يجول بخواطرنا .. وان بحثهم عنحقيقتهم، وصراعهم ضد القيم الشائخة ، جزء من بحثنا وصراعنا .. بل أن بعضا منهم يعبرون عما لا نستطيع نحن ، ولاسباب متشابكة ، الافضاء به .. ولما كان حديثنا هنا قاصرا على رواية (الطريق) وحدها (٧) فاننا نقول ان نجيب محفوظ يجسد من خلال صابر (بطل هذه الرواية) حالة كل شبان جيلنا ، الباحثين عن مجهول لا يدرون بالضبط كنهة ، الجائعين الى الحرية والكرامة والسلام ، الثائرين على صمت الواقع وركوده ، المزقين بين وعيهم بحقيقة هذا الواقع وعجزهم عن فعل شيء ازاءها ، الراغبين في تحرير وجه هذا الواقع من كل الشروط اللاانسانية التي تحكمه واستخلاصه من تحت رغام الصمت واللاحرية .. وبذلك يكون هذا الاطار الفني الذي اختاره نجيب للافضاء من خلاله عما يدور في واقعنا ، اكثر الاطر الفنية تقدمية وثورية واعمقها تلخيصا لكل ما في الواقع من قضايا .. لانه الاطار الوحيد الذي تلوح خلاله رؤية الكاتب الواضحة لكافة ما في الواقع من قضايا ، وايضا وجهة نظره فيها . ولنتجاوز الان عتبات المقدمات لنتناول الرواية ذاتها .. ولنرى كيف انها بحق تعالج افكارا نابعة عن المعايشة الخصبة للواقع ، ومرتدية في الان نفسه احداثا منحوتة من جسد هذا الواقع ، وشرائح مقتطعة منه .

(٢) الاحداث ... ماذا وراءها ؟!

من البداية اقول ان ثمة شركا منصوبا امام ناقد هذه الرواية ، اذ ان بناءها الفني الشديد التعقيد ، يضع الناقد مباشرة امام ذلك التساؤل : ترى ، عن أي شيء يبحث صابر ؟ او من هو سيد سيد الرحيمي ؟.. ومن ثم يزج به في سرداب قد يفضي الى لا شيء . اذ ان افتراض معادل رياضي ما لشخصية هذا الاب المفقود ، ما يلبث ان يلقى بظلاله الكثيفة على كل ما يدور داخل الرواية من احداث . يقسرها على ان تقول ما يؤكد ذلك الافتراض ومن ثم قد يستنطقها بما لا توحي به النظرة الموضوعية المصوبة اليها ضمن الاطار المجتمعي الذي صدرت عنه .. وفي الرواية الى جانب هذا الشرك الرئيسي شرك آخر ينحت ملامحه من محاولة العودة بانغماس صابر في الرذيلة الى ماضيه « الملوث بالدعارة والجريمة » (٨) انطلاقا من الدعوة القديمة التي الصقت الطبيعية عنوة بأدب نجيب محفوظ .. وشرك ثالث يعثر على ملامحه عند درس الرواية بين زمرة روايات البحث التقليدية .. ورابع تنصبه التهويمات القائلة ببوليسية الرواية .. وحتى نتجنب الوقوع في هذه الفخاخ سنحاول ان نقترب من الرواية مستعينين كلما امكن ذلك بنصوص منها . حتى تستطيع محاولتنا التفسيرية لها ان تظهر مدعمة بالنصوص، وحتى لا يبدو فيها اي اثر لاسدال اردية تفسيرية من خارج الرواية على ما يدور داخلها من احداث .

ففي (الطريق) معاقرة رائعة لجزئيات الواقع المتناهية الصغر ، والمبثوثة بذكاء ومهارة نادرين حول خط الاحداث الرئيسية . مما يعمق هذه الاحداث ويثريها بالدلالات . فتتمكن الاحداث البسيطة من ان تشي لنا بكافة الافكار الاساسية التي يريد الكاتب الكبير ان يقدمها لقارئه ، ومعها معالجته ورؤيته لاهم القضايا التي يرتعش بها وجدان الواقع . وتعمق الناقد لهذه الجزئيات المنثورة بذكاء حول خط الاحداث الرئيسي، هو الذي سيقع به حتما على ملامح الازمة الحضارية التي يريد نجيب محفوظ ان يقدمها لنا .. اعني ازمة الحرية .. فاذا كانت (اللص والكلاب) اكثر روايات المرحلة الاخيرة وضوحا في معالجتها لهذه الازمة، فان (الطريق) اكثر روايات هذه المرحلة ثراء .. فقد استطاعت ان تقول بأسلوب فني ان ثمة صمتا شديدا يحاصرنا .. وان ثمة جوعا شديدا الى الحرية . وان تترك في الاعماق منا اثرا وجدانيا ينحت ملامحه من الحالة الحسية التي تخلفها القراءة الواعية للرواية ، حالة الضيق الشديد باجحاف الواقع ، والاحساس بأن كل الظروف التي حاصرت خطى صابر وكبلتها انما تكرر نفسها بصورة منهلة داخل كل منا .. هذه الحالة التي تشبه الى درجة كبيرة ، الحالة الحسية التي عاناها لينين وهو طالب شاب بعد قراءته لرائعة تشيكوف (العنبر رقم ٦) .. اذ صحا ليلتها من نومه مفزوعا ، واخذ يذرع حجرته جيئة وذهابا ، وفي الصباح ارسل خطابا الى اخته يقول فيه « عندما انتهيت من قراءتها مساء امس ، شعرت بالرعب ، ولم استطع ان اغادر غرفتي ، بل قمت وخرجت ، كان شعوري انني اصبحت سجينا في العنبر رقم ٦» .. ولنحاول الان الاقتراب من احداث الرواية .

فمع انفاس الخريف تبدأ احداث الرواية .. مع انفاس الخريف

---

(٤) سبق ان بينا هذه السمات بالتفصيل في مقالنا (الاتجاه الروائي الجديد عند نجيب محفوظ) ، الاداب ، نوفمبر ١٩٦٣ .

(٥) بطل رواية نجيب محفوظ (اللص والكلاب) (٦) بطل رواية نجيب محفوظ (السمان والخريف) .

(٧) سبق لنا الحديث عن (اللص والكلاب) و (السمان والخريف) في الاداب ، نوفمبر وديسمبر ١٩٦٣ على الترتيب .

(٨) نجيب محفوظ ، (الطريق) ، مطبوعات مكتبة مصر ، القاهرة ، مارس ١٩٦٤ ، ص ١٨

يصحو صابر وقد احتكت اصابعه بشيء شديد الصلابة .. يصحو على جهامة الواقع وعبوسه كما صحا من قبله عيسى الدباغ وسعيد مهران وكما صحا جوزيف ك (٩) وجريجور سامسا (١٠) .. وللصحوة والتوقيت دلالتان .. فاذا كانت صحوة ك اوسامسا بطلي كافكا ، هي صحوة دامية على لا معنى الواقع ولا جدوى الوجود فيه ، فان صحوة صابر هي صحوة التوق الى ان يهب هذا الواقع المعنى ، ان يفسره على ان يصرخ هنا مكان الداء .. وهذه هي الاسباب الراسمة للازمة . ودلالة الصحوة هنا تعني بداية الوعي بتناقضات الواقع ، او ذروة الوعي بهذه التناقضات . وتعني في الان نفسه ان الواقع قد وصل الى مرحلة من التأزم يستحيل معها الوقوف بلا مبالاة حياله . اما دلالة التوقيت فانها تعانق دلالة الصحوة ونثريها ، فالخريف هو الفصل الواعد بتباشير الجدب .. ينزع عن الاشجار اوراقها ، واشيا بمقدم الشتاء الذي سيعري كل شيء ، ينثر الجفاف بين طيات الحياة .

والصحوة على هذا الواقع الخريفي شديدة الرعب ، لانها تعي كل ما يعد به هذا الواقع من اجداب وذبول اكيدين ، وهي في الوقت نفسه عاجزة عن صد جحافل الخراب الراكضة فوق اشلاء الواقع المأزوم .. ومن ثم فانها تعرب عن نفسها خلال ايماءات جزئية ناقدة لما في هذا الواقع من تفسخ . ويفرض هذا الموقف المأزوم على الرواية توترا عنيفا ينثر الازمة داخل كل جزئياتها . ومنذ اللحظات الاولى ، عانق هذا التوتر الصحوة المفاجئة على جهامة الواقع وغرابته ، وبدأ العالم الخارجي يقدم تحدياته المستمرة لبطل الرواية عقب فقدانه الاليم لامه التي كان يعيش في فيئها ويمارس كل حاجاته تحت استار حمايتها وحنوها « يقولون لم يقف هكذا غريبا في منظره وملبسه كأنه ليس واحدا منا ؟ لم نحته امه عن بيئته ثم تركته وحيدا ؟ انهم لا يعزونك ولكنهم يدارون شماتتهم بك . ومذاق الحياة امسى كالتراب » (ص ٥) ... منذ اللحظة الاولى يقدم الواقع الخارجي التحديات ، ويؤكد في الوقت نفسه تمايز البطل عن بقية الموجودين حوله . خاصة وان هؤلاء الموجودين حوله ليسوا أكثر « من تاجر مخدرات الى برمجي ومن بلطجي الى قواد » (ص ٦) .. ذلك التمايز الذي يعرب عنه كونه اكثر وعيا من بقية المحيطين به بمأساوية هذا الواقع وبجوه الخريفي الكئيب .. ومن الصحوة المفاجئة على الواقع اللامألوف الذي ينحت لاالفته من تغير الواقع الداخلي للبطلة ، بعد صحوته على الحقيقة الدامية ، ومن انعكاس هذا التغير على رؤيته للواقع الخارجي .. فـ « ابتداء من اليوم سيعرف الحياة على حقيقتها ، انه وحيد ، بلا مال ولا عمل ولا اهل . ولم يبق له الا امل غريب كالحلم ، انه مطالب منذ اليوم بتأمين حياته ، وهي مسؤولية لم يتحملها من قبل ، اذ نهضت بها امة وحدها ، ففرغ هو طول الوقت لامتاع شبابه اليافع » (ص ٧) .. هكذا يصحو صابر فجأة على واقع لا مألوف .. وحتى الواقع الخارجي الذي كان مفروضا ان يحتفظ بحيدته ، فقد الفته العادية ودارت فيه احداث لا متوقعة .. « وفي نهاية البهو تعانق رجل وامرأة بحرارة لا تناسب الوقت المبكر » (ص ٧) .. وبذلك انعدمت الالفة تماما بين الانسان والواقع الخارجي الذي يتعامل معه ، وانتفى الانسجام بينهما عقب صحوته المفاجئة على الحقيقة الخريفية لهذا الواقع .. عقب انزياح الستار فجأة عن كل ما خلفه من خبايا واسرار . لذلك فان انعدام الالفة في (الطريق) لا تتم بين البطل والاشياء التي يتعامل معها ، كما هو الحال عند الان روب جرييه ، بل بينه والعلاقات الانسانية التي يعيش ضمنها ، بينه والواقع الموضوعي ككل . الواقع الفاقد للموضوعية والمنتفية منه ابسط شروطه الانسانية .. الحرية والكرامة والسلام .. الحب والطمأنينة والعمل.. فكل من حوله « مهرة في خداع الناس بمظاهرهم » (ص ١٩) .. يداري كل منهم بالاقنعة والمساحيق حقيقة الزيف والخواء الذي يعبق في الاعماق منه .

وسط هذا الواقع الشديد الصلابة يختلط بالحقيقة الحلم .. « والان اين هي الحقيقة واين هو الحلم ؟ امك التي ما تزال نبرتها تتردد في اذنك قد ماتت ، وابوك الميت يبعث في الحياة .. وانت المفلس المطارد بماض ملوث بالدعارة والجريمة تتطلع بمعجزة الى الحرية والكرامة والسلام » (ص ١٨) ... ويلجأ صابر الى البحث عن ابيه المفقود الذي يمثل له كل القيم المفقودة في الواقع .. الحرية والكرامة والسلام .. ولكن الجواب في كل مرة كان يجيئه كجدار السجن « غير معروف لدينا » (ص ٢٠) لانه كمعادل للقيم المفقودة فقد ملامحه من طول الغياب .. حتى العارف بالله الهائم في اجواء البخور والغيبيات (ص ٢١) لم يتعرف على أي شيء منه وان حدس وجوده . ويعانق اليأس كل محاولات البحث في الاسكندرية ، مراتع الصبا والماضي واللاوعي ، ومن ثم فانه ينزح الى القاهرة بعد أن يبيع كل متعلقاته في الاسكندرية .. المنزل والاثاث والاصدقاء والماضي . او بمعنى اكثر وضوحا ، بعد ان ينزع جذوره تماما من ضبابية جوها الخريفي ومن ماضيه الملوث بالاثم والدعارة واللاقيم .. وبعد ان نزع جذوره من تربتها تماما .. لاحت له والقطار يرج الارض مبتعدا كحلم خريفي انقضى .. « رآها مدينة من الاطياف مغروسة في حلم الخريف تحت مظلة هائلة من السحب ، وهواء بارد معبق بمطلع نوفمبر يجوب شوارعها الانيقة شبه الخالية . وودعها هي وامه وذكريات ربع قرن من الزمان بزفرة طويلة ساخنة » (ص ٢٥) .

وفي القاهرة ، يعرب الواقع عن وجه جديد منذ اللحظة الاولى .. « وانت اليوم وحيد بلا اهل ولا اصدقاء كأنك من جنس غريب . وهالة الزحام في محطة مصر فألح عليه شعور بالوحدة . ونازعته نفسه الى العودة في اول قطار » (ص ٢٥) .. ان هذه الاحاسيس الجديدة تماما على صابر تولد معلنة عن ميلاده الجديد ... بعد ان دفن الماضي كله في اقصى الشمال .. وبعد بحث قصير يعثر على مستقره في هذا الواقع الجديد .. فندق « القاهرة » .. بكل ما يوحي به الاسم من

---

(٩) بطل روايتي كافكا (القلعة) و (المحاكمة) .

(١٠) بطل رواية كافكا (المسخ) .

دلالات تلخيصية ... وصاحب هذا الفندق ، او بمعنى اخر صاحب « القاهرة » هو خليل ابو النجا ، بكل دلالات القدم التي ينفثها الاسم . وبوجهه المغضن الكئيب الذي يصلح رمزا للموت « انت سر من الاسرار يا عم خليل . وجهك يصلح رمزا للموت كعلم القرصان . ولم يرتكب الناس الاخطاء بلا تبصر » (ص ٣٥) .. وبزوجته الحلوة الصغيرة الشهية التي توحي لصابر منذ اللحظة الاولى بذكريات الانطلاق المعربد في الاسكندرية ، ترتبط باولى تجاربه في التعرف على الحياة « توقظ مشاعر نائمة وتنبه ذكريات مدفونة في الضباب » (ص ٢٦) .. «السمرة الرائقة النقية ، والعينان اللوزيتان الدعجاوان ، وبريقهما المضيء المفعم بالنبض والاقتحام » (ص ٢٦) .. ولذلك كله ما تلبث الاحاسيس الكئيبة المفاجئة والمصاحبة للحظة الميلاد ان تتلاشى .. وتلوح بوادر الفة بينه وبين الواقع الجديد .. « وسرعان ما توثقت علاقات خفية بينه وبين الفندق كأنما جاءه على ميعاد » (ص ٢٦) .. بل ان بوادر الالفة ما تلبث ان تستحيل الى تفاؤل .. « وشمله شعور تفاؤل عجيب فقال انه على نحو ذلك سيعثر على ابيه . والمؤكد بلا ادنى شك ان هذه الفتاة على استعداد . استعداد لشيء ما . انها تقف منه موقفا حياديا في الظاهر ولكنها تخاطب ماضيه واعماقه بالف لسان . ولا شك ان وراء هذه القشرة الناعمة الصامتة اللامبالية مدينة مسحورة » (ص ٣٠) .. فقد اعرب الواقع منذ اللحظة الاولى عن حيدته الظاهرية .. ولكنه ما يلبث ان يدرك ان هذه الفتاة التي هزت منه الاعماق ، فريسة لمغالطة رهيبة .. نزت اعماقه فزعا حينما عرفها « ليعترف بأن هذا لم يجر له في بال ، وكم بدا له مزعجا » (ص ٣٣) .. مغالطة الزمن .. فهي زوجة لصاحب الفندق العجوز الذي جاوز التسعين ، والذي يتمثل لصابر منذ البداية كعلامة للموت ، ويقف الموت في مواجهة الحياة ومن هنا تكتسب علاقة صابر بكريمة ، زوجة خليل ابو النجا ، الفاتنة الحلوة المعطاء الكريمة بحق ، ابعادها . اذ تدخل هذه العلاقة ضمن اطار رغبته الملحة في ان يحرر الواقع من صورته المجحفة واللامألوفة ، ان يسيطر العجوز الكئيب المتصدع ، على الفتاة الحلوة المتدفقة بالحياة . وضمن توقه الى بث شروط الحياة المألوفة داخل طيات هذا الواقع . ومن ثم التحمت الفتاة في عقله منذ تكشفت له ابعاد مأساتها بالاب المفقود « وفي لمحة واحدة تجلت لمخيلته صورة ابيه والوجه الدافيء المفعم بالاثارة » (ص ٣٣) وهتف بحرقة حقيقية واسى بعد ان تعرف على ابعاد المأساة .. « ومغالطة الزمن اليست مسلية » (ص ٣٥) .. بعد ان اعرب له عم خليل انه من طول ممارسته لهذه السيادة على الحياة قد خرج بأن « لا شيء مسل على الاطلاق » (ص ٣٥) .. ويستمر في تعاطفه معها منذ اللحظة الاولى غير مضيع لفرصة واحدة دون ان يعرب فيها عن توقه لتحريرها من ربقة هذا الواقع المجحف .

غير ان هذه العلاقة لا تقدم الا وجها واحدا من وجوه العالم ، الواقع كما هو كائن ، ولذلك كانت مضاجعته الجنسية لكريمة معادلا لالتصاقه الحميم بجسد هذا الواقع .. واذا اضفنا الى هذا دلالات الاسم — كريمة — وصيحته الجذلانة المتخمة شبعا ، بعد ان منحته نفسها بسخاء « قلت انك اكثر من كريمة » (ص ٦٢) تيقننا ان نجيب لم يقدم من خلال هذه العلاقة سوى وجه واحد من وجوه هذا الواقع .. الواقع كما هو كائن .. لذا كان ضروريا ان ينشيء نجيب علاقة يسفر من خلالها عن وجه الواقع كما يلوح في الحلم ، الواقع كما يجب ان يكون . فكانت الهام ، التي لاحت بجانب دلالات اسمها المرتبط بالحلم « رشيقة نحيلة لفت انتباهه في وجهها تناقض محبوب جمع بين سمرة البشرة وزرقة العينين ، وتكوين الوجه والرأس غاية في الاناقة والابداع» (ص ٣٩) .. والى جانب ذلك فان « العقل ينصحه بان يهجر الهام ولكنه لا يستطيع ، هي كآبيه فيما تعد به وفي انها حلم عسير التحقيق» (ص ٩١) .. ولذلك فان الاحتفاظ بها يستلزم الاستمرار في اسدال ستار بينها وبين الواقع كما هو كائن فعلا .. يستلزم الكذب عليها « ثاني كذبة يكذبها عليها وهو كاره ، رغم انه لم يكذب بعد على المرأة الاخرى » (ص ٧٢) .. وكلما اضطر الى اختلاق كذبة جديدة ، او كلما فسرت اكاذيبه بطيبة طوية صرخ في اعماقه « لعنة الله على الكذب . لذلك يفقد حديث الهام معناه كأنه الصمت » (ص ٩٠) .. ذلك لان هذا الحديث ليس مبنيا على اساس المعاقرة الحقيقية لجزئيات الواقع المعاش ، بل وليد الرغبة الحلمية في تجاوز الزمان ، لمعايشة الواقع المرجو .. الواقع كما ينبغي ان يكون .. كما يلوح في الحلم رائعا وواعدا بالحياة الحقيقية المكتظة بالحرية والكرامة والسلام والطمأنينة والعمل .

وعلى طول الرواية ، يعانق الواقع الحلم ، كريمة والهام ، تدور المقارنة بينهما دائما ، المزاوجة بينهما دائما ، لانهما وجها الواقع الملتصقان المتنافران ابدا .. الواقع كما هو كائن ، وكما ينبغي ان يكون .. « ولكنه مع الهام تعذبه كريمة ومع كريمة تعذبه الهام ، والتوحيد بينهما امنية لا يجرؤ على تمنيها (ص ٨٨) .. فلم يعش لحظة مع الهام دون ان تخطر على باله كريمة ، فالحلم لا يبعد الواقع وان ابعد هذا الواقع الحلم بعض الشيء .. اذ نادرا ما يتذكر الهام وهو مع كريمة .. ولهذا التناقض الحاد كانت استحالة الجمع او التوفيق بينهما . غير انه في كلتا الحالتين ، المعايشة الحقيقية للواقع كما هو كائن ، والمعايشة الحلمية للواقع كما ينبغي ان يكون .. كانت اطياف الاب المفقود تحوم بالحاح .. وان ارتبط بالحلم اكثر لافتقاده تماما في الواقع ... اذ لاح له في احد احلامه ابا لالهام .

ويستمر تمزق صابر بين الحالتين ... الواقع متجسدا في كريمة يقدم حلولا دامية للازمة تقود الى الجريمة « كريمة مثلك تمرغت في التراب طويلا ، وهما يتفاهمان حتى على البعد . وفي اعمق لحظات الحب الحارة تتمالك انفاسها لتهمس في اذنه .. متى تختفي العقبة التي تهدد حبنا .. فيمسه رعب الوعي كصفعة مباغتة وتهمس تضاعيف الظلام بالجريمة » (ص ٩٠) .. تلك الجريمة التي بدا تجنبها مستحيلا الا في حالة واحدة فقط .. هي حالة وجود الاب المفقود .. حالة تخلص الواقع من وجهه اللاانساني الكئيب . والواقع في الان نفسه شديد التوتر ولا يقبل التسويف بأي حال . ذلك لان اي تسويف في مواجهته يعني التسليم بشروطه المجحفة .. يعني استمرار الوجه اللاعادل يمارس فعالياته ... يستنزف حيوية كريمة وخصوبتها ، اذ يمتص نضارتها الانتظار الطويل للتحرر من ذلك الذي يصلح وجهه رمزا للموت، المسيطر وحده على كريمة ، والمالك للفندق ، ولمصير صابر ، ولكل شيء ... انتظار أن يموت ، ولكنه مصر على ان يستنل نضارتها ، قبل ان يستل الموت من بين جنباته الحياة .. ويلتهم الانتظار في الان نفسه نقود صابر .. يطرده من فوق وجه هذا الواقع ، ليضطره الى العودة من جديد الى الارض التي عاش فوقها آمنا .. الاسكندرية .. لانه عاش جاهلا بالحقيقة ... ولكنه ان عاد اليها اليوم فلن يستشعر فيهما الاطمئنان والرغد الذي عاشه من قبل .. فقد ماتت الام التي عاش في فيئها .. وتفتح وعيه على حقيقة الاب المفقود الواعد بالحرية والكرامة والسلام .. وعلى حقيقة كريمة الرازحة تحت اغلال خليل ابو النجا ، والمالكة الحقيقية لكل شيء « هذا الفندق .. والمال .. كل شيء بأسمي انا .. والرجل هو المتصرف في ماله طالما انه على قيد الحياة » (ص ٦٤) .. وعلى حقيقة الهام الواعدة بالمعجزات « آه .. ليس لحنا جميلا فحسب . معجزة ايضا . هل كنت تحلم بذلك !.. رأس مال بلا سرقة ولا جريمة . ومعه الحب الحقيقي . اذن رد الحياة الى عم خليل واستيقظ من الكابوس » (ص ١٤٧) .. وعلى يقظته المفاجئة على حقيقة الواقع ووعيه الجزئي بها ... « واحيانا يخيل اليه ان الصمت يخنق العالم . وكثيرا ما يذكره ذلك الصمت بالصمت المصاحب لارتفاع الموجة وتجمعها قبل ان تنفجر مرعدة مزبدة » (ص ٧٠) .. الواقع الذي لا شيء فيه .. « لا شيء الا الظلام وصوت الصمت » (ص ١٠٦) .. هذا هو ما يقدمه الواقع.. تحديات مستمرة ما تلبث ان تفضي الى الجريمة . اما الحلم .. الواقع كما ينبغي ان يكون .. فقد وعد

— التتمة على الصفحة ٥٩ —



« كان يفصل بين بيتينا شارع طويل شبيه بهـذا الشارع ولكنه كان دائم الازدحام بالناس وكنت استطيـع تمييزه من بين العشرات وعلى بعد مئات الامتار . كـان يقول لي انه هو رآني قبلا وأؤكد له اني كنت السابقة ثم اتفقنا ان نوقت لحظة الرؤية لنرى حين اللقاء من منا ميز الثاني اولا .... »

« ليلى سأكمل هذا القسم من المادة ونعود الـى الحديث انا اوافقك أن حبك كبير .. كبير »

رأيت في عيني ليلى نظرة عتاب . لقد ابعدت الولـه منهما . عدت مبهما الى واقع الامتحان الذي ينتظرنا غدا. وسرعان ما تحولت النظرة في عينيها الـى استسلام وتمددت على فراشها وعادت الى القراءة .

قطعت علي الاصغاء وعلـى ليلى الحديث زميلتنـا ليان . جاءت باسطوانة وطلبت ان نسمعها اياها علـى الحاكي .

بقية الزميلات اخبرنها ان كلماتها تصف عواطـف الشرقيين اصدق وصف .

ارسلت لي عينا ليلى نظرة انتصار فطويت كتابـي وجلست استمع الى اغنية السيد درويش (انـا هويت) وليلى تترجم لليان كلمات الاغنية .

سألتني مساعدتها في ترجمة المقطع :

أحبه حتى في الخصام
أحبه حتى في المنام

رأيت عيني ليان الخضراوين تتحولان الـى الزرقة الغامقة وتهمس « لم نتخاصم الا حين كان يريد الواحد منا ان يبرهن ان حبه هو الاكبر ويبحث عـن شتى البراهين ثم نصمت ، وكان صمتنا ابلغ تعبير » .

تركت ليلى تترجم وليان تتذكر وعدت الـى كتابي احاول أكمال الصفحات المتبقية من الفصل .

رفعت رأسي أحاول تذكر النقاط الرئيسية مما قرأت وقرب النافذة كانت صديقتاي تشيران الى الشارع وليلى تقول « الغد يوم عطلة ولدينا متسع للدرس . حسنا فعلوا ان عينوا موعد امتحان هذه المادة الصعبة الى ما بعد يـوم العطلة ... »

ارخت لليان ذراعيها متمتمة « كـان ذاك الشارع الطويل يؤدي في احدى منعطفاته الى قرية صغيرة ، كنـا نذهب اليها يوم العطل سيرا علـى الاقدام . كنت اتعب واخاف من البوح لئلا يعرض علي ان استبدل حذائـي ذا الكعب العالي باخر واطيء فابدو قصيرة قربه . كان هـو طويلا . ارفع رأسي عاليا لاراه . كم كنت افخـر بالسير بجواره . استطيع تحدي الدنيا وهو معي » .

قاطعتها ليلى « كم سرنا في شارعنا وكم سرقنا اللوز الاخضر . كنا نحن الاثنين نحبه فجا وننتظر حلول المساء ، وكطفلين صغيرين نتعلق بالاغصان ، قافزين اليها ، ومـن يحصل على لوزة يطعم الاخر نصفها » .

وتكمل لليان « كان في النصف الثاني دائما حلاوة اكثـر » .

اخذت كتابي الى قاعة المطالعة وكانت كبيرة واسعـة تملأها الطاولات الداكنات اللـون والكراسي الخشبية الصلبة . شغلت بالقراءة ، وفجـأة احسست بوحشة شديدة وخيل لي اني على وشك البكاء فسارعت الـى غرفتي . سمعت لليان تقول « احس كأن الناس كلهـم يدرون اني وحيدة ويعطفون علي ويعن لي احيانا أن اذكـر لهم كيف كنت قوية معتزة بجواره . انا اخاف الوحدة .. اخافها ... »

اقترحت عليهما شرب قدح شاي فقالت ليلى انهـا تفضل القهوة . لقد علمها هو معنى تذوق القهوة . انـه يحبها قليلة السكر وهي لا تدري كيف كانت تعيش قبـل ان يعودها على قهوة الساعة العاشرة صباحا . كانـت اول دعوة تلقتها منه يوم لاقاها في ممر الجامعة ودعاها الـى فنجان قهوة وعجبت لدعوته ... ثـم صارت تنتظرها وباهت بها على زميلاتها ... »

سكتت ليلى فلم نعلق على حديثها فواصلت « ثم .. ثم حدثني عن حبه واعترف لي بأنه احب فتيات قبلـي ولكني انا كنت حبه الاكبر » .

سألت : ثـم ؟؟

أجابتني لليان « كانت اول رسالة كتبتها لـه يـوم سفري وقررت رميها في صندوق البريد وانا في طريقـي الى المطار ولكني خجلت من ان اطلب مـن ابوي ايقاف السيارة ففكرت في وضعها في بريد المطار .. وهنـاك فوجئت به . جاء يودعني مع جماعة من اصدقائه ، عرفت لحظتها كم سيكون الفراق أليما وبدأ حبي له يكبر .

جلست مع اسرتي في قاعـة الانتظار وكان هـو يجاورنا في حلقة مع اصدقائه . كنت اريـد تسليمـه الرسالة ولكن اقربائي واصلوا حديثهم وتوصياتهم لـي ، ولم اجد ثغرة اتركهم فيها . لم افهم حرفا ممـا قالوا . كنت اخشى ان اسمع من ينادينا الـى ركوب الطائرة . ولكني سمعت الاغنية ... الاسطوانة التي وضعها . كانت

اغنية جديدة شائعة نستسخفها كلانا ولا ادري من كان يحدثني وعم كان الحديث . الذي ادريه اني نهضت وقمت من مكاني بكل شجاعة وانتقلت الى حلقته هو ورفاقه وحين بدأت مصافحتهم سمعت النداء الى ركوب الطائرة. فاسرعت اصافح الايدي الممتدة لتوديعي ، وطوال الطريق في الطائرة كنت خائفة ان تكون الكف التي وضعت فيها الرسالة غير كفه ، وقررت أن اجعل من اول اغنية اسمعها بعد وصولي نذيرا او بشيرا .

لم افهم معنى الاغنية العربية فطلبت من المضيفة ان تكتب لي اسم الاسطوانة واشتريتها ولا ازال احتفظ بها » وبصعوبة فهمنا مما رددته لليان من الفاظ عربية كلمات اغنية « في البحر لم فتكم في البر فتوني » .

تمنيت لو تكون لليان غير فاهمة لكلمات الاغنية ولكنها قالت « هناك اغنية هندية سمعتها عند (لالا) تشابه معانيها معاني اغنيتكم العربية ... وعرفت ان حبي انا لا حبه هو سيكون الاكبر انه لما يسعد ان يكتشف المحب ان عاطفته عميقة لم يعرفها غيره من المحبين ... سأنادي لالا لتأتي بالاسطوانة تسمعها وتترجمها لنا » .

رأتني ليلى انظر الى ساعتي واقيس سجل الصفحات الكثيرة المتبقية من مادة الدرس فارتسمت على عينيها بسمة خفيفة شامتة .

انسحبت بكتابي الى غرفة مديرة القسم الداخلي وكانت سيدة متقدمة في السن . اعتادت مني هذه الزيارات . يرجعني جو غرفتها الى البيت ودفئه .

جلست في ركن عطوف واستغرقت في القراءة . لا ادري كم مرة من الوقت قبل ان يضاء النور وارى المديرة تتقدم مني تطمئن علي . تطلعت اليها ارى في عينيها كل الحنان والود الذي احتاج . كانت سلسلة تتدلى من عنقها معلق بها صورة رجل شاب . سارعت تدخل الصورة تحت ثيابها بحركة مرتبكة . استأذنت بالخروج وانا اتساءل في نفسي « اهذا هو حب المديرة الاكبر » ؟؟

في طريقي الى قاعة الطعام رأيت زميلة تمسك بسماعة الهاتف تحدثها بوله . الخوف يقفز من العينين والشوق يهرب من يديها .

وعلى مائدة العشاء قالت جارتي انها تحب هذا الصنف من الطعام كثيرا « تذكرت حب ليلى للقهوة » فاجبت مسرعة وانا احبه ايضا واجبرت نفسي على اتمام صحن اكلة امجها كي لا اسمع حديث حب اكبر جديد .

كنا كلنا مرهقات فترة الامتحان النهائي وفي ليلة الامتحان الشامل بالذات غالبت النوم بالجلوس على كرسي منتصب وتكويم الكتب حولي اراجعها للمرة الاخيرة .

افقت على صوت ليلي وهي تهزني . كانت الغرفة مظلمة ولا ادري في اية ساعة متأخرة من الليل كنا . وبين رغبتي في معاودة النوم والحاحها علي بالكلام فهمت انها تريد أن تستشيرني في امر هام . طلبت منها تأجيله الى الصباح فتوسلت الي ان اصغي اليها « ايمكن ان يكون حب الاخريات والاخرين مثل حبها هي ؟ الا تنفرد هي بما تحس من مشاعر ؟ الا تعني الاشياء الصغيرة لها هي وحدها معاني كبيرة ؟ ايمكن ان يكون حبها .. حبها الكبير ملكا مشاعا لكل المحبين ؟ اليس حبها هي هو الحب الاكبر ؟؟ »

قمت الى فراشي . ارحت رأسي على الوسادة وسحبت الغطاء علي وادرت وجهي صوب الحائط . لم ارد ان احدث ليلى عن يوم انتهى فيه الصراع مع نفسي ومع الاخرين ، يوم ماتت الاشياء عندي حين اكتشفت اكذوبة الحب الاكبر .

استيقظنا صباحا على ضجة كبيرة وهرعت الطالبات ينشرن خبر محاولة لالا زميلتنا الهندية الانتحار ونقلها الى المستشفى .

وبين استفسار الهاعات وقاقهن وجدتني اتساءل « هل حاولت لالا الانتحار نتيجة ارهاقها استعدادا للامتحان ام تراني اخطأت في اكتشافي لاكذوبة الحب الاكبر ؟؟ »

ديزي الامير



عبادة الفرد في الأدب الروسي المعاصر

بقلم جبلي عبد الرحمن

تفاردوفسكي

منذ اشهر قليلة فجر الشاعر السوفياتي ا. تفاردوفسكي قصيدته الرائعة: « تيوركين في هذا العالم » لقد قرأ الشاعر ملحمته على « نيكيتا خروشوف » بعد مؤتمر لينينجراد الذي درس مشاكل الرواية المعاصرة ونشرت الملحمة في جريدة « الازفستيا » و مجلة « نوفي مير » التي يرأس تحريرها تفاردوفسكي .

ولم يحظ عمل فني في العام الماضي بالنقد والتحليل، واختلفت فيه وجهات النظر النقدية بمثل ما حظيت به هذه الملحمة الشجاعة .

وتتلخص الملحمة في التالي : تيوركين هذا النموذج المجسد للجندي الروسي الذي قاوم جحافل الفاشست ببطولة اسطورية ، يحمل معه بساطته وآلامه ، ضعفه وطموحه ، انه انسان بسيط « نمذجه » تفاردوفسكي حتى اصبح شخصية حقيقية ، يعرفها القراء السوفيت حتى تكاد ان تلمس في واقع الحياة .

لقد مات « تيوركين » في العمل الفني الاول ، والفائق الروعة لتفاردوفسكي . ولكنه يعود من جديد لكوكبنا ، ويواجه بالروتين القاتل ، انه يصبح جنديا رغم انفه بلا ذنب جناه ، لقد كان الزمن الذي صادف عودته .. هو بالضبط ذلك الوقت الذي عاش فيه ستالين . مستغلا سلطاته المطلقة .. وفي النهاية يترك ـ تيوركين ـ هذا العالم مخلفا وراءه حسرة لا توصف .

استغل تفاردوفسكي بجدارة الاساطير والمعتقدات المترسبة ، والتي تتعلق بالبحث ، مؤكدا ان العمل الواقعي، يمكن ان يستخدم الاسطورة بكل غناها وايحاءاتها اذا اعطى لها دلالة جديدة ومفهوما عصريا .. ومن خلال العلاقات المتشابكة في الملحمة يلتقط تفاردوفسكي بعينيه الحادتين مظاهر التناقض ، ونقاط الضعف في المجتمع ويشرحها بمشرطه القاسي ، انه يلقي الضوء على الاورام والقروح ، غير هيا بمن النقد الذي بلغ من الجرأة الثورية الى الحد الذي يعتبر نقلة جديدة في الادب السوفيتي الحديث .

وتفاردوفسكي من الشعراء القلائل الذي يمتلكون ناصية تراثهم اللغوي بجدارة . ويستقي اسلوبه من اللحم الحي ، يغترفه من الحياة اليومية ، وهو في ذلك لا ينقل اعتباطا وانما يصفي وينتقي ، حتى يغدو الاسلوب نمذجة اخرى تتساوى مع المضمون ، وتفتح له آفاق البلاغة والوحدة .. واذا وضعنا في الاعتبار الاول اهمية الملحمة من ناحية مضمونها النقدي ، فاننا بالدقة نستطيع ان نقيم هذا العمل ـ في المجالين المضموني والشكلي ـ وبالرغم من ذلك فقد وقع تفاردوفسكي ـ وهذه وجهة نظرنا ـ في اخطاء ونواقص من ناحية المعمار الفني ، نلخصها في التالي:

لقد اكثر تفاردوفسكي من التبرير او ما يسمى باللغة الروسية « موتيفيروفكا » ففي مدخل الملحمة يتحدث للقارىء لافتا نظره الى انه لا يبغي من نقده سوى البناء والتقويم . والحق ان هذا التبرير خروج عن البناء العضوي ، وافتراض ساذج من المؤلف في ضعف وعي القارىء وتلقيه للعمل الفني ، ويستطرد في هذا التبرير حتى يلفظنا من الاستغراقة النغمية الخلابة . ان قمم الملحمة تتألق حينما يستغرق الشاعر في رسم الصور المدهشة ، والديالوج ، والمنولوج ، حينما يسخر ، بل وحينما يعلق من داخل الاحداث . ومن ناحية اخرى فان تفاردوفسكي يمتلك ناصية النغم الشعري ، ويستغل كل طاقات البحر الذي اختاره وعاء للملحمة ، ويسعفه في ذلك المقدرة اللغوية الجبارة ومع ذلك نحس بالرتابة احيانا من وحدة النغم والصوت .

من ناحية المضمون . فالخطأ الرئيسي ـ من وجهة نظرنا ـ ان كل النماذج التي ساقها مهصورة ومنسحقة وسلبية تماما . ويتبقى « تيوركين » وحده ، بامكانية استيعابه وتحليله للظواهر ، هو العنصر الايجابي الوحيد ، وفي هذا افتئات على هذا الشعب الذي قدم خلال تربع ستالين الاف الضحايا من الذين لقوا مصيرهم الاسود في منافي سيبيريا والاورال !!

اذا كانت ثمة صفة اساسية للشعب الروسي ـ وهذه من واقع خبرتنا ـ بجانب البساطة العجيبة ، فانها تتحدد في الشجاعة والنقد ، ان النفسية الروسية ـ مثل المصرية تماما ـ لديها استعداد خارق لفهم التناقض ، واستيعاب الشيء الذي يوضع في غير محله ، ويتخذ التهكم اشكالا

عدة تبلغ حد الصوت الجهوري ، او تنساب في تعليقات وسخريات « يومرية » .

واذا كان تفاردوفسكي رغم انه شاعر شريف من طراز عال – لم يصبه اذى خلال السلطة المطلقة وعبادة فرد ستالين – فان هناك شعراء وكتابا اخرين ، قد ضحوا بالسنين الطويلة من زهرة شبابهم في المنافي ومعسكرات الاعتقال ، وذاقوا الامرين ، ومع ذلك لم يفقدوا الامل في امكانية الخلاص ، وانتصار العدل والديمقراطية ، وعلى رأس هؤلاء الشاعر الروسي العظيم – باريس روتشيف – الذي نقدمه اليوم لقراء « الاداب » .

ان هذا الشاعر المتواضع المقل قد امضى في منافي سيبريا عشرة اعوام ، وفي معتقلات العمل المنهكة في الاورال عشرة اعوام اخر ، لقد كان عمره خمسة عشر عاما حينما تفتحت موهبته الشعرية في الاورال واخذ يكتب في الاربعينيات – وهي الاعوام التي تتميز بالبناء الجبار في سيبريا والاورال ، وتحويلهما من مناطق مقفلة لا قيمة لها ، الى الدرجة التي تعتبر اليوم اهم المناطق الصناعية ليس فقط في الاتحاد السوفيتي وانما في العالم كله – وفي هذا تتجلى مأثرة ستالين ونواقصه معا – نقول اخذ يكتب ويغني لوطنه من القلب في شعر عاطفي منبىء بقدرة غير عادية .. ويساق الشاعر – ذات يوم – الى منافي سيبريا . مع المجرمين والخونة والشرفاء في مكان واحد ، وكل ما صنعه انه يحب « النكتة » او ما يسمى باللغة الروسية Merggm – الشيء غير المتوقع . وهناك يلقى الاهوال، يتجمد بدنه ، ولكن قلبه يظل نابضا ودافئا .

ان الشاعر الذي صقلت المنافي موهبته ، يعبر عن الحرمان الصقيعي ، عن الكبت العاطفي والجنسي ، عن اللامعقول في الحياة . ولكنه يظل بالرغم من هذا العذاب الخرافي مشدودا الى الشمس والذكريات والامل في العودة الى داره وحبيبته التي اخلصت له الحب . وقد اخترنا من مجموعته – الشمس الحمراء – هذه الملحمة النموذجية ، التي اودع فيها عذابات السنين ، والحرمان المقيت ، والجوع العاطفي ، والتي تبلغ من الروعة والاصالة الى الدرجة التي لا يمكن ان يعبر بمثل مستواها وبساطتها وسخريتها وصدقها شاعر اخر لم يقاس هذه التجربة المتفردة !

لقد كتب « باريس روتشيف » ملحمته عام ١٩٣٦ ، صرخة موجعة من اعماق الجيل الشريف الذي كابد من اسطورة التأليه ، من تحويل الفرد الى مجرد « ترس » في جهاز الدولة تتحكم فيه سلطات الامن ، وتسحق كبرياءه الانساني ، ونعتقد ان نشر هذه المجموعة التي صدرت عام ١٩٦٠ يعتبر تحولا وانتصارا للفكر الديمقراطي في العالم كله .

ان اهم العيوب التي نلاحظها – بعد دراستنا للغة الروسية – في بلادنا وفي اوروبا معا : هي الحكم على الادب السوفيتي المعاصر من خلال الزوايا السياسية ، وما تثيره الاحداث العارضة في جرائد ومجلات الدعاية والتي تبني احكامها على قوانين الصراع بين المعسكرين ، بينما لا تلقى النماذج الحقيقية الاصيلة من النقد والاهتمام الا الشيء العارض الشحيح .

وسوف نحاول ان نقدم لقراء الاداب – متجردين الا من ضميرنا الفني – ما يعكس بحق انتصارات واضافات وعيوب هذه الثقافة العملاقة والتي تحتل – اردنا او لم نرد – مكانها الطبيعي بين الادب الانساني المعاصر .

لن نقتل بالتحليل ملحمة – باريس روتشيف – وسندع القارىء يشتف منها صرخة الشاعر المكتومة المدوية ، واحتجاجه الذي يضج كالرعد على وضعه اللانساني في مخالب الصقيع ، مومئين بايجاز الى ما عجزت الترجمة عن نقله :

ان « باريس روتشيف » يختار لكل مشهد الموسيقى الخاصة به . يعبر عن الرتابة بالنغم الهادىء الطويل الرتيب الذي يكاد ان يخنقنا ، وحينما تحوطه الذكريات يتألق النغم ويتدفق كالجدول الروحي ، ويجسد احاديث رفاقه حتى تكاد ان تخترق آذاننا قهقهاتهم الغليظة ، وسخرياتهم المرة ، وشبابهم المهصور ، وبعد هذا كله ، فللشاعر قدرة عجيبة على الانتقال من الخاص الى العام وبالعكس ، من الداخل الى الخارج ، من الخيال الى الحقيقة ، مستغلا الرموز والرؤي والاحداث البسيطة والكامنة في اللاوعي ، وبالاضافة فان سخريته حادة كأسنان الصخر ، ولغته روسية مقطرة ، فيها خشونة الحياة وواقعيتها التي ترتقي الى ما يشبه الاسطورة .

ونماذج « باريس روتشيف » بسيطة . بسيطة ، بعيدة عن تقعرات « الانتلجنسيا » واورامهم الفكرية ، نماذج لا تطمح الا للعدل والطمأنينة والحياة اللائقة بنا كانسانيين وفي هذا يكمن تفاؤله الاصيل وثقته التي لم تتبدد قط في الانسان .

موسكو **جيلي عبد الرحمن**

***

الشمس المخضبة

للشاعر السوفيتي المعاصر باريس روتشيف

– ١ –

في انحاء روسيا التي لا يحتضنها النظر
والتي تتوارثها مثل بيت الابوة
نحن الشعب الروسي البسيط
غذاؤنا من التعب وعرق الجباه
وفي تايجى (١) حيث الغابات الكثيفة التي ترشها الثلوج
على قمم الجبال .. ومن اعماق المناجم
نسمي ما يعطى لنا من العيش « الخبز المعتقل » !
خبزنا .. قطع الخبز !!

١ – الغابات السيبرية المخضوضرة صيفا الموحشة شتاء والتي لا حدود لها تسمى تايجي

اخشوشنت جلودنا ـ بدون امراة تلاطفنا ـ
زاحفين خلال الغابات والجبال
الغابات التي يجللها الدخان
نترك مواقد النار في الزوايا
ومن الغريب : اننا في هذه الاراضي الموحشة بدون اناس
نعيش بالجوازات !!
وانثنينا في الدروب المتحجرة ، شققنا الصخور
دلفنا صامتين نسقط في الثلوج
وها قد علمنا ونحن مقوسو الظهور
كيف ان الشرف المقدس : ثقيل وصعب

***

في البداية .. في صحارى الشمال
تركنا مشاعلنا الهزيلة تحترق
كل هذا القحط .. وكل هذه الاحزان
قطع الثلج الثقيلة .. الثلج الخالد
ليكن : لننقض عليه مرة واحدة في البداية
من أجل ان نحبه على مر الدهور !
وبالعادة حينما يدعونا الوطن
في سبيل كل ما بنيناه ، نقتحم معارك الموت .. ونموت !
وها أنت في البعيد على البحر الازرق
حزينة في مقتبل عمرك .
ـ لا تسمى اشواق المرأة المقدسة
جبروت الحزن ـ !
طريقي ، مشاعلي ، خيامي البعيدة
ترينها قريبة على مرمى ناظريك
تعلمي صبر الجنود !
هكذا تسميه امهاتنا ...
المعاناة جديرة حينما نقتحم القوى المواجهة
والشوق مفخرة خلال الحياة
حينما مرت السنون على روسيا
والآبـاء يتشبثون بالحصون .

ـ ٢ ـ

لو لم نكبر عاما بعد عام
لو لم نعش معا جنبا الى جنب
ـ لامكنني ان اخلب لبك قائلا
ان في المرأة جمال الروح والجسد ـ
لقد عرفتك في قميصك البسيط
وحذائك المنزلي ، العادي بلا تزويق
ولذلك فانت لا تضطربين ، لا تنهرينني ، لا احلم بك .
لقد اعتدت ان اعيش وقلبي بين يديك !
أنا مقتنع ـ انه لو لم يكن كذلك ـ فانه ليس من الممكن
هنا في هذا المكان الاصم .. في الشتاء الشمالي
على منحدر الجبل الحاد ، في ضباب الغاب العميق
ـ ان تتسامقي هكذا يا شمسي المخضبة ـ
يداي المتجلدتان من الصقيع
تحنان الى النار : وبلا دموع
ادخرتك ـ وحدك ـ اعواما
في عيوني الجافة المتقعة من الفراق
وانت ابدا حية .. وقريبة قريبة
كل شيء فيك لطيف ، متألق ، حي
تنسابين نحوي وعلى حواجبك الدقيقة الشابة المقطبة
اضطراب الامهـات !!

الثلوج تتراكم على سقوفنا تسوقها الرياح
ومثل الامس لم يكن ثمة شفق على السماء
وانا بين اليقظة والمنام فانني اسمع
« استيقظ يا حبيبي لقد حان الفجر »
ومشيت معي على منعطف الجبل
على النهر المتجلد .. من متكأ الى متكأ
اخذت بيدي حينما انهكت
وادفأت صدري ، حينما اقشعر البدن
تحسرت في الليل ، حينما احسست بأنني تعب
تحنين على رأسي مثل الاخت الشفوقة
انفاسنا تتحد : هكذا توهمت
وادخرت حلمي حتى الصباح
حتى تعلمي انت : انه في هذا الصقيع الشرير
ـ مثل خفة اليد : البقية الاخيرة من قواي ـ !
لتكن صورتك القديمة قد اضعتها في الثلوج
ليكن ! لن استطيع ان امد خطاي في حجرتك
ليكن ! احببت احدا سواي ، فأنا لن اصدق
لن اعطيك لاحد مـا !
ليكن كل هذا حقيقة : مثلما يضج الشتاء ويعوي
يخيل لي انني اكابد كل هذا ،
فانت حتى الان لم تنطفئي في عيني
هكذا قريبة مني في اليقظة والمنام .

ـ ٣ ـ

كما يسير المثل في كل الانحاء
في حياتنا ليس كل شيء كما تظنين !
ان وجدنا اللفائف ، لا نجد التبغ
وان عثرنا على التبغ ، ضاعت اللفائف
وذات مرة كنت فقيرا !!
خلال البحر البعيد ، سافرت بدون اوراق
ابحرت للشمال .. من غير ان ادخن
في مرارة الشوق يحدق قلبي في التبغ
وهكذا احدث شيء ما .. كأنه عن عمد
خطابك تحت يدي !
ذكراك .. كلماتك
افراحك .. احزانك
كأنني اقرأه لاول مرة
مع انني احفظه عن ظهر قلب !
هكذا دخنت ليلا ونهارا
قبل النوم .. وبعد اليقظة
وبالمناسبة .. دخنت الخطاب
حتى لم يبق سوى النهاية ،
كأن شوكة استقرت في قلبي
تهاديت وجلست الى جانبي
كأنني اتلمسك في دخان التبغ
ماذا يمكن ان اقول لك ؟؟
كيف استطيع ان احدق في عينيك ؟
هكذا وضعت الخطاب في كيس التبغ
لقد ادخرته اعواما .. على صدري في ثنايا الثوب
خلال الرياح .. خلال النيران
خلال النهيرات ، خلال الواح الثلوج العائمة
وحملته خلال العمل
وصنته من الامطار

وضعته تحت الاحجار
تحت ثقاب الكبريت
وحتى لا يلاحظ احد من اللصوص خبأته
كأنه دمي واغلى ما ادخره
كأنه اعز ما املك ..
ومثل المعجزة ، لم يبل هذا الخطاب
وفيه سطورك القليلة التي شحبت
نقاط الحبر ساحت من زمان
في كل الطرق النائية ، في شعاب الغابات الضبابية
ها هو الكبر يدب في احنائي
كما دب في خطابك الصغير
ومن جديد يعتصر في الشوق لحظات
ومن جديد تغمرني السكينة
حينما كتبت « اقبلك »
وفي الامضاء « انا لك »

— ٤ —

ومع الفجر اذهب الى العمل الشاق في المناجم
وتطير عيوني تتسلق قمة الجبل
وتحط في المكان الذي يجلله الدخان العميق
حيث تعيش امنيتي الوحيدة
— ومن الممكن انني شخصيا لا الاحظ ذلك
كما يحدث دائما ان يضل الانسان —
اقول لها .. كلمة اللقاء
« صباح الخير يا فجري (١)
وحينما تقر هذه اللحظة
تتبلل احداقي .. كأن ثمة نسيما رطبا عبقا
ولا ادري لماذا يصبح سهلا ،
الدق بالمطارق والفئوس الحادة ؟!
وعلى الهواء اخلع ملابسي بطمأنينة
ولا يتصبب العرق على وجهي
طوال النهار : صامتا أدق الاحجار الشمالية الخالدة
اضرب واضرب حتى يغلى الدم في عروقي
حتى يطير اليوم بلا ذكريات !
حتى انام الليل مثل العربيد !
ومثل لحظة الفتيل المشتعل
تنفجر اشواق الاعوام
اشهقها مرة واحدة
وهكذا في الدخان العميق
احمل مطرقتي واسير بلا هدى
تنسحق المتاعب التي لا استطيع لها عدا
حتى يتساءل كل الناس مندهشين من جلدي !
كيف يحدث هذا ؟ من اين لك هذه القوى الدائمة ؟
كم كبرت من الجبال والانهار والصعاب
ولكنك على اية حال لا تشبه البطل !
وحينئذ — لاول مرة في حياتي لا اكتم سرا
« لست يا اخواني خبيرا بالاعمال الشاقة التي تقصم الظهر
ان فكري يسبح في مكان ما بين الحفر
اعتصر قلبي .. حتى سقط ! »
اترين ؟ لقد ساعدتني بعملك الخير فلم اسقط

١ — كلمة الفجر في اللغة الروسية تأخذ دلالة حلوة معينة لان الفجر طويل فائق الروعة

في المكان المضبب العميق !
كأنني منحت في طفولتي من الوراثة
عظما صلبا .. ورأسا صلبة
مرة اخرى شكرا : في جبل الاورال
ساعدتني امرأة واحدة
وهي نفسها لا تعرف
لماذا ؟ وكيف انها قوية الى هذا الحد ؟!

— ٥ —

الدب (١) الذي يكابد دون احلام
كأنه في ليل معتم
ارتفع صوته من كومة القش والجليد
لم يخش ان يتجمد في البرد
طوال الشتاء يجرجر خطواته في الدروب
عبر الصقيع الفولاذي ، عبر عواصف الثلوج
عبر الشواطىء الصخرية
قابله سائقو العربات
مخالبه المغطاة تمسح كتفيه !
انتصب على قوائمه الخلفية ، في مواجهة العاصفة
يدلف الدب تماما في صورة انسان
لتكن : معجزة حدثت في عالمنا
ولكنني أؤكد كل ذلك في شيء واحد :
— في ارادة طيبة ينام الدب هادئا مطمئن الخاطر
وليس ثمة واحد من الدببة لا يجول في خواطره او يريد
ان ينعتق من مكمنه الى شاطىء النهر —
وحدي هنا اجول في الطريق
الفرو الثقيل مشدود على الجانبين
كأنني اشابه الدب في هذا العالم الضبابي !
وحدي تتلعثم خطواتي في الصقيع .
اجوس مثل الاعمى ، كأسطورة الارض الشمالية
ترى ؟ هل المسهد المفروح العينين مثلي
يمكن الا يمنحه القدر :
القدرة على تدخين التبغ ؟ ان يتعذب شوقا لداره ؟
ان يناجيك عبر الاف الاميال ؟
ان يهرول امام العاصفة الهوجاء !
ان يجلس على الجليد حتى يراقب مطلع الفجر ؟!
عيناي في البعيد مشعلتان مضيئتان
ومع كل هذا فانني لا استشعر المهانة
من هيئتي المضحكة المتوحشة مثل الدب !!
في صخب الحياة تتغير ملامحنا
هكذا نعيش كما يشاء الوطن
انه يرمي بنا في لطف وفي قسوة !
في الصقيع المر ، وفي الهجير الذي لا يرحم
عبر كل الانحاء : هناك طريق واحد
ادخره لنا الوطن
يعلمنا السعادة والاملاق
يمنحنا الغطاء الذي نرتديه على الكتف
لقد قضى ان اعيش دبا !!
ان اخترق الفضاء مثل الصقر
وليكن : لتحلمي بي في هذه اللحظات

١ — الدب يدفن نفسه تحت اكوام الثلوج والقش في سيبريا طوال الشتاء حتى لا تتجمد عظامه

فالثلج على النهر الابيض الشمالي
الطريق يتلوى على الشواطىء كالثعابين
في امتداد الطريق تصفر العاصفة
وها انذا امسح بمخالبي الجليد عن الكتفين
ان يتقد قلبي في الشتاء : هذا ما احاوله
وبكل امتداد قامته : يجوس كالانسان
هذا الدب الذي يكابد بلا احلام !

— ٦ —

في الواحدة بعد الليل .. بلا توقع
استريح لحظات قليلة
والى الغرب في عجلة ارحل
ومن جديد الى الشرق
بالاوامر الحديدية نتابع رحلتنا
بالحمل الثقيل الخالد
ليلا ونهارا تعبر السيارات
وفي الصقيع الشمالي
تجمدنا في الطريق قليلا .. حتى العظام !
ونحن لا نعرف نهاية المطاف
تتدلى اعناقنا كالمشانق
يصفع الشتاء الاوجه فنلعنه
وفي البعيد .. نخاف ان نحدق في البعيد !
وخلال الصدف غير الموفقة !
نجوع ، وليس لدينا تبغ ندخنه
ونحن كالاطفال احيانا . لا نبكي !!
نقول سوف يأتي صبح ما
افكارنا حزينة بلا جدوى
لقد اصبحنا حمقى من البرد !
نوانق ان نعطي نصف حياتنا
قمنا للحظات من الدفء
وها نحن من جديد وقد اوغل الليل
لا نرى على جوانب السيارة الخشبية قبسا من الضوء
جاري البردان يهز كتفي بقوة :
« اسمع يا حبيبي من اجل « شلتنا » (١)
اعمل معروفا .. وحدق في البعيد
الا ترى قبسا من الضوء .. ابدا لا ترى في الامام ... لا ترى ..
عيناك حادتان وشابتان »
امد عنقي من الصف .. الى البعيد
والريح تجعد جلد الوجه
خمس دقائق احدق في الامام ..
ترسب الثلج على رموش العينين وحوافيها
لا ارى غير رءوس الجبال خلال الطريق
مرتفعات ، منحدرات ، شواطىء صخرية
ليس ثمة نأمة ، ولا همسة
لا امل فـي مشعل .
لا امل في تصديق العين ،
التي لم تتعود على العتمات
ومن جديد ارمي بهيكلي في السيارة
الحقيقة المرة في عقولنا تضطرب
وبطمأنينة اكذب على جاري

١ ـ هنا يستغل الشاعر في الديالوج اللغة الروسية الشعبيـــة المصفاة ويجسد المشهد دراماتيكيا

جهوري الصوت حتى يسمع الجميع :
يا اصدقائي قد حانت الواحة
هناك مشعل في البعيد .. البعيد
وبيسر اكثر .. استقبلنا قسوة الجليد
وتنفسنا ريحا شمالية(١) دافئة !
وتخففنا من ثقل احزمتنا
وقليلا .. نشد ظهورنا للوراء
شخص ما يصرخ ، ليستجدي الضحك
واخر يغني موالا قديما .
يمكننا من جديد ان نتابع رحلتنا
وفي القلب نرى الحقيقة التي تشعله
الحياة صعبة مثل الطريق .
لهذه المشاهد الشتائية لم اكن مستعدا !
وانا شخصيا اتعذب كثيرا ،
من البرد الذي يكشف روحي
لانني شخصيا لا اعرف من يملك قبسا من النار !!
حبيبتي .. يا اخت روحي
انتظرتني عاما بعد عام .. عبر شواهد الطريق البعيدة
ها انذا امزق قلبي من اجلك
على النار التي لا تواتيني
ليكن : ليلغط الناس من حولي في كل مكان
لا تحدق « يا بلدينا » في الامام
ليس هناك احد يحبك !
ليس هناك احد ينتظرك !
انني لا اصدق هذه النظرات العمياء في الظلام
ها انذا اهذي مع نفسي في صندوق العربة
احتك بجاري .. لعل بعض الدفء !
ان يكون الدرب طويلا .. هذه ليست مهانة !
قريبا يا صديقي نئوب
هناك قبس في البعيد !!

— ٧ —

تحت السماء المكفهرة الزرقاء(٢) دائما
نتجرع الحساء مع الخبز الاسود المتقل !!
الشاي الاسود نحتسيه مع احزاننا السوداء
نخلع جلود معاطفنا ونقتحم الجليد
ايتها المرأة البعيدة لا تحزني
تخيلي ان دارنا في كل مكان
ونحن لا نؤمن بالحب من زمان
وذلك لاننا رجال .. وهذه شيمتنا
المصيبة ، والادقاع ، القيظ ، والريح الثلجية
صابرون على كل ذلك .. بلا شكوى
اننا لا نتعارك لاي سبب
كل له شوقه واحزانه التي تعتصره
حينما نتذكر اعز احبابنا ،
ليس في مقدورنا النوم .. ولا نستطيع السكوت
فان ذكرياتنا تشتعل بالبانزين
وبحقد عال نضحك ، وبسباب فظ

١ ـ الريح الشمالية شديدة البرودة وهنا يتهكـم الشاعر ، أن سخريته تتسلل في كل بيت من شعره

١ ـ السماء في الشمال المتجمد زرقاء بغير حد ، تتميز بلونهـــا العجيب المثير .

نسخر من النساء الضعيفات الماكرات
« الايمان بهن لا يساوي مليما واحدا » (١)
كأننا لم نعرف في موقع صبانا
الافواه البريئة ، العيون الصادقة
ونجتمع حينما تدلهم الطبيعة
وبصوت عال نحكي ذكرياتنا بلا اصباغ
« كان يا ما كان ومزقت قطعا
خطاب زوجها الرقيق الابيض الورق »
« ـ انهن نساء من يمنحهن المعاناة ؟؟
« ـ في شبابنا طوقوا اعناقنا من الرغبة ـ »
كان الحديث صاخبا ومتألقا .. وقصيرا
الاسرار والاشواق على الشفاه
« ـ كانت ارتعاشاتهن حلوة في الحر الشديد !
« ـ كأنهن لا يستطعن النظر في احداقنا
« ـ في هذا الوقت ـ يا صديقي ـ كانت عيونهن معتمة ! ـ »
الكلمات الحاقدة بدون حياء
كأن الغيرة لم تلهب احاسيسنا من قبل .
« اعرف المرأة كلها .. حتى بقع جلدها الخفية »
ولكنك تستقرين في روحي كأنك دارنا
تعيشين كالشمس(٢) في الروح
كل ما تحدثنا عنه في البعيد البارد
حديث رجال غير طيب
كلما ابتعدت عني فأنت اغلى
أنت كالشمس على الجبال المحدودبة
كالشمس المضيئة . حينما نجلس بجانبك
والذي لا يؤمن بك ، بالنظرة البخيلة التي تعميه ،
يرى عليك ذرة الغبار !
نحن نلاطفك في مجرى احلامنا
على القمم والصخور تحفر كل اسمائك البسيطة
وفي النار نحترق ، وفي البرد نتجمد
عبر الجبال والانهار والصحارى
بخفة ايدينا نشرب احزاننا حتى نسكر
من اجلك ندفن النار في رماد اعماقنا !
ومن اجلك اصبحنا كالاساطير
لا تقاضينا بهذا الحديث فقلوبنا نقية وقاسية
« يا مليكتي(٣) انت جميلة ومزهوة الريش كالبجعة
في قصرك الجميل الريفي »

ـ ٨ ـ

بين المصنع والمدينة ينساب النهر
وفوق مجراه دار معرشة بالحطب
حينما يعصف الشوق تأمل ذلك السقف
حيث يتمدد وجه محدق في الشمال .
متقاربان كأننا في اسطورة تفيض بالطيبة
نفتح اعماق قلوبنا . ولا مفاتيح في ايدينا
نخترق المسافات الشاسعة ، والليل وشوشة وصفير
ومن العجيب ان الجبال لا تتطاول الى المناكب ، والنهر لا يبلغ حتى الركب !
الماضي لا يزال متدفقا ، والاغاني قريبة لا تزال
في كل شهقة نصغي الى دقات قلبينا
وعبثا يهرول عمال المدينة الى المصنع
كأن سرا ممتعا يخبون به نحوك !!
متلاصقان قد انهارت المسافات بيننا
اشتعل الرأس شيبا ، والحب ممتلىء فتوة
في انتظارك الاسيان : لهفة الفتاة ، وحب الخطيبة
صبر الجندي ، وانتحاب الارملة
على ما يرام .. ها هي دوامة الثلج تتلاشى
ها قد اطلق سراحي .. على متن الطائرة اليك
دقاتي على كوة الدار ، خلال اسبوعين
وربما خلال شهر ، وربما خلال عام
وربما من اجل الحقيقة اظل مكبلا !!
وربما من جديد تتمطى السنون الطويلة
نزرع الصحاري ، ونحرس الحدود
والزمن لا يعني بنا ، ولا نحس به
ان داهمنا عمل ما : قامت الحرب مثلا
او تحسست طريقي في ضباب العالم اعواما
وانت وحيدة في الدار قد اصابتك الشيخوخة
ـ فنحن لا نجد حتى الان كلمات نعبر بها عن الفراق ـ
من الصباح حتى العشية انتظري خبرا ما ..
لا تتحسري لو تمزقت اوتار قلوبنا المشدودة المرنة
فان كان هذا موجعا : حدقي من سقف دارنا ،
الى الشمال البعيد .. بنظرات رحيمة
حيث تمسح الرياح الثلجية اثار اقدامي
في طريق النهر الغابي ، ومنحدرات الجبل البعيد

ترجمة جيلي عبد الرحمن

١ ـ في هذا الديالوج يبلغ الشاعر قمة فنية ، يستقي من الفولكلور والواقع والخيال ويبوتق كل ذلك في نفسه
٢ ـ الشمس هنا رمز الدفء والحياة الانسانية البسيطة وعذوبتها في الاصل الروسي لا يمكن ترجمته
٣ ـ مرة اخرى يستقي من الفولكلور ابياتا عذبة تضفي على الملحمة جوا شعبيا ملهما

قضية هملت المعقدة

TO MIS F.K. DEEN

***

١ ـ **رموز أولى**

لانني هملت
أشك في حقيقتي
أسخر من نكتتها المؤدبة
أحلم كل ليلة بالمقت
أفلسف المأساة في تهافت ،
أبحث عن جواب
أقرأ في كتاب
حكاية أخـرى
يقتل فيها الملك العادل
وعندما العن في الاسطورة القتيل والقاتل
أسقط بين الحب والمأساة
فاذرع الشوارع المكتئبة
لعلني ... لعلني ... وأسحق الرجاء
أوقد قنديلا من الكلمات
أعبرها جسرا .
أهين في شتائمي الاموات
ليسلكوا صحرائي المقفلة السوداء
خدعت ، فالدليل لم يعد
سمرت مثل قنفذ في قفص الابد
زحفت في صعلكة المحارب الجريح
أبحث في القفار عن مدد
لكنني خسرت ، كل ، ثائر بسيفه .. ذبيح
أضـاع شمسا مـا
أضاع في غربته دليله ،
ومـات بالحمى
تسحقه سنابك الخيول عبر الريح
لكنني أظل رغم كاهني الاعلى
يصيح بي : كـلا
ورغم ما دفنت من قتلى
أظل في جمجمتي أفسر الالغاز والرموز
أبحث عن عوالم تضم في قلاعها الكنوز
أفتحها قسرا .

٢ ـ **الوحش ذو الارجل السبعة**

قضيتي تخجلني ، ترجف في الريح علـى اعمدة الصلبان
تحوم في دجى فراغ غرفتي
أحسها في شفتي
خمرا ، وفي متاهتي
لهيب شمعدان .
قضيتي تنحب في مرثية النسيان
ميراثها نحيب موتى في كهوف الدم
يختض نهرا دافق المنبع
يسلب من عين الندامى النوم
يغرقني ضحية لمده المظالم
في الثأر ، والثأر طبول لم تزل تقرع
وحشية الايقاع في خفوتها أحلم
بنجمة عاشقة يشدو لها عبر البراري (التم)
يحنو عليها الفارس المغرم
ــ انصت لما اقوله .. هملت
أنصت ولا تجزع
أبـي ...
أبــي
من بدم الممات لطخك ؟
من غمد الخنجر في قلبك ، وانتهك
شموخك الجريح ؟
ــ انصت لما اقوله .. هملت
عند انتصاف الليل اذ يغفو عواء الكلب
ويصلب الاسرى على الابراج
وعندما تأفل في غرفتك الشمعة
سيزحف الموت على ارجله السبعة
اليك في وقاره القديم
مختبئا في شفة المسيح قبل الصلب
فارفع ذراع الثأر، واشرع رمحك المنسي نحو الباب
واطعن بلا رحمة
ليشرب الصبار من عيوننا العتمة
ويزهر القرنفل المنفي في الصحراء
لتلبس الجريمة السوداء
قميصها المغسول بالدموع
في الموت خلف القلب .

٣ ـ **فارس الاحزان**

حين أعود تائها ، تفترس الاحزان
مشاعري ، فأختفي في داخلي ،
أحلم بالنبيذ والنساء
وسفن تبحر نحو الشرق بين النخل والظلماء
أخب في الصحراء
على جواد جامح أشهب .
وعندما أعود بعد رحلة متعب
لن أجد الاحزان
لأنهم قد عرفوا الاحزان
لأنهم قد عبدوا الاحزان
لأنهم قد شنقوا الاحزان

لكنني هملت
اموت في قضيتي تسحقني الاحزان .

٤ ــ قضية خاسرة

معلقا عرفت في جريمتي قضية خسرتها ، وقلت
(ليذهبوا الى الجحيم) ثم سرت .. عدت
ابحث عن قضية أخرى
تعيد لي الوقار في محكمة التأريخ بين الناس .
(ليذهبوا الى الجحيم) ثم سرت ، لذت
بخطوتي . أسخر من منازل الاقنان
وكان في فمي ترقب ، وفي الوجوه بعض صمت
لأنني حلمت
بأنني اتهمت
بمقتل الملك .
شربت في هياكل الكهان
خمورهم ... صليت
أن أقتل الملك .

٥ ــ صوت الكورس من العالم الاسفل

لأننــا موتــى
نصلب في تمثالنا العاجز
نجوس في بيوتنا الآجر .. في غربة
نقبع في العتبة
نهز كالكلاب
ذيولنا .. لا نقرب الحاجز
نثمل من كذبة
تبحث عن أمجادنا .. في عقم الاسفار .
أشكالنا وهمية ، تسبح في الفضاء
متحدين في اختلاف ، اخوة أعداء
مختلفين في اتحاد ، غدنا صحراء
يوهمنا بالمــاء
نسلك في القفار
معارج السنين
مرتجفين ، نحمل الاسرار
عن كاهل الدنيا .
لأننا موتــى
نخاف أن نحيــا
اكتافنا تنوء بالصخرة
واذ نجوع ، نقضم النعناع
مضطهدين دونما أتباع
نضيء بالعبرة
وجوهنا الزرقاء
نرجف لو نادى على أسمائنا الاحياء .
هملــت
يا خائضا عبر سواقي الدم
نسأل في خشوع صمت الموت ان ترحم
جموعنا ، حاملة صخرة سيزيف الى القمة
لاننا سفينة اضاعها الساحل
جيوشنا مقهورة .. لن تعبر الظلمة
لتصرع القاتــل .

٦ ــ صوت الممثل

لانني اغتربت في مستقبلي ، جابهت بالقرار
أقنعة الحاضر والماضي ، وعشت لحظة العدم .
مرغت في مناجم التصدير وجهي ، تنزف الحمم
من عرسي عيني نهار الدم
فما ركعت ، ما أتشحت بالحداد في يد الفرار
وما اختبأت مــن وميضي السيف فــي ترسي
أراجيف على النهار
وما انحنيت عاري الساقين للصنم .
رقصت في غيبوبتي برأسي المزدوج الاخضر
ووجهي المصبوغ بالحناء
في الليل ، والليل طريق من حصى أسمر
لصورة العذراء
وهي على الصليب في كنيسة خافتة الاضواء .
حدقت في شوارع النيون في بغداد
حدقت فــي السماء
والشمس برتقالة صفراء
تذبل في احداق شهرزاد
فما رأيت صورتي . أسريت في مركبتي
أكتشف التوراة
نجعت لم أجد سوى المأساة
سوى صراخ هملت العقيم في الاموات
ــ ابي .. ابي سأفضح الجريمة السوداء .
لكنني تعبت من هملت
من دوره ، في لعبة الجنون
صليت أن أكون
لمرة واحدة هملت
حقيقة من دونما جنون
لكي .. لكي .. افتح في تاريخه منافذا للمقت
لانــه حطمني
أزعجنــي
بأمه العاهرة الشمطاء
والشبح المغفل الميت في السرير
هملت
يا طفلي الذي تحبه السماء
كفى سخافات ، فبعد اليوم لن تقتل ، لن تنصت
الى أبيك الحاقد السكير
أسكـت .

بغــداد **فاضل العزاوي**

أغراب

لاننا أغراب
نقبر في متاهات الليالي صمتنا
فبيننا وبين من نحب ألف باب
... لاننا نعيش كل يوم انتحار
تفقدنا ايامنا اباءنا
فالكبرياء عورة لا بد من اخفائها
نقيم بيننا وبينها جدار
ومسرحيتي قاتمة بلا اضواء
معذرة !
أنا الذي امثل الدمار
أنا الذي وضعت في الجليد
لهب الجليد
... ...

***

.. اولئك الذين يسرقون ماءنا
ويتركوننا بلا حياء
ويجعلوننا نفجر العيون
ثم نفغر الافواه
ونلعق الشفاه
.. وعندما يشقق الهوا شفاهنا
يرموننا بالف نظرة ازدراء
فنلعق الشفاه من جديد
نعضها ، تدمى ، فان رأيت ثغرا داميا
لاتشتهيه ، انه رمانة لحقدنا
شجت بخنجر الذين يسرقون ماءنا

***

لاننا أغـراب
في زحمة الطريق اننا أغراب
عن الذين يقرأون شعرنا
ويومئون بالمديح والاعجاب
كطائر الخميس في ارتحاله (١)
لكنه يرحل وسط تلة من الصحاب
ويترك الحصاد للذين يسرقون
مـاءنـا

ويلحق الربيع في اخضراره
فطائر الخميس يا صديقتي
حياتـه ربيع !
ونحن في ربيعنا نلوذ بالفرار
نهرب من دمارنا الى دمار
.. لظلمة الطريق في غربتنا
نحك فجأة جباهنا
ونستعيد ذكرياتنا
وفجأة يرعبنا أفلاسنا
فان عمرنا في اخر الهزيع
ونستحثها بنفثة من الدخان
لعلها تخبرنـا :
هل كان في حياتنا ربيع
لكنها تموت في شعورنا
تضيع !!

***

لاننـا اغراب !
نبكي .. وفي دموعنا التي تثور
رسالة الى الذين يقرأون شعرنا
ويومئون بالمديح والاعجاب
فانهم تملقوا دموعنا
وباعدوا ما بيننا وبينهم بزيفهم
فخيبوا دموعنا !
بقوا رسالة الدموع دونما جواب !

***

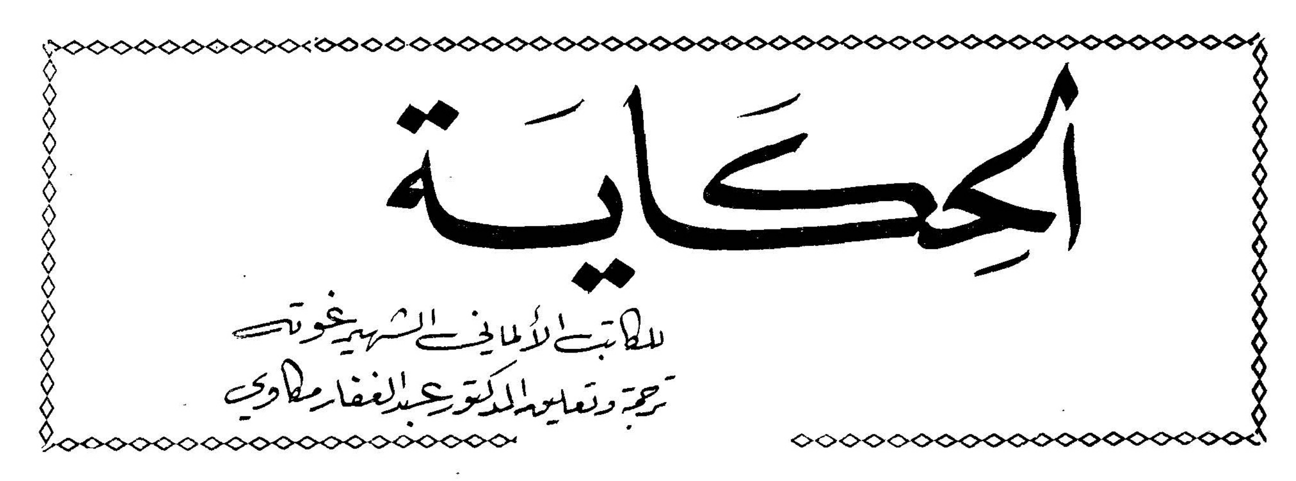
لاننـا أغراب
الليل وحده يضمنا
فانه لغيرنا مخيف
نشده فيستجيب لانفعالنا
بآهة تخرس كل زيف
لاننا نحييه كلما اوشك ان يموت
نحيي به طقوسنا
في كل آهة لنا
في كل لحظة انكسار
الليل وحده هو الذي يفهمنا
لانه يحس مثلنا حرارة العتاب
الى الذين يقرأون شعرنا
ويهتفون بالمديح والاعجاب
هو الذي سيكتب انتصار حقدنا
على الذين يسلبوننا الشباب

محيي الدين عبد الرحمن

كلية الاقتصاد والعلوم السياسية
جامعة القاهرة

---

(١) « كطائر الخميس »
« في بلاد الشام وفي الاردن « فلسطين » بالذات عيد شبه ديني يسمى « خميس البيض » او « خميس الاموات » واشارة اقتراب هذا العيد هي قدوم طيور غفيرة العدد تسمى « طيور ابو سعد » وتكون في طريق هجرتها من اخر الربيع في مصر لتلحق بالربيع في الشام » .



على ضفة النهر العظيم ، الذي هطلت عليه منذ قليل امطار غزيرة ففاض الماء على شاطئيه ، رقد المراكبي العجوز في كوخه الصغير ، مضني من عناء النهار ، واستسلم للنوم . في منتصف الليل ايقظته اصوات مرتفعة ، سمع مسافرين ينادون عليه يريدون ان يعبروا الى الشاطىء الاخر . عندما دلف من باب الكوخ ، رأى نورين عظيمين تائهين يرفان فوق القارب الموثق ، اكدا له انهما في عجلة شديدة وانهما يريدان ان يكونا على الشاطىء الاخر في أسرع وقت ممكن . لم يتردد العجوز ، فدفع قاربه وراح بمهارته المعهودة يشق به عرض النهر ، بينما طفق المسافران الغريبان يوشوشان معا بلغة مجهولة سريعة الايقاع ، وينفجران من حين الى حين ضاحكين بصوت عال ، ويقفزان مرة على جدران القارب ومقاعده واخرى على ارضه .

هتف العجوز : « القارب يترنح ، واذا لم تسكنا الى الهدوء فقد ينقلب في الماء ، اجلسا أيها النوران ! »

انفجرا ضاحكين بصوت عال من هذا المطلب الجريء ، واخذا يسخران بالعجوز ، وزادت ضوضاؤهما عما قبل ، وتحمل « النوتي » العجوز هذرهما صابرا ، وما هو الا قليل حتى رسا بقاربه على الشاطىء الاخر .

« خذ هذا اجرا على تعبك » ! بهذا ناداه المسافران ، ونفضا انفسهما فسقطت قطع ذهبية عديدة لامعة على ارض القارب المبتلة .

« وهتف العجوز » .

« بحق السماء ، ماذا تصنعان ؟ انكما تصبان علي اعظم الشقاء . فلو ان قطعة ذهبية سقطت في الماء ، لارتفعت امواج النهر ، الذي لا يطيق هذا المعدن ، ارتفاعا مفزعا ، فابتلعت السفينة وابتلعتني معها . ومن يدري عندئذ ماذا يمكن ان يقع لكما ! اعيدا نقودكما الى مكانها ! ».

فأجابه النوران التائهان قائلين : « لا نستطيع ان نرد شيئا نفضناه عن انفسنا . »

قال العجوز وهو ينحني ليجمع القطع الذهبية في قبعته : اذن فأذنا لي ان افتش عنها واحملها الى الشاطىء وادفنها هناك .

كان النوران التائهان قد قفزا من القارب وناداهما العجوز أ

ـ « أين اذن أجري ؟ »

هتف به النوران : « من لا يقبل ذهبا فليعمل بلا اجر » !

ـ لتعلما ان من الممكن دفع أجرتي من ثمار الارض .

ـ من ثمار الارض ؟ اننا نزدريها ولم نذق لها طعما .

ـ ومع ذلك فلا أستطيع ان اتركما حتى تعداني بان تحضرا لي ثلاثة رؤوس قرنبيط ، وثلاث خرشوفات وثلاث بصلات كبيرة .

اراد النوران التائهان ان يتسللا في مرح مبتعدين ، غير انهما احسا وكأن شيئا مجهولا يقيدهما بالارض على نحو عجيب ، كان احساسا شديد الايلام لم يشعرا به من قبل . وعدا العجوز بان يحققا له طلبه في اقرب فرصة تسنح لهما ، فتركهما ودفع قاربه في اليم . كان قد ابتعد عنهما بمسافة كبيرة حين ناديا عليه : « ايها العجوز ! اسمع ، ايها العجوز ! لقد نسينا اهم شيء ! »

ولكنه كان قد ابتعد ولم يسمع شيئا . كان قد ترك قاربه ينحدر بحذاء ضفة النهر نفسها ، متجها الى ناحية جبلية لا يصل اليها الماء ابدا ، اراد ان يدفن الذهب الخطر فيها .

وهناك بين الصخور العالية عثر على حفرة هائلة ، القى بالقطع الذهبية فيها وقفل راجعا الى كوخه .

في هذه الحفرة كانت تسكن الحية الجميلة الخضراء التي استيقظت من نومها على رنين القطع الذهبية ، لم تكد تقع عيناها على القطع البراقة ، حتى هجمت عليها فابتلعتها في نهم عظيم ، وراحت تفتش بعناية عن كل قطعة تناثرت في الدغل او بين شقوق الصخور .

لم تكد القطع الذهبية تستقر في جوفها حتى شعرت شعورا لذيذا منعشا بالذهب يذوب في احشائها وينتشر في بقية جسدها ، ولاحظت والبهجة العظيمة تغمرها كيف انها اصبحت شفافة ولامعة . كانت قد طالما سمعت من يؤكد لها ان هذه الظاهرة ممكنة الحدوث ، غير ان الشك كان يساورها فيما اذا كان هذا النور سيبقى على لمعانه ، فدفعها حب الاستطلاع والرغبة في تأمين مستقبلها الى ان تخرج من الصخر ، لكي تفتش عمن عساه ان يكون قد نثر الذهب الجميل في مسكنها ، لم تجد احدا ، وزاد من نشوتها ان تعجب بنفسها وهي تزحف بين الحشائش والاعشاب وأن تزدهر بالنور الساحر الرقيق الذي ينتشر منها فيضيء العشب اليانع ـ بدت الاوراق كلها وكأنها من زمرد ، والورود جميعا ظهرت صافية في ابدع صوره . عبثا راحت تجوب البرية الموحشة ، ومع ذلك فقد ازداد رجاؤها حين وصلت الى الارض المستوية وابصرت نورا شبيها بنورها يلمع من بعيد ، وهتفت صائحة وهي تتجه نحوه :

« ها انا اجد اخيرا من يشبهني ! » لم تكترث بالمشقة التي تعانيها من الزحف في المستنقع وبين اعواد الغاب الطويلة ، فمع انها كانت تعشق الحياة فوق اعشاب الجبل ، وبين شقوق الصخور العالية ، على كل حياة سواها ، ومع انها كانت تستطيب طعم الاعشاب ذات التوابل وتروي عطشها في العادة من قطرات الندى الرقيق ، ومن ماء النبع المنعش ، فانها لم تكن لتتردد عن الاقدام على اية مهمة تلقى عليها من اجل الذهب الجميل ومن اجل النور الباهر .

انتهى بها المطاف وقد أضناها التعب الى مستنقع ، وكان النوران التائهان يلعبان فوقه جيئة وذهابا ، اندفعت بسرعة نحوهما ، وحيتهما ، واسعدها ان تجد امامها مثل هذين السيدين اللطيفين من اقاربها . اخذ النوران يرفان حولها مداعبين ، ويقفزان فوقها ، ويضحكان على طريقتهما. قالا لها :

« يا عمة ، اذا كنت من اصحاب الخط الافقي ، فلا يعني هذا شيئا على الاطلاق ، حقا ان قرابتنا من ناحية المظهر واحدة ، انظري الينا ـ « وهنا ضحت الشعلتان بعرضهما كله فمدا في طولهما وزادا من حدة اطرافهما بقدر طاقتهما ـ كم يناسبنا هذا الطول الرشيق ، نحن السادة اصحاب الخط العمودي ! لا تعتبي علينا ايتها الصديقة ، ولا تظني بنا السوء ، ولكن أية اسرة يمكنها ان تتباهى مثلنا بذلك ؟ منذ ان

وجدت الانوار التائهة لم يجلس من بينها نور واحد ، ولم يخلد الى الرقاد » .

شعرت الحية بالضيق الشديد في حضور هؤلاء الاقرباء ، فكلما حاولت ان ترفع رأسها الى اقصى ما تريد احست بانها لا بد ان تعود فتحنيه الى الارض لكي تستطيع ان تتحرك من مكانها ، واذا كانت قد نعمت بالحياة وسعدت بها كل السعادة عندما كانت تعيش في الدغل المظلم ، فقد بدا لها أن بريقها يخفت في كل لحظة امام اولاد العم هؤلاء ، بل لقد خشيت ان ينطفىء في نهاية الامر انطفاء تاما .

واسرعت في حيرتها هذه تسأل أن كان السادة يستطيعون ان يخبروها من اين جاء الذهب البراق الذي سقط منذ قليل في حفرة الصخر ، واضافت انها تخمن انه مطر ذهبي تساقط مباشرة من السماء. ضحك النوران التائهان ونفضا نفسيهما فتساقط مقدار عظيم من القطع الذهبية راح يقفز حولهما .

اسرعت الحية نحوها تريد ان تبتلعها فقال السيدان المهذبان :

ـ « لتهنئي بطعمها يا عمة ، في استطاعتنا أن نقدم لك المزيد »

وعاد النوران التائهان ينفضان نفسيهما مرات متوالية وبسرعة خاطفة ، حتى كاد يتعذر على الحية ان تزدرد الطعام الثمين بنفس السرعة . بدأ نورها ينمو نموا ملحوظا ، فلمعت لمعانا باهرا حقا ، بينما ذبل النوران التائهان ، وتضاءل بريقهما ، بغير أن يفقدا شيئا ولو قليلا من مرحهما واعتدال مزاجهما .

« ساظل ممتنة لكما الى الابد » قالت الحية هذه الكلمات بعد ان استعادت انفاسها اثر الاكلة الشهية واستطردت تقول : أطلبا مني ما تشاءان ! كل ما املكه اريد ان اقدمه لكما . » هتف النوران التائهان :

حسن جدا ! ، قولي ، اين تسكن الزنبقة الحسناء ؟ سيري بنا بأسرع ما يمكن الى قصر الزنبقة الحسناء وحديقتها . أن اشتياقنا الى ان نلقي بانفسنا عند اقدامها يكاد يهلكنا .

اجابت الحية بتنهدة عميقة : لست استطيع ان اقدم لكما هذه الخدمة في الحال . أن الزنبقة الحسناء تسكن على الجانب الاخر من الماء .

ـ على الجانب الاخر من الماء ؟ وندع العجوز يعبر بنا النهر في هذه الليلة العاصفة ؟

ما افظع النهر الذي يفرق الان بيننا ! اما من وسيلة لننادي بها العجوز من جديد ؟

ردت الحية قائلة : سوف تضيعان جهدكما سدى ، اذ انكما ولو قابلتماه على هذه الضفة ، فلن يأخذكما معه ، لقد سمح له ان ينقل كل احد الى هذا الشاطىء ، ولكن حرم عليه أن ينقل احدا الى الشاطىء الاخر .

ـ اذن فقد حبسنا انفسنا بايدينا ! اما من وسيلة نعبر بها الماء ؟

ـ بل هناك وسائل كثيرة ، ولكن ليس في هذه اللحظة . انا نفسي استطيع أن انقل السادة الى الضفة الاخرى ، ولكنني لن اقدر على ذلك قبل حلول ساعة الظهيرة .

ـ هذا وقت لا نميل الى السفر فيه .

ـ اذن ففي استطاعتكما اذا حل المساء ان تعبرا النهر فوق ظل العملاق » .

ـ كيف ذلك ؟

ـ ان العملاق العظيم ، الذي يسكن غير بعيد من هنا ، لا يقدر بجسده على شيء ، ان يديه لا تستطيعان ان ترفعا عود قش ، وكتفاه لا يقويان على حمل حزمة أرز ، ولكن ظله يستطيع ان يفعل الكثير ، بل يستطيع ان يفعل كل شيء . لذلك كان أشد ما يكون قوة عند شروق الشمس وغروبها ، وما على الانسان ، اذا حل المساء ، الا ان يجلس على رقبة ظله . وما هو الا ان يتجه العملاق في رفق ناحية الشاطىء ، وبذلك ينقل الظل المسافر الى الضفة الاخرى . اما اذا اردتما ان تحضرا في وقت الظهيرة عند ذلك الجانب من الغابة حيث يلتحم الدغل بالشاطىء ، فانني استطيع عندئذ ان انقلكما الى الشاطىء الاخر وان اقدمكما الى الزنبقة الحسناء ، اما اذا كنتما تشفقان على انفسكما من وهج الظهيرة، فما عليكما الا ان تزورا العملاق في ذلك الخليج الصخري عندما يقترب المساء ، ولا شك انه سيحسن ضيافتكما . »

وبانحناء طفيف ابتعد السيدان الشابان ، وسر الحية ان تتخلص منهما ، لكي يتاح لها من ناحية ان تبتهج بنورها ، وتشبع من ناحية اخرى رغبة عذبتها منذ امد طويل عذابا غريبا .

كانت قد اكتشفت اكتشافا عجيبا في موضع من الحفر الصخرية التي أعتادت من حين لاخر ان تزحف نيها . فعلى الرغم من انها كانت تضطر الى الزحف خلال هذه الحفر بغير نور يهديها ، فقد كان في استطاعتها ان تميز باحساسها بين الاشياء التي تقابلها ـ كان من عادتها الا تجد حيثما ذهبت غير منتجات طبيعية غير منتظمة ، فحينا تتلوى لتنفذ بين اطراف بلورات عظيمة مدببة ، وحينا تشعر بزوايا الفضة المترامية وشعراتها فتأخذ معها هذا الحجر الثمين أو ذاك الى النور . بيد انها كانت قد احست والدهشة العظيمة تستولي عليها في موضع صخري مغلق من كل ناحية باشياء تشي بيد لانسان المصورة ، جدران ملساء ، لا تستطيع أن تتسلق عليها ، حواف حادة منتظمة ، أعمدة بديعة الصنع ، واشكال بشرية اثارت فيها اشد العجب ، لفت جسدها مرارا حولها واعتقدت انها من نحاس أو مرمر مصقول بديع الصقل .

اشتهت أن تستجمع كل هذه التجارب مرة اخرى بحاسة العين فتتأكد مما لم يتيسر لها أن تعرفه الا بالتخمين . اعتقدت انها تستطيع الان بالضوء الذي يشع منها ان تنير هذا القبو السفلي العجيب ، ودأعبها الامل المفاجيء في أن تتعرف على هذه الاشياء الغريبة تعرفا تاما ، انطلقت تزحف على طريقتها المألوفة ، وسرعان ما عثرت على الشق الذي تعودت ان تتسلل منه الى المعبد المقدس .

لما وصلت الى المكان تلفتت حولها مدفوعة بحب الاستطلاع ، ومع ان الضوء المنبعث منها لم يكف لانارة كل الاشياء المنتشرة حولها ، فقد استطاعت ان ترى الاشياء القريبة منها رؤية واضحة .

تطلعت في رهبة ودهشة الى فجوة تلمع فوقها ، نصب فيها تمثال ملك جليل من الذهب الخالص .

كان التمثال يزيد في حجمه على حجم الانسان الطبيعي ، ولكنه بدا لها من ناحية الشكل اقرب الى أن يكون لرجل صغير السن منه لرجل ضخم عظيم . كان يلفح جسمه المتناسق معطف بسيط ، وتشد شعره باقة من ورق البلوط .

لم تكد الحية تبصر هذا التمثال الجليل حتى فتح الملك فمه بالكلام وسأل : ـ « من اين تأتين ؟ »

اجابت الحية : « من الحفر التي يسكنها الذهب . »

سأل الملك : « اي شيء اروع من الذهب ؟ »

فأجابت الحية : « النور »

عاد الملك يسأل : « اي شيء اعذب من النور ؟ »

فردت الحية : الحديث .

كانت في خلال هذا الحديث قد القت نظرة جانبية على الفجوة القريبة فابصرت صورة اخرى رائعة ، كان يجلس في هذه الفجوة ملك فضي ذو قوام طويل اقرب الى النحول ، وكان يغطي جسده رداء مزركش وتاج وحزام وصولجان مزين بالاحجار الثمينة ، وكان يظهر على وجهه مرح الكبرياء ، وبدا عليه انه يريد الكلام حين لمع على حين فجأة في الجدار المرمري عرق كان يتخلله بلون معتم ، وارسل في المعبد كله نورا بهيجا . ابصرت الحية الملك الثالث على هذا النور ، وكان ملكا من نحاس في هيئة تدل على البأس والسلطان ، استند على عجزه ، وزينت هامته باقة من الغار ، وبدا اشبه بصخر ، منه بانسان . ارادت الحية ان تلتفت الى الملك الرابع ، وكان يبدو على مسافة شديدة البعد عنها ، عندما انشق الجدار وانتفض العرق المضيء كالبرق الخاطف ثم اختفى.

لفت انتباه الحية رجل متوسط الحجم يخرج من الجدار .

كان يرتدي ملابس فلاح ، ويحمل في يده مصباحا صغيرا يطيب للمرء ان يتطلع الى شعلته الساكنة التي تغمر بنورها على نحو مدهش

جوانب المعبد الكنسي كله ، دون ان تلقى حولها ظلا واحدا .

«سأل الملك الذهبي : لم ابيت وعندنا نور ؟ »

ـ « تعلمون انه لا يجوز لي ان انير المعتم ! »

وسأل الملك الفضي : « هل تنتهي دولتي ؟ »

ورد العجوز : « في وقت متأخر او لن تنتهي »

وشرع الملك النحاسي يسأل في صوت قوي : « متى اوقف على قدمي ؟ »

اجاب العجوز : « قريبا . »

عاد الملك يسأل : « مع من ينبغي على ان اتحد ؟ »

قال العجوز : « مع اخوتك الكبار »

سأل الملك : « وماذا سيكون مصير الاخ الاصغر ؟ »

قال العجوز : « سوف يجلس » .

هتف الملك الرابع في صوت خشن : « لست متعبا »

بينما كان هؤلاء يتحدثون تسللت الحية في رفق ، وراحت تتجول في جنبات المعبد ، فتأملت كل شيء ، واخذت تتطلع الى الملك الرابع عن كثب . كان يقف مستندا الى احد الاعمدة ، وكان هيئته الشامخة اقرب الى الفظاظة منها الى الجمال ، غير انه كان عسيرا على المرء ان يميز المعدن الذي صب منه التمثال .

فاذا تأملته العين تأملا دقيقا ، تبين انه خليط من المعادن الثلاثة التي صب منها اخوته .

ولكن يبدو ان هذه المعادن الثلاثة لم تذب مع بعضها تماما عند صب التمثال ، فتخللت العروق الذهبية والفضية كتلة من المعدن الخام على غير انتظام ، مما جعل منظر التمثال لا تستريح له العين .

عندئذ سأل الملك الذهبي الرجل « كم من الاسرار تعرف ؟ »

فأجاب العجوز : « ثلاثة » .

سأله الملك الفضي : « وايها اهم ؟ »

فأجاب الملك الفضي : « السر المكشوف » .

سأل الملك النحاسي : « وهل تكشف لنا نحن ايضا عنه ؟ »

قال العجوز : « بمجرد أن أعرف الرابع » .

فدمدم الملك المركب من معادن مختلطة كأنه يكلم نفسه :

« وما شأني انا بهذا ! »

قالت الحية : « انا اعرف السر الرابع » .

واقتربت من العجوز ووشوشت شيئا في اذنه ـ هتف العجوز بصوت رهيب :

« لقد آن الاوان » !. وترددت اصداء الصوت في المعبد، ورنت التماثيل المعدنية ، وفي لحظة غاص العجوز ناحية الغرب ، والحية ناحية الشرق ، واسرع كلاهما يعبر الهاوية الصخرية لا يلوي على شيء.

امتلأت كل الدروب التي جابها العجوز في لمح البصر بالذهب ، ذلك ان مصباحه كان يمتلك خاصية عجيبة تجعله يحول كل الاحجار الى ذهب ، وكل خشب الى فضة ، والحيوانات الميتة الى احجار ثمينة ، كما تجعله يحيل جميع المعادن الى تراب ، وكان لا بد للمصباح ، لكي يفعل فعله هذا ، من ان ينفرد وحده بالانارة ، فاذا اشتعل نور اخر بجواره ، لم يصدر عنه سوى ظل جميل لامع ، فيشيع البهجة والانتعاش دائما في كل حي .

دخل العجوز كوخه الذي بناه فوق الجبل ، ووجد امرأته في هم شديد ـ كانت تجلس امام الموقد وتبكي ، ولا تستطيع ان تدخل الطمأنينة الى نفسها . هتفت بزوجها :

« ما اشقاني ! ما كنت اليوم اريد أن أتركك تغادر الكوخ ! » .

سألها العجوز في هدوء تام « ماذا جرى اذن ؟ »

قالت وهي تنشج بالبكاء : « ما كدت تخرج حتى جاء سائحان شرسا الطبع ، فوقفا امام الباب ، وبغير حذر مني تركتهما يدخلان ، فقد بدوا لي سيدين مهذبين ، لطيفين ، وكانا يتلفعان بهالتين خفيفتين ، مما يحمل على الظن بأنهما نوران تائهان ، وما كادا يدخلان البيت حتى شرعا يتملقاني بألفاظ وقحة ، ويبالغان في الحاحهما علي حتى لاخجل من مجرد التفكير فيهما » .

قال الرجل وهو يبتسم : « لا شك ان السيدين ارادا ان يمزحا معك ، فقد كان عليهما مراعاة لسنك ان يعاملاك بأدب كما يقضي بذلك العرف » .

هتفت المرأة قائلة : « ماذا ايها العجوز ! ايها العجوز ! هل علي دائما ان اسمعك تتحدث عن عمري ؟ وكم يبلغ عمري ! ذلك الادب الذي يقضي به العرف ! انني اعرف ما اعرف . تلفت حولك فحسب ، لترى كيف تبدو الجدران ، تطلع الى الاحجار القديمة ،التي لم ارها منذ مائة عام ، كل ما كان عليها من ذهب قد لعقاه ، ولا يمكنك ان تصدق بأي سرعة خاطفة فعلا ذلك ، واكدا دائما ان طعمه الذ بكثير من الذهب المعروف . وبعد ان مسحا ما على الجدران ، بدت عليهما الغبطة الشديدة ، والحق انهما اصبحا في وقت قصير ، اكبر بكثير مما كانا عليه ، واعرض ، واشد بريقا ، ثم اذا بهما يعودان الى مداعبتي ، فيتمسحان بي ، ويلقبانني ملكتهما ، وينفضان انفسهما ، فيتساقط قدر كبير من الذهب وما زلت ترى كيف يلتمع نورهما تحت الاريكة . ولكن واأسفاه ، التهم كلبنا الصغير السمين بعض قطع الذهب ، وها انت تراه يرقد ميتا عند الموقد ، يا للحيوان المسكين ! ما ابعد السرور عني ! انني لم اتبين ذلك الا بعد انصرافهما ، ولو عرفت لما وعدتهما بتسديد دينهما للمراكبي » .

سأل العجوز : « بأي شيء يدينان له ؟ »

قالت المرأة : « بثلاثة رؤوس قرنبيط ، وثلاث خرشوفات ، وثلاث بصلات ، لقد وعدتهما اذا اصبح الصباح ان احملها جميعا الى النهر .

قال العجوز : تستطيعين ان تصنعي فيهما هذا الجميل ، فسوف يردانه لنا في المستقبل .

ـ لا ادري ان كانا سيقدمان لنا خدماتهما ، ولكنني وعدتهما واقسمت على وعدي .

كانت نار الموقد في اثناء ذلك قد خمدت ، فأهال عليها العجوز

كثيرا من الرماد ، وجمع القطع الذهبية جانبا ، واذا بمصباحه الصغير يعود فيلمع من نفسه اجمل لمعان ، والجدران تكسوها طبقة من الذهب ، والكلب الصغير السمين يتحول الى اجمل حجر من العقيق ، لا يمكن ان يتصوره الانسان . وتبدلت الالوان على الحجر الثمين ، بين اللون البني واللون الاسود ، فجعلت منه تحفة فنية نادرة الوجود .

قال العجوز : خذي سلتك ، وضعي حجر العقيق فيها ، ثم خذي رؤوس القرنبيط الثلاثة ، والخرشوفات الثلاث ، والبصلات الثلاث ، فضعيها حولها ، واحملي الجميع الى النهر ! فاذا جاء وقت الظهيرة ، فاجعلي الحية تحملك الى الشاطىء الاخر ، وزوري الزنبقة الحسناء واعطيها حجر العقيق ! انها ستعيده حيا ! مثلما تميت بلمستها كل حي! وسوف تجد فيه صاحبا غاليا ، قولي لها : ان عليها الا تبتئس ، ان يوم خلاصها قد اقترب ، والشقاء العظيم تستطيع ان تعده سعادة عظيمة ، فقد آن الاوان » .

حزمت العجوز سلتها ، ومضت في طريقها عند طلوع النهار ، كانت الشمس المشرقة تسطع على صفحة النهر الذي كان يلمع من بعيد ، مضت العجوز في خطى متئدة ، فقد كانت السلة تضغط على رأسها ، لو لم يكن حجر العقيق هو الذي يرزح بثقله عليها . لم تحس بما كانت تحمله من اشياء ، بل لقد كانت السلة ترتفع الى اعلى وتطير فوق رأسها، ولكن حمل خضر طازجة او حيوان صغير حي كان ثقيلا عليها .

كانت قد مضت في طريقها بعض الوقت وهي تشعر بالضيق والملل، وعلى حين فجاة وقفت ساكنة مفزوعة ، فقد كادت تدوس على ظل العملاق، الذي كان يتمدد على الارض ، ويكاد يصل اليها .

ثم وقع بصرها على العملاق الجبار ، الذي كان يخرج من الماء بعد ان استحم في النهر . وتحيرت كيف تتحاشاه . لم يكد يراها حتى بدأ يحييها في مرح ، ثم مد يديه على الفور الى السلة فأخرجا في خفة ومهارة رأس قرنبيط ، وخرشوفة وبصلة ، وناولاها الى فم العملاق الذي تابع عندئذ رحلته النهرية ، وافسح للمرأة الطريق .

اخذت تسأل نفسها ان كان من الافضل ان تعود ادراجها فتحضر بدل القطع الناقصة من حديقتها ، ومضت بين هذه الشكوك التي تساورها الى الامام ، فسرعان ما بلغت ضفة النهر . لبثت طويلا تنتظر المراكبي حتى لمحته اخيرا يعبر النهر ومعه مسافر عجيب ، ونزل من المركب شاب نبيل ، جميل الطلعة ، لم تكد تشبع عينيها من النظر اليه .

نادى المراكبي الشيخ : ماذا تحضرين معك ؟ . اجابت العجوز وهي تشير الى بضاعتها :

انها الخضروات التي تدين لكم الانوار التائهة بها .

لما وجد الشيخ من كل صنف قطعتين فحسب ، استولى عليه الضيق ، واكد لها انه لا يستطيع ان يقبلها . وراحت العجوز تتوسل اليه في حرارة ، وتصف له كيف انها لا تستطيع ان تعود على الفور الى البيت ، وانه يشق عليها ان تقطع الطريق مرة اخرى والحمل الثقيل فوق رأسها ، بقي الشيخ مصرا على رفضه ، واخذ يؤكد لها ان الامر ليس بيده قائلا : علي ان اجمع نصيبي المستحق لي واتركه تسع ساعات، ولا يصح لي ان اقبل شيئاً حتى القي للنهر بثلثه . بعد اخذ ورد طويلين قال الشيخ اخيرا : ما زالت هناك وسيلة واحدة . اذا تعهدت للنهر وقبلت ان تعترفي له بدينك ، فاني على استعداد لان اخذ القطع الست ، ولكن هذا لا يخلو من خطر .

ـ واذا حافظت على كلمتي ، فهل يمنع ذلك الخطر عني ؟!

استطرد الشيخ قائلا :

ـ لن تتعرضي لاقل شيء ، اغمسي يدك في النهر ، واقطعي عهدا بأن توفي دينك في خلال اربع وعشرين ساعة » .

فعملت العجوز بما اشار عليها ، ولكن كم كانت دهشتها حين جذبت يدها من الماء فالفتها سوداء بلون الفحم ! اخذت توبخ العجوز توبيخا مرا ، تؤكد ان يديها كانتا دائما اجمل ما فيها ، وانها على الرغم من العمل الشاق قد عرفت دائما كيف تحافظ على بياض هذين العضوين النبيلين ورقتهما ، تطلعت الى اليد في ضيق شديد ، وهتفت في يأس مرير :

ان هذا لاسوأ ! «ارى انها تقلصت ، لقد صارت اصغر بكثير من اليد الاخرى . »

قال الشيخ : « انها الان تبدو كذلك فحسب ، ولكنك اذا لم تحافظي على كلمتك ، فقد يتحقق ما تخشين منه ، ستتقلص اليد شيئا فشيئا ، حتى تختفي في النهاية تماما ، بدون ان تحرمي من القدرة على استعمالها . سوف يكون في استطاعتك ان تقضي بها كل حوائجك ، ولكن لن يراها احد « قالت العجوز » وددت لو انني عجزت عن استعمالها ولم يلحظ احد عليها شيئا . ومع هذا فلا اهمية لذلك ، سوف احافظ على عهدي ، لكي اتخلص سريعا من هذا الجلد الاسود وهذا الهم الثقيل.

واسرعت تتأمل السلة التي ارتفعت من تلقاء نفسها فوق قمة رأسها وطارت حرة في الفضاء ، وعجلت من سيرها لتلحق بالشاب الذي كان يمضي على الشاطىء وديعا تائها في افكاره . كانت هيئته الرائعة وحلته العجيبة قد تركا في نفسها انطباعا عميقا .

كان يغطي صدره درع براق تتحرك من خلاله كل اجزاء جسده الجميل ، ويلفع كتفيه معطف قرمزي ، وعلى رأسه العاري تنمو خصلات جميلة من الشعر البني ، وكانت اشعة الشمس تلفح وجهه النقي الصبوح ، كما تلفح قدميه المتناسقتين . مضى يسير في اتزان على الرمل الساخن بقدميه العاريتين ، وبدا كأن الما عميقا يقيد كل انطباعاته الظاهرة ويخيم عليها .

حاولت العجوز الثرثارة ان تجذبه للحديث ، غير ان كلماته القليلة كانت تصدها دائما عنه ، حتى يئست اخيرا ، على الرغم من عينيه الجميلتين ، من محاولة الحديث بغير طائل ، فودعته قائلة :

انك يا سيدي تسير ببطء شديد ولا يجوز لي ان اترك هذه اللحظة تفلت مني حتى اعبر النهر على ظهر الحية الخضراء ، واقدم للزنبقة الحسناء الهدية الرائعة التي حملني لها زوجي .

القت هذه الكلمات وانطلقت مسرعة ، ولم تكد تصل الى سمع الشاب الجميل حتى اسرع يلاحقها وهو يهتف : « هل تذهبين الى الزنبقة الحسناء ؟ اذن فنحن نسير على درب واحد ، ما هذه الهدية التي تحملينها لها ؟ »

ردت المرأة قائلة : « لا يليق بك يا سيدي ، بعدما رفضت الاجابة على اسئلتي رفضا قاطعا ان تحاول التعرف على اسراري بهذا الاصرار فان قبلت ان تبادلني سراً بسر وقلت لي عن اقدار حياتك ، فلن اخفي عليك قصتي وقصة هديتي .. وكان ان اتفقا سريعا ، فروت له المرأة حكايتها واخبرته بحكاية الكلب وتركته يتأمل الهدية الرائعة .

مد الشاب يده فتناول التحفة الطبيعية من السلة واخذ الكلب الذي بدا كأنه استسلم لنوم هادىء وديع ، بين ذراعيه ، وهتف قائلا : ايها الحيوان السعيد ! سوف تلمسك يداها ، وسوف تعيدان اليك الحياة ، اما الاحياء فانهم يهربون منها ، خشية ان يصيبهم قدر حزين ولكن اي حزن تراني اتحدث عنه ؟ أليس ادعي للهم والحزن ان يصاب الانسان بالشلل اذا حضر امامها ، من ان يموت بلمسة من يدها ؟ ثم التفت الى العجوز قائلا :

انظري الي ، اي تعاسة كتب علي ان احتملها وانا في مثل هذه السن ! هذا الدرع الذي كنت احمله على صدري واحارب به في شرف، وهذا المعطف القرمزي الذي اردت بحكمي الرشيد ان اكون جديرا به لقد تركهما لي القدر عبئا ثقيلا احمله بغير داع ، وحلية سخيفة لا يلتفت اليها احد : التاج ، والصولجان ، والسيف ، ذهبت جميعا ، وانا بعد عار ومحتاج مثل سواي من ابناء الارض ، هكذا تصنع عيناها الجميلتان الزرقاوان فتسلبان كل كائن حي طاقة الحياة ، وتجعلان كل من لم تلمسه يدها لمسة الموت يشعر كأنه استحال الى شبح حي .

هكذا راح يرسل شكواه ، فلم يشبع بحال رغبة العجوز التي لم يكن يهمها ان تخبر باطنه بقدر ما كانت تريد ان تعرف ظاهره . لم تعرف منه اسم ابيه ولا اسم مملكته ، مسح بيده على الكلب المتحجر الذي

بدا كأن اشعة الشمس وصدر الشاب الدافيء قد غمراه بالدفء وبعثا فيه الحياة . اخذ يسأل ويطيل في السؤال عن الرجل ذي المصباح ، وعن اثار النور المقدس ، وبدا كأنه يعد نفسه من وراء ذلك كله خيرا كثيرا يستعين به على حاله البائسة .

وبينما هما في الحديث ، اذا بهما يبصران الجسر من بعيد يصل بين الشاطئين في هيئة قوس رائع الجمال ، يلتمع في أبهى صورة في وهج الشمس . ملكتهما الدهشة فلم يسبق لهما رؤية هذا البناء على هذه الصورة من الحسن والروعة هتف الامير قائلا :

ماذا ؟ الم يكن على درجة كافية من الجمال عندما مثل امام اعيننا كأنه بني من حجر اليشب ، والحجر اليماني الاخضر ؟ الا يجفل الانسان خوفا من ان يخطو بقدميه فوقه وهو يبدو كأنما ركب من الزمرد والزبرجد والياقوت في تنوع فتان ؟

لم يكن احد منهما يعلم بما جرى للحية ، لقد كانت هي التي تنصب نفسها في كل يوم عند الظهيرة ، فوق النهر وتظهر في هيئة جسر جريء البنيان . تقدم المسافران في اجلال ورهبة فعبراه صامتين .

ما كادا يبلغان الشاطيء الاخر حتى بدأ الجسر يخفق ويتحرك ، وما هي الا برهة قصيرة حتى لامس سطح الماء وبرزت الحية الخضراء في هيئتها الاصلية زاحفة على اليابسة لتلحق بالمسافرين — ما كادا ينتهيان من تقديم الشكر اليها على سماحها لهما بعبور النهر فوق ظهرها حتى احسا بانه لا بد ان يكون في صحبة ثلاثتهم اشخاص اخرون ، وان لم يستطيعوا ان يروهم رأي العين . تناهى الى سمعهم صوت فحيح ردت الحية عليه بفحيح مثله ، اصغوا بانتباه ، واستطاعوا اخيرا ان يميزوا هذه الكلمات التي راحت تتبادلها اصوات مشتركة في الحديث :

سوف نبدأ بالتجوال خفية في حديقة الزنبقة الحسناء فننظر فيها ، ونرجوكما عند مطلع النهار بمجرد ان تلمحا صورتنا ان تقدمانا الى الجمال الكامل . سوف تجداننا عند حافة البحيرة العظيمة اجابت الحية قائلة : « ليكن الامر كذلك » . وضاع صوت فحيح في الهواء .

تشاور مسافرونا الثلاثة فيما بينهم حول النظام الذي يمثلون به بين يدي الجميلة ، فمهما تعدد الاشخاص الذين يمكنهم ان يحيطوا بها ، فلم يكن يجوز لهم الا ان يأتوا وينصرفوا كل على حده حتى لا تصيبهم آلام حادة .

اقتربت المرأة التي تحمل الكلب المسوخ في سلتها من الحديقة وراحت تبحث عن ولية نعمتها التي كان من السهل عليها ان تجدها ، فقد كانت تغني على القيثارة ، والانغام الحبيبة التي تنساب منها تبدو في شكل حلقات تطوف على سطح البحيرة الساكنة ، وتحرك العشب والاغصان كأنها نسمات خفيفة . كانت تجلس في مكان مغلق مخضر ، في ظل مجموعة رائعة من اشجار مختلفة الاشكال ، يشع السحر منها من جديد ، فيفتن بصر العجوز ، وسمعها ، وقلبها ، فتدنو في نشوة منها ، وتحلف بينها وبين نفسها ان الجميلة في فترة غيابها عنها ، لم تزد الا جمالا ! ولم تنتظر المرأة الطيبة فنادت الحسناء الحبيبة من بعيد ، محيية مادحة :

« اي سعادة ان تراك عينا انسان ! اي سماء يبسطها وجودك من حولك ! يا لسحر القيثارة في حجرك ، وذراعيك تلتفان بها في حنان ! ما اجملها وهي تبدو كأنها تشتاق الى صدرك ، وما اعذب رنينها تحت لمسات اصابعك النحيلة ! سعدت ايها الشاب ثلاث مرات ، يا من قدر لك ان تحتل مكانها ! » بهذه الكلمات ازدادت منها اقترابا ، فتحت الزنبقة الحسناء عينيها وتركت يديها تسقطان وردت قائلة : لا تعكري صفوي بمديح يأتي في غير اوانه فما يزيدني قولك الا شعورا بتعاستي ، انظري عند قدمي ، ترى طائر الكناريا المسكين يرقد ميتا ، وهو الذي طالما صاحب اغاني بأحلى النغم . كان من عادته ان يجلس على قيثارتي ، وينصب قامته بحذر حتى لا يلامسني ، واليوم وانا ادندن باغنية الصباح الهادئة ، بعد ان صحوت منتعشة من النوم ، وبينما مغنيي الصغير يرسل الحانه المنسجمة في مرح لم يسبق اليه ، اذا بصقر ينطلق من فوق رأسي ، ويهرب الحيوان المسكين الصغير مفزوعا الى صدري ، فاشعر في نفس اللحظة بالاختلاجات الاخيرة لحياته التي تفارقه . حقا لقد اصابت اللص نظرتي ، فترنح هناك وسقط صريعا على الماء ، ولكن ماذا يفيدني الجزاء الذي لاقاه ! حبيبي مات ، وقبره ان يزيد الا من ضراوة الدغل المحزن في حديقتي .

هتفت المرأة وهي تجفف دمعة اثارتها حكاية الفتاة البائسة في عينيها : تشجعي ايتها الزنبقة الحسناء ! تماسكي ! زوجي العجوز كلفني ان اقول لك ان عليك ان تعتدلي في حزنك ، وان تري في الشقاء العظيم رسولا ينبيء بسعادة أعظم ، ذلك ان الاوان قد آن . واستطردت العجوز تقول : « حقا ما اعجب ما يحدث في العالم . انظري فحسب الى يدي، لتري كيف اصبحت سوداء ! حقا لقد صارت اصغر بكثير مما كانت عليه، لا بد ان اسرع قبل ان تختفي تماما ! لم كان علي أن احسن الى الانوار التائهة ، كم كان علي ان اقابل العملاق وان اغمس يدي في ماء النهر ؟ الا تستطيعين ان تعطيني رأس قرنبيط ، وخرشوفة ، وبصلة ؟ سوف احملها الى النهر ، فترتد يدي بيضاء كما كانت ، حتى لاكاد اضعها الى جانب يدك . »

— قد تجدين القرنبيط والبصل ، اما الخرشوف فسوف تبحثين عنه عبثا ، كل النباتات في بستاني الكبير لا تحمل زهرا ولا ثمرا ، ولكن كل نبتة اقطفها واضعها على قبر حبيب تخضر على الفور وتترعرع .

كل هذه المجموعات من الاشجار ، هذه الاعشاب البرية ، هذه المروج قد رأيتها للاسف وهي تنمو ، مظلات اشجار الصنوبر هذه ، سلات اشجار السرو ، الكتل الضخمة من اشجار البلوط والزان ، كلها كانت نبتات صغيرة ، اثرا محزنا من يدي غرست في ارض كانت من قبل عقيمة .

لم تنتبه العجوز كثيرا لهذا الكلام ، فقد كانت مشغولة بتأمل يدها التي كانت تزداد في وجود الزنبقة الجميلة سوادا ، فبدت كأنها تتضاءل بين لحظة واخرى . ارادت ان تتناول سلتها وتمضي مسرعة حين تنبهت الى انها نسيت اعز شيء جاءت من اجله . مدت يدها فاخرجت الكلب المسوخ من السلة ووضعته على العشب غير بعيد من الحسناء ، وخاطبتها قائلة : « زوجي يرسل لك هذا التذكار ، تعلمين انك تستطيعين ان تردي الحياة الى هذا الحجر الثمين بلمسة منك . يقينا سوف يسعدك الحيوان اللطيف الوفي ، والهم الذي يصيبني اذا تصورت انني سأفقده لن يخفف منه الا التفكير في انك انت التي ستملكينه . »

نظرت الزنبقة الحسناء الى الحيوان اللطيف نظرة مبتهجة لم تخل من الدهشة وقالت :

ان علامات كثيرة تأتي معا وتبعث في نفسي بعض الامل ، ولكن آه ! اليس ذلك مجرد وهم من اوهام طبيعتنا ، ان نصور لانفسنا ، حين يجتمع علينا الكثير من البؤس والشقاء ، ان الخير قد اقترب ؟.

ماذا تفيدني العلامات الكثيرة الطيبة ؟
موت الطائر ويد الصديقة السوداء ؟
والكلب الذي تحول الى حجر ثمين ، هل هناك ما يشبهه ؟
الم يبعث به المصباح الي ؟
بعيدة عن كل متعة عذبة يحظى بها البشر .
لا ارى الفا لنفسي غير الحزن والاكتئاب .
آه ! لم لا ارى المعبد على ضفة النهر .
آه ! لم تأخر بناء الجسر .

استمعت المرأة الطيبة نافدة الصبر الى هذا الغناء الذي صاحبته الزنبقة الحسناء بأعذب انغام قيثارتها ، وكان حريا ان يرسل النشوة الى كل من يستمع اليه . ارادت ان تستأذن في الانصراف حين عطلها وصول الحية الخضراء .

كانت الحية قد سمعت الاسطر الاخيرة من الاغنية فأسرعت تبث الثقة والاطمئنان في نفس الزنبقة الحسناء ، وهتفت قائلة : نبوءة الجسر قد تحققت ! ما عليك الا ان تسألي هذه المرأة الطيبة ، وستصف لك كيف يبدو القوس الان في صورة رائعة ، ما كان من قبل حجر يشب غير شفاف ، وما كان حجرا يمانيا اخضر فحسب ، لا ينفذ فيه النور الا عند

الحوافي ، قد صار الان حجرا ثمينا شفافا ، ما من برلنتي بلغ هذا الصفاء ، وما من زمرد فاق هذه الالوان الجميلة . »

قالت الزنبقة : « اهنئك على هذا ، ولكن اعذريني اذا كنت ارى ان النبوءة لم تتحقق . فعلى قوس الجسر المرتفع يستطيع المشاة وحدهم ان يسيروا ، بينما كان الوعد ان تتمكن الخيول والعربات والمسافرون من عبوره من الناحيتين ، الم يرد في النبوءة ذكر الاعمدة العظيمة التي تنبثق من النهر نفسه ؟ . » كانت العجوز تثبت عينيها على يدها ، فقطعت هذا الحديث واستأذنت في الانصراف فقالت الزنبقة الحسناء : « تريثي لحظة واحدة ، وخذي طائر الكناريا المسكين معك ! توسلي للمصباح ان يحوله الى حجر ترواباس جميل ، اريد ان ارد اليه الحياة بلمسة مني . اسرعي بقدر ما تستطيعين ! فلن تغيب الشمس حتى يدب الفساد الى جثمان الحيوان المسكين ، ويمزق الى الابد التناسق الجميل في هيئته . » وضعت العجوز الجثمان الصغير بين اوراق الشجر الرقيقة في السلة ومضت مسرعة .

استطردت الحية تصل الحديث المقطوع قائلة : « مهما يكن الامر نقد تم بناء المعبد . »

فردت الحسناء قائلة : « ولكنه لا يطل على النهر . »

قالت الحية : « ما زال يسكن في أعماق الارض ، لقد رأيت الملوك وتحدثت معهم . »

– ومتى يبعثون من رقادهم ؟ »

– سمعت الكلمات الكبيرة تتردد في المعبد : « لقد آن الاوان . »

عمت السعادة الصافية وجه الحسناء وقالت : ها انا اسمع اليوم الكلمات السعيدة للمرة الثانية متى يأتي اليوم الذي اسمعها فيه للمرة الثالثة ؟

نهضت واقفة ، واذا بغادة ساحرة تدلف قادمة من الدغل وتأخذ القيثارة ، من يدها ، وتبعتها غادة اخرى ضمت الكرسي العاجي المنقوش الذي كانت تجلس عليه الحسناء ، وتناولت المخدة الفضية تحت ذراعها . ثم ظهرت ثالثة كانت تحمل في يدها مظلة مطرزة باللؤلؤ وبدا عليها كأنها تنتظر اشارة من الحسناء لتعرف منها ان كانت تحتاج اليها لتصاحبها في نزهة قصيرة . كانت الغادات الثلاث من الحسن والرقة بما يعجز عن وصفه كل تعبير ، ومع ذلك فلم يزدن الزنبقة الا حسنا ، اذ كان على كل منهن ان تعترف بانها لا تستطيع بحال أن تقارن نفسها بها .

كانت الزنبقة الحسناء في اثناء ذلك ، تتأمل الكلب العجيب منشرحة الصدر ، انحنت عليه ولمسته ، فانطلق في نفس اللحظة يقفز امامها ! اخذ يتلفت حوله في مرح الى ولية نعمته يحييها اصدق تحية .

تناولته بين يديها ، وضمته الى صدرها ، وهتفت قائلة : « مرحبا بك ، مع انك لا تزال بارد الاعضاء ، ومع ان نصف حياة فحسب تختلج فيك ، فاني اقول لك : « سوف امنحك الحب في حنان ، وامرح معك في وداعة ، وامسح عليك كما يفعل الصديق ، واشدك الى صدري . ثم اطلقته من بين يديها ، وصرفته عنها ، وعادت تنادي عليه ، وتعابثه متلطفة ، وتتسلى معه في مرح وبراءة على العشب مرسلة النشوة في كل من يرى فرحتها ولا يملك الا ان يشاركها فيها ، مثلما فاض حزنها من لحظات قليلة من كل قلب فشاطرها فيها .

وصل الشاب الحزين فقطع هذه البهجة وهذا المرح الخلاب . دخل كما عرفناه من قبل ، ولكن بدا عليه كأن لفح الظهيرة قد زاده اجهادا ، كما بدا عليه في حضور المحبوبة كأنه يزداد شحوبا في كل لحظة ، كان يحمل الصقر على كفه وقد استراح عليها في هدوء وترك جناحيه تسقطان الى جانبه .

بادرته الزنبقة هاتفة : ليس من الصداقة في شيء ان تحضر معك هذا الحيوان الكريه وتضعه امام عيني ، هذا الوحش الذي قتل اليوم مغني الصغير . »

اجابها الشاب قائلا : « لا تعتبي على الطائر البائس ، بل وجهي التهمة الى نفسك والى القدر ، واذني لي ان اصاحب رفيق تعاستي . »

لم يكف الكلب خلال ذلك عن مداعبة الجميلة ، وراحت بدورها تعامل المحبوب الشفاف معاملة الصديق للصديق ، اخذت تدفعه بيديها لكي تبعده عنها ، ثم تجري نحوه لكي تعود فتجذبه اليها . كانت تحاول ان تمسك به حين يفلت منها ، وتطرده حين يحاول الالحاح على مداعبتها . اخذ الشاب يتطلع اليها صامتا وحنقه يزداد ، حتى اذا مدت يديها اخيرا فتناولت الحيوان المقيت الذي بدا له بشعا غاية البشاعة ، بين ذراعيها ، وضمته الى صدرها الناصع البياض ، ولثمت شفتاها السماويتان خيشومه الاسود ، نفد صبره كله وصاح في يأس مرير : هل يتحتم علي ، انا الذي حكم عليه القدر الحزين حكما قد يدوم الى الابد بفراقك ، بينما اعيش الى جوارك ، انا الذي فقدت بسببك كل شيء ، لا بل فقدت نفسي ، هل يتحتم علي ان اشهد بعيني كيف يثير مثل هذا المسخ المشوه السعادة فيك ، وكيف يأسر عاطفتك ويتمتع بضمك ؟ هل حكم علي ان اظل رائحا غاديا وان اقيس الدائرة المحزنة وانا اعبر النهر جيئة وذهابا ؟ لا ! فلم تزل تتقد في صدري شرارة من بسالتي القديمة! فلتشتعل في هذه اللحظة للمرة الاخيرة ! ان كانت الاحجار يباح لها ان تستريح على صدرك فلا تحول بدوري الى حجر ، وان كانت لمسة منك تميت ، فلامت بلمسة من يديك . »

لم يكد يفرغ من هذه الكلمات حتى صدرت عنه حركة عنيفة ، فطار الصقر من يده ، اما هو فاندفع يلقي بنفسه على الجميلة ، ومدت يديها تريد أن توقفه ، ولكن لمستها له كانت اسرع منها .

غاب عنه الوعي ، واحست والفزع يستولي عليها بالحمل الجميل الجميل يستقر على صدرها . اجفلت الى الوراء صارخة وسقط الشاب الطاهر من بين ذراعيها على الارض فاقد الحياة ..

كانت الكارثة قد وقعت ! وقفت الزنبقة الحلوة بلا حراك تحدق في جمود الى الجثمان الذي فارقته الروح ، شعرت كأن قلبها يتوقف في صدرها ، وكانت عيناها بلا دموع ، حاول الكلب عبثا ان يستدرجها الى مداعبته ، كان العالم كله في عينيها قد مات بموت صديقها ، لم يتلفت يأسها الاخرس يطلب المساعدة ، فلم تكن تدري كيف السبيل اليها .

غير ان الحية على العكس من ذلك زادت نشاطها ، بدا عليها كأنها تفكر في وسيلة للنجاة ، وساعدت حركاتها العجيبة حقا في ان تعطل النتائج المفزعة للكارثة لبعض الوقت على اقل تقدير . مددت جسدها الطري المتثنى في دائرة واسعة حول الجثمان ، وامسكت طرف ذيلها بأنيابها وبقيت راقدة في هدوء .

لم يمض وقت طويل حتى ظهرت احدى خادمات الزنبقة الجميلات تحمل الكرسي العاجي ، واخذت تلح على الجميلة باشاراتها الودودة حتى جلست .

وجاءت في اثرها الخادمة الثانية ، تحمل قناعا بلون النار فزينت به وجه سيدتها اكثر من ان تغطيه به ، اما الثالثة فناولتها القيثارة ، ولم تكد الزنبقة الحسناء تضغط الآلة الساحرة اليها وتضرب على اوتارها بعض النغمات حتى رجعت الخادمة الاولى تحمل في يدها مرآة ناصعة مستديرة ، جلست بها امام الجميلة وراحت تتلقف نظراتها وتعرض عليها اعذب صورة يمكن ان تقع عليها عين الانسان في الطبيعة . زاد الالم من جمالها ، والقناع من سحرها ، والقيثارة من رقتها وبمثل ما تمنى كل انسان ان تتبدل حالها الحزينة ، فقد ود لو يتشبث الى

الابد بصورتها كما تنعكس على المرآة .

راحت تتطلع في سكون الى المرآة ، وتنتزع من الاوتار انغاما مؤثرة، ويزداد عليها الالم فتردد الاوتار لوعتها في قوة ، وفتحت فمها مرة بعد مرة لتغني ، ولكن صوتها لم يطاوعها ، ثم سرعان ما ذاب حزنها في دموعها ، وامسكت فتاتان بذراعيها تعينانها ، وسقطت القيثارة من حجرها فتلقفتها الخادمة بسرعة وحملتها جانبا .

فحت الحية في صوت خفيض ولكنه مسموع : « من يحضر لنا الرجل ذا المصباح قبل ان تغيب الشمس ؟ »

تطلعت الفتيات الى بعضهن وانهمرت دموع الزنبقة ، وفي هذه اللحظة رجعت المرأة ذات السلة لاهثة الانفاس ، اخذت تصيح : لقد ضعت وشوهت ! انظرن كيف اوشكت يدي ان تختفي ، لا الملاح ولا العملاق قبل ان يعبر بي النهر ، لانني ما زلت مدينة للنهر ، عبثا حاولت ان اقدم لهما مائة رأس قرنبيط ومائة خرشوفة . انهما لا يريدان اكثر من الثمار الثلاث ، وما من حرشوفة واحدة استطيع العثور عليها في هذه الناحية ، قالت الحية : انسي ما اصابك من هم ، وحاولي الان ان تعاونينا فقد يكون في ذلك العون لك ايضا . اسرعي بقدر ما تستطيعين ففتشي عن النورين التائهين . ما زال ضوء النهار يحول دون رؤيتهما ، ولكنك ربما سمعتهما يضحكان ويتداعبان . انهما ان اسرعا فسوف يعبر العملاق بهما النهر وحينئذ يستطيعان ان يجدا الرجل ذا المصباح ويرسلاه الينا .

اسرعت المرأة بقدر ما استطاعت ، وبدا على الحية كما بدا على الزنبقة أنهما ينتظران عودة العجوز والمصباح بفارغ الصبر . غير ان شعاع الشمس الغاربة كان قد كسا للاسف اعلى قمم الاشجار في الدغل الكثيف ، كما تمددت الظلال الطويلة فوق البحيرة والدغل ، تململت الحية نافدة الصبر ، وانهمرت دموع الزنبقة .

تلفتت الحية حولها في هذه المحنة ، فقد خشيت ان تغيب الشمس بين لحظة واخرى ، وينفذ الفساد الى الدائرة السحرية فيعاجل الشاب الجميل بغير ابطاء ـ واخيرا لمحت الصقر يخفق ريشه الاحمر القرمزي في الاعالي ويتلقى بصدره اشعة الشمس الاخيرة ، اخذت تمني نفسها فرحة بالفأل الطيب ، ولم تخدع نفسها ، فما هي الا لحظات قصيرة حتى ظهر الرجل ذو المصباح يتقدم عابرا البحيرة ، وكأنه يتزحلق على الجليد.

لم تغير الحية من موضعها ، ولكن الزنبقة نهضت واقفة ونادت عليه قائلة :

اي روح طيب بعث بك في هذه اللحظة التي نتلمسك فيها ونحتاج اليك اشد الاحتياج ؟

اجابها العجوز قائلا : ان روح مصباحي هو الذي يدفعني ، والصقر هو الذي يسوقني الى هذا المكان ، حين يحتاجني احد يتلألأ المصباح ، واتلفت حولي افتش في الاجواء المحيطة بي عن علامة ، فاذا بطائر او شهاب يدلني على الاتجاه الذي يكون علي ان اسير فيه ، اهدئي يا اجمل الفتيات ، لست ادري ان كان في مقدوري ان اساعدك ، ان الانسان بمفرده لا يملك العون ، ولكن يملكه من يتحد مع غيره في الساعة المناسبة. لندع الامر يسير في مجراه ، ولنتذرع بالرجاء ، « حافظي على ان تبقي دائرتك مغلقة . » قال العجوز ذلك موجها كلامه الى الحية ، وجلس على مرتفع من الارض بجانبها وسلط نور مصباحه على الجسد الميت . ثم قال موجها حديثه للفتيات :

احضرن كذلك طائر الكناريا وضعنه في الدائرة ! « فعلت الفتيات كما قال العجوز ، فتناولن الجثمان الصغير من السلة التي تركتها العجوز في مكانها .

كانت الشمس في اثناء ذلك قد افلت ، وحين تراكم الظلام لم تبدأ الحية ومصباح الرجل في ارسال ضوئهما كل على طريقته فحسب، بل ان قناع الزنبقة راح يشع نورا رقيقا كأنه شفق ناعم لون وجنتيها الشاحبتين وثوبها الناصع بفتنة ساحرة لا سبيل الى وصفها . تأمل الحاضرون بعضهم في صمت ، وهدأ الرجاء اليقين من الهم واللوعة .

من اجل ذلك كان مما يدعو الى السرور ان تظهر المرأة العجوز في صحبة الشعلتين المضيئتين ،اللتين بدا عليهما انهما قد بذرا من ضوئهما تبذيرا شديدا حقا ، اذ ظهرا نحيلتين شديدتي النحول ، وان لم يزدهما ذلك الا لطفا في معاملة الامير وبقية النساء ، اخذا يتكلمان في ثقة تامة ، وبصوت معبر عن امور عادية ، وبدا عليهما بوجه خاص انهما مأخوذان بالسحر الذي كان ينشره القناع المنير على الزنبقة وصاحباتها ، خفضت النساء ابصارهن في تواضع ، وزادهن اطراء الجمال جمالا .

كان الجميع مغتبطين هادئين ما خلا العجوز : فعلى الرغم من تأكيد زوجها لها ، بأن يدها لا يمكن ان تتقلص اكثر مما هي عليه طالما كان ضوء مصباحه يسطع عليها ، فقد راحت تكرر وتعيد زاعمة ان الحال لو استمر على ما هو عليه لاختفى هذا العضو النبيل قبل ان ينتصف الليل .

انصت العجوز ذو المصباح الى حديث النورين التائهين في انتباه وسره ان شغل الزنبقة عن همها واعاد اليها مرحها . كان الليل قد انتصف حقا ، ولم يدر احد كيف تطلع العجوز الى النجوم وشرع يقول :

« ها هي الساعة السعيدة تجمعنا ، فليقم كل بعمله ، وليؤد واجبه ، وسوف تذيب السعادة المشتركة الآلام واحدا واحدا ، كما يلتهم الشقاء المشترك الافراح كلا على حدة . »

بعد ان انتهى العجوز من القاء هذه الكلمات سمع خليط عجيب من الاصوات ، فقد اخذ كل واحد من الحاضرين يكلم نفسه ، وينطق بصوت عال بما عليه ان يفعل ، ما خلا الفتيات الثلاث فقد خيم عليهن الصمت ، كانت احداهن قد غلب عليها النوم بجانب القيثارة ، والاخرى بجانب المظلة ، والثالثة بجوار الكرسي ، ولم يكن لاحد أن يلومهن ، فقد كان الوقت متأخرا ، اما الصبيان المشتعلان فبعد أن غمرا الجميع بمظاهر الادب العابرة ، التي لم يجرما الخادمات ايضا منها ، فقد انصرفا اخيرا بكليتهما الى الزنبقة وحدها التي كانت اروعهن جمالا .

قال العجوز للصقر : امسك بالمرآة ، وبشعاع الشمس الاول انر النائمات وايقظهن بنور مرتد من الاعالي !

بدأت الحية تحرك نفسها ، ففكت الدائرة المغلقة وراحت تزحف زحفا بطيئا في حلقات كبيرة نحو النهر . تبعها النوران التائهان في احتفال ، حتى ليحسبهما الانسان اكثر الشعلات جدا ووقارا ، وامسكت العجوز وزوجها بالسلة التي لم يكد احد حتى الان يلاحظ النور الرقيق المنبعث منها ، وتناولاها من طرفيها ، وهي تزداد بين ايديهما بهاء ، وتكبر شيئا فشيئا ، ورفعا جثمان الشاب ، ومدداه فيها ووضعا طائر الكناريا على صدره ، ارتفعت السلة في الفضاء واخذت ترف فوق رأس العجوز التي سارت في اثر النورين التائهين ، فتناولت الزنبقة الحسناء الكلب فوضعته على ذراعيها . وتبعت العجوز ، اما الرجل ذو المصباح فسار في المؤخرة من الموكب ، وغمرت هذه الاضواء كلها الناحية فنورتها بنور ساطع غريب ، ولكن لم يقل عجب هذه الجماعة من المسافرين عندما وصلت الى النهر فأبصرت قوسا رائعا يمتد فوقه ، عبدت الحية به طريقا مضيئا .

واذا كانوا قد اعجبوا في مطلع النهار بالاحجار الثمينة الشفافةالتي بدا كأن الجسر صنع منها ، فقد تملكتهم الدهشة في الليل وهم يتأملون روعتها الباهرة السناء .

حف الجانب العلوي من الدائرة الساطعة بالسماء المعتمة ، اما في ناحيتها السفلى فقد اختلجت اشعة متدفقة بالحيوية في اتجاه المركز فاوضحت الثبات المتحرك للبناء .

عبر الموكب في بطء على الجسر ، واطل المراكبي من كوخه على البعد يتأمل في دهشة الدائرة الساطعة والانوار العجيبة التي تعبرها.

لم يكد الموكب يصل الى الضفة الاخرى من النهر حتى بدأ القوس يتأرجح على طريقته وينعطف انعطاف الامواج ناحية النهر ، وسرعان ما زحفت الحية على اليابسة ، وهبطت السلة على الارض فعادت الحية فطوقتها بدائرتها ، انحنى العجوز امامها وقال : « ماذا قررت ان تصنعي » ؟ فاجابت الحية : « ان اضحي بنفسي قبل ان يضحى بي ، عدني بأنك لن تترك حجرا واحدا على اليابسة . »

وعد العجوز بما قالت ثم خاطب الزنبقة الحسناء قائلا : « المسي الحية بيسراك وحبيبك بيمناك .

ركعت الزنبقة ومدت يدها فلمست الحية والجثمان ، الذي بدا عليه انه ينتقل في نفس اللحظة الى الحياة ، ثم اخذ يتحرك في السلة، بل انتصب في جلسته وجلس ، ارادت الزنبقة ان تعانقه ولكن العجوز منعها من ذلك ، واتجه الى الشاب يعينه على النهوض ، واخذ بيده فخرج من السلة ومن الدائرة .

نهض الشاب واقفا ، ورف طائر الكناريا فوق كتفه ، كانت الحياة قد دبت فيهما ، ولكن الروح لم تكن قد عادت اليهما، كان الصديق الجميل مفتوح العينين ، ولكنه لم يكن يرى شيئا ، او كان يبدو عليه على الاقل كأنه ينظر حوله بغير ان يشارك في شيء مما يرى ، ولم يكد عجب الحاضرين من ذلك يخف قليلا حتى لاحظوا التغير العجيب الذي طرأ على الحية . كان جسدها الجميل النحيل قد تفتت الى الاف والاف من الاحجار الثمينة المضيئة ، لم تحترس العجوز التي ارادت أن تمد يدها الى السلة فاصطدمت بها ، ولم يعد احد يرى شيئا من بقية الحية ،فلم يبق منها غير دائرة جميلة من الاحجار البراقة ملقاة بين الاعشاب .

شرع العجوز على الفور في جمع الاحجار في السلة ، وكان على زوجته ان تساعده في ذلك . حملا السلة الى الشاطىء ، فوضعاها في مكان مرتفع ، وافرغ الرجل الحمل كله في النهر ، ولم يبرأ من معارضة الزنبقة الحسناء وزوجته اللتين ودتا لو تستطيعان اختيار شيء منها لانفسهما . سبحت الاحجار مع الامواج كأنها نجوم لامعة براقة ، ولم يكن احد يستطيع أن يتبين أن كانت قد ضاعت مع التيار او سقطت في قاع النهر .

قال العجوز في خشوع موجها حديثه للنورين التائهين : سادتي ! الان اريد ان اريكما الطريق وافتح لكما الدرب ، ولكنكما تسديان الينا خدمة عظيمة ان فتحتما لنا بوابة المعبد المقدس ، التي يتحتم علينا الان ان ندخل منها ، والتي لا يستطيع احد غيركما ان يفتحها .

انحنى النوران التائهان انحناءة مهذبة ولبثا في مكانهما . وتقدم العجوز ذو المصباح الى الصخر فانفتح له . لحق الشاب به على الفور في حركة آلية ، وبقيت الزنبقة على بعد قليل منه هادئة غير واثقة من نفسها ، اما العجوز فلم يشأ ان تتخلف ومدت يدها لكي يتسنى للنور المنبعث من مصباح زوجها ان يقع عليها . وسار النوران التائهان في مؤخرة الموكب ، ومالت اطراف شعلتيهما الى بعضها فبدا عليها كأنهما مستغرقان في الحديث .

لم يكن قد طال بهم السير حين الفى الموكب نفسه امام باب عظيم صنع من الحديد ، واغلق جناحاه بقفل ذهبي . نادى العجوز على النورين التائهين ، ولم يكونا في حاجة لمن يدعوهما الى العمل ، فقد اقبلا على القفل والمزلاج يلتهمانهما بشعلتهما ذات الاطراف الحادة .

رن صوت المعدن عاليا حين انفتحت البوابات في سرعة مذهلة ، وظهرت تماثيل الملوك ذات الجلال وقد غمرتها الانوار التي سقطت عليها. احنى الحاضرون رؤوسهم امام الملوك الاجلاء ولم يقصر النوران التائهان ايضا في تقديم انحناءاتهما العجيبة المنثنية .

مرت فترة من السكون قبل ان يسأل الملك الذهبي :

ـ من اين تأتون ؟

اجاب العجوز : من العالم ! ...

سأل الملك الفضي : والى اين تذهبون ؟

فقال العجوز : الى العالم !

سأل الملك الحديدي : ماذا تطلبون عندنا ؟

اجاب العجوز : « ان نكون في صحبتكم » .

اراد الملك المختلط ان يبدأ الكلام حين سمع الملك الذهبي يقول للنورين التائهين اللذين اقتربا منه اقترابا شديدا : « ابتعدا عني ! ان ذهبي لم يخلق لحلوقكم ! »

فما كان منهما الا ان اتجها ناحية الملك الذهبي والتصقا به والتمع رداؤه بالنور الاصفر المنعكس منهما التماعا جميلا وقال : مرحبا بكما ، وان كنت لا استطيع ان اطعمكما ، اشبعا بطونكما عند غيري ثم احضرا لي نوركما ! »

ابتعدا عنه وتسللا مختفيين من جانب الملك الحديدي ، الذي لم يبد عليه انه انتبه اليهما وذهبا الى الملك المركب من معادن مختلطة ، هتف بهما الملك في صوت متلعثم :

ـ من الذي سيحكم العالم ؟

فاجاب العجوز قائلا :

ـ الذي يقف على قدميه .

قال الملك المختلط : ـ انا هو الحاكم !

قال العجوز : سوف يتضح الامر عما قريب ، لان الاوان قد آن .

القت الزنبقة الحسناء بنفسها على العجوز فطوقت رقبته بذراعيها وقبلته قبلة صادقة حارة ، قالت له : ـ يا ابي المقدس ، الف مرة اشكرك ، فها انا اسمع الكلمة الموحية للمرة الثالثة .

ولم تكد تنتهي من حديثها حتى وجدت نفسها تزداد تشبثا بالعجوز، فقد بدت ألارض تهتز من تحتها ، والتحم العجوز والشاب ببعضهما ، اما النوران التائهان المندفقان حركة فلم يفطنا الى شيء .

احس الحاضرون احساسا واضحا بان المعبد يتحرك كله كسفينة تبتعد رويدا رويدا عن الميناء حين تفك مراسيها ، وبدا كأن اعماق الارض تتفتح امامه ليشق طريقه فيها .

لم يصطدم بشيء ، لم يقف شيء في طريقه .

مرت لحظات قليلة خيل فيها للحاضرين كأن رذاذا خفيفا يتقطر من كوة في القبة ، ضم العجوز الزنبقة الحسناء اليه وقال لها : « نحن الان تحت النهر ، ونوشك ان نبلغ الهدف » انقضت لحظات حسبوا فيها انهم ثابتون في مكانهم ، ولكنهم كانوا مخطئين ، فقد كان المعبد يرتفع الى اعلى .

سمعوا ضجة غريبة فوقهم ، وراحت الواح وعروق من الخشب تنهال على رؤوسهم في صخب واختلاط من كوة القبة . قفزت الزنبقة والعجوز جانبا ، وتشبث الرجل ذو المصباح بالشاب ولم يبرح مكانه. سقط كوخ المراكبي الصغير ـ فقد كان هذا الكوخ هو ما اقتلعه المعبد من الارض وحمله معه عند ارتفاعه ـ شيئا فشيئا .

تعالت صيحات النساء ، وارتج المعبد كالسفينة التي ترتطم باليابسة ، اخذت النساء تهيم في الغسق طائفات حول الكوخ ، كان الباب مغلقا ، ولم يستجب احد لطرقاتهن ، اشتد طرقهن عنفا ، ولم يقل عجبهن حين انتهى الى سمعهن رنين ينبعث من الخشب ، كان الكوخ قد تحول بفضل المصباح المحبوس فيه الى فضة تتلألأ من الداخل الى الخارج.

ولم يمض وقت طويل حتى تحول شكل الكوخ نفسه ، فقد فارق المعدن الكريه الصور العارضة للالواح والاعمدة والقوائم الخشبية ، وتمدد فصار مبنى رائعا من المعدن المطروق . وهكذا نشأ معبد رائع صغير في وسط المعبد الكبير ، او ان شئنا فمذبح جدير بجلال المعبد .

ارتقى الشاب النبيل درجات سلم يرتفع من الداخل ، وانار له الرجل ذو المصباح الطريق وبدا كأن رجلا اخر يساعده على الصعود ، ويرتدي ثوبا ناصعا قصيرا ويحمل في يده مجدافا من الفضة ، عرف فيه الحاضرون المراكبي ، ذلك الساكن القديم للكوخ المتحول .

صعدت الزنبقة الحسناء الدرجات المتطرفة التي تؤدي من المعبد الى المذبح ، وكان ما يزال عليها ان تظل بعيدة عن حبيبها . وهتفت العجوز التي كانت يدها تتضاءل شيئا فشيئا ما بقي المصباح في مخبئه : هل كتب علي ان ابقى شقية ؟ اليست هناك معجزة تنقذ يدي من بين هذه المعجزات الكثيرة ؟ اشار زوجها للباب المفتوح وقال :

ـ انظري ! ان النهار يطلع ، اسرعي واستحمي في النهر ! ..

صاحت قائلة : يا لها من نصيحة ! اذن فقد قدر لي ان اصبح سوداء فاحمة السواد وان اختفي تماما من الوجود ، انني لم اقم بسداد ديني !

قال العجوز : « اذهبي واتبعيني . كل الديون قد سددت . »

هرولت العجوز مسرعة ، ولاح نور الشمس المشرقة في نفس اللحظة

يجلل هامة القبة ، تقدم العجوز فوقف بين الشاب والعذراء ونـــادى بصوت مرتفع .

ـ ثلاثة يحكمون الارض : الحكمة ، والمظهر ، والسلطان .

انتصب الملك الذهبي عند سماعه الكلمة الاولى ، والملك الفضي عند سماعه الثانية ، وسمع الملك الحديدي الكلمة الثالثة فنهض يتحامل على نفسه في بطء .

بينما جلس الملك المختلط فجاة بطريقة خلت من كل حذق حتى ان كل من رآه لم يملك ان يمنع نفسه من الضحك ، ذلك انه لم يكن يجلس ، ولم يكن يرقد ، ولم يكن يستند الى شيء بل انهار منكمشـــا على نفسه .

تنحى النوران التائهان جانبا ، وكانا طوال الوقت عاكفين عليــه مشغولين به .

وبالرغم من شحوبهما في ضوء المصباح ، فقد بدت شعلتهما ناضرة حية ، كانت السنتهما الحادة المدببة قد امتدت في براعة الى العـروق الذهبية المنتشرة في التمثال الهائل فلعقتها ، واوغلت في صميمها،بقيت الفراغات غير المنتظمة الناتجة عن ذلك مفتوحة بعض الوقت ، كمـا بقـي الشكل العام على هيئته السابقة . حتى اذا التهمت الالسنة الحـادة العروق المتناهية في الدقة انهار التمثال كله مرة وحدة ، كان انهيـاره مع الاسف في تلك المواضع التي تبقى عادة على حالها عند الجلوس ، اما المفاصل ، التي كان ينتظر ان تنثني فقد بقيت على العكس من ذلك متصلبة . كل من لم يقو على الضحك اضطر الى ان يحول عينيه بعيدا، فقد كان مما يؤذي العين ان ترى شيئا وسطا بين الشكل المنسق ، والكومة المتكورة .

هبط الرجل ذو المصباح درجات المذبح وتقدم الشاب الجميـل الذي ما لبث يتطلع جامد العينين امامه متجها بها الى الملك الحديدي.

كان هناك سيف ملقى عند قدمي الامير الجبار في غمده الحديدي، فمد يده وتحزم به . صاح به الملك الجبار : ضع السيف في يسراك، ودع يمناك حرة طليقة ! » .

ثم ذهب الى الملك الفضي الذي ادنى صولجانه من الشاب،فقبض عليه بيسراه وقال له الملك في صوت عذب : « ارع الاغنام ! » .

فلما جاء الى الملك الذهبي مد هذا يده الابوية يبارك بها الشاب ويضع على رأسه اكليلا من اوراق شجر البلوط وقال : « اعرف اعلى الموجودات ! »

كان العجوز أثناء هذه الجولة يراقب الشاب مراقبة دقيقة، فما ان تحزم السيف حتى ارتفع صدره ، وتحرك ذراعاه ، وازدادت خطواته صلابة ، وما ان امسك الصولجان بيده حتى بدا كأن قوته قد وهنت، وكأن سحرا لا سبيل الى وصفه قد زادها مع ذلك بأسا وقوة ، حتى اذا زان اكليل البلوط خصلات شعره ، فاضت الحيوية على مـلامح وجهه ، ولمعت عيناه بروحانية لا يمكن التعبير عنها ، وكانت اول كلمـة نطق بها فمه « زنبقة ! يا حبيبتي الزنبقة ! » هتف بهذه الكلمات وهو يصعد الدرجات الفضية مسرعا الى لقائها ، فقد كانت قد تابعت رحلتـه من شرفة المذبح : « ايتها الزنبقة يا حبيبتي ! ماذا يستطيع الرجـل الذي انعمت عليه الطبيعة بكل شيء ان يشتهي لنفسه اعذب من البراءة والانعطاف الوديع اللذين يحتويهما صدرك ؟ » ثم اتجه الى العجـوز وتأمل التماثيل الثلاثة المقدسة واستطرد يقول : آه يا صديقي ؟رائعة، ومأمونة هي مملكة ابائنا ، ولكنك نسيت القوة الرابعة ، التي هي اسبق منها جميعا في حكم العالم ، واعم وابعد يقينا : « قوة الحب » . قال ذلك والقى بنفسه على الحسناء فطوق رقبتها ، كانت قد نزعت القناع والقته بعيدا عنها ، ولونت خديها حمرة فاتنة باقية الجمال .

اجاب العجوز مبتسما : « الحب لا يحكم ، بل يربي ، وهذا اكثر.»

لم ينتبه الحاضرون في غمرة الاحتفال والسعادة والنشوة الـى وضوح النهار ، فاذا بابصارهم تقع ـ عبر الباب المفتوح على اشيـاء لم يتوقعوها . رأوا فناء عظيما تحيط به الاعمدة وفي نهايته جسر طويل رائع البهاء يمتد على النهر باقواسه الكثيرة ، وعلى جانبيه ممـران يصطفان بالاعمدة اعدا لنزهة العابرين فوقه اعدادا مريحا اخاذا وكـم من الوف منهم دأبوا على العبور عليه جيئة وذهابا . كان الطريق الطويل في منتصفه يمتلىء بالقطعان والبغال ، بالخيالة والعربات التي ازدحمت على جانبيه ، وراحت تنساب انسياب النهر هنا وهناك بغير ان تعـوق بعضها البعض عن السير . كان يبدو عليهم جميعا كانهم مأخوذون بالروعة والنزق من حولهم ، واسعد الملك الجديد وزوجته رؤية الحياة والنشاط تدب في هذا الشعب العظيم بمقدار ما اسعدهما حبهما المتبادل .

قال الرجل ذو المصباح : « اكرم ذكرى الحية ! انك مدين لهـــا بالحياة ، كما تدين شعوبك لها بالجسر الذي جعل من هذين الشاطئين المتجاورين بلدين تدب فيهما الحياة ، وربط بينهما . تلك الاحجـــار الثمينة التي تسبح براقة على النهر هي بقايا جسدها الذي ضحت به ، وهي اعمدة هذا الجسر الرائع ، لقد بني عليها وسيحتفظ ببنائـــه فـــوقها . »

اراد الحاضرون ان يسألوه ان يكشف لهم هذا السر العجيب حين دلفت اربع فتيات حسان من باب المعبد .

فعرف الحاضرون فيهن على رفيقات الزنبقة من القيثارة والمظلـة والكرسي ، اما الحسناء الرابعة المجهولة التي فاقت الثلاث جمالا ، فقد دخلت من الباب بسرعة وهي تمرح بينهن مرحا اخويا ، ثم صعـدت السلالم الفضية .

قال الرجل ذو المصباح للحسناء : « هل ستصدقينني في المستقبل، يا زوجتي العزيزة ؟ طوبى لك ولكل مخلوق يستحم في هذا الصباح في ماء النهـر ! »

اقبلت العجوز التي ارتد اليها شبابها وجمالها ، والتي لم يبق لخلقتها السابقة اي اثر على الرجل ذي المصباح فضمته بذراعين شابتين متدفقتين بالحياة ، فتقبل عناقها مسرورا وقال لها وهو يبتسم : ان رأيت انني عجوز بالنسبة لك ، ففي استطاعتك ان تختاري لك زوجـا اخر ، لن يصح من اليوم زواج الا اذا انعقدت اواصره من جديد . »

اجابت قائلة : « الا تدري انك انت ايضا اصبحت شابا ؟ يسرني ان ابدو لعينيك الشابتين في مظهر الفتى المقدام ، وها انا آخذ يدك من جديد ، سعيدا بأن اعيش معك الالف عام المقبلة . »

رحبت الملكة بصديقتها الجديدة ، وهبطت معها درجات المذبح ، تصحبها رفيقاتها الاخر ، بينما راح الملك الذي توسط الرجلين ، يتأمل مواكب الشعب المصطخبة في انتباه .

ولكن فرحته لم تدم طويلا ، فقد رأى ما بعث الضجر في نفسه ، كان العملاق الكبير ، الذي بدا عليه انه لم يفق من نوم الصباح تماما ،

يتمايل قادما الى الجسر ، وينشر الاضطراب العظيم من حوله ، كان قد نهض في سكرة النوم كعادته يريد ان يستحم في خليج النهر الذي يعرفه، فلم يجد في مكانهما الا اليابسة ، ومضى يخبط على الرصيف العريض، ومع انه مرق بين البشر والبهائم فلا حنق او تدبر ، فقد ادهش الجميع وجوده وان لم يشعر به احد ، فلما انعكست الشمس على عينيه ورفع يديه ليمسحهما بهما ، اخذ ظل قبضتيه الجبار يتقلب هنا وهناك في قوة واضطراب بين الجماهير حتى تدافعت حشود الناس والحيوانات ، فاصطدمت ببعضها ، واصابها الاذى وتعرضت لخطر السقوط في النهر.

عندما رأى الملك هذا الفعل البشع امتدت يده بحركة غير مقصودة لتقبض على السيف ، ثم ما لبث ان تروى واخذ ينظر الى صولجانه ثم الى المصباح والمجداف في يد رفيقيه . قال الرجل ذو المصباح : « انني احدس بما يدور في خاطرك ، ولكننا وكل ما في طاقتنا من قوة عاجزون عن مواجهة هذا العاجز . تذرع بالهدوء ! فهذه هي المرة الاخيرة التي يؤذينا فيها ومن حسن الحظ ان ظله قد ارتد عنا » .

اقترب العملاق في اثناء ذلك اقترابا شديدا ، واصابه الذهول مما رآه بعينين مفتوحتين فترك يديه تسقطان ، ولم يعد يؤذي احدا ، واتجه مدهوشا الى الفناء الامامي . اتجه مباشرة نحو باب المعبد ، واذا به يجمد فجأة في منتصف الفناء ويتصلب في مكانه تمثالا ضخما هائلا من الحجر الاحمر اللامع ، يشير ظله الى الساعات التي رصعت من حوله في دائرة على الارض ، لا في شكل اعداد بل على هيئة صور نبيلة دالة المعاني .

لم تكن فرحة الملك قليلة وهو يشاهد ظل العملاق الهائل يتجه وجهة نافعة ، ولم يكن عجب الملكة قليلا وهي تصعد في ابهى زينتها الى المذبح ، والعذارى في رفقتها ، فاذا بها تلمح التمثال الغريب الذي كاد يحجب الرؤية من المعبد الى الجسر .

كان الشعب في اثناء ذلك قد تدافع نحو العملاق الساكن في مكانه ، فاحاط به من كل جانب واخذ يتطلع مدهوشا الى التحول الذي طرأ عليه ومن هناك اتجهت الجماهير بابصارها الى المعبد الذي كان يبدو عليها كأنها تراه لاول مرة ، وتدفقت مندفعة نحو الباب .

في هذه اللحظة رف الصقر الذي يحمل المرآة عاليا فوق المعبد ، والتقط نور الشمس والقى به فوق الجماعة الواقفة فوق المذبح . ظهر الملك والملكة ورفاقهما في غبش الضوء المنتشر في قبو المعبد في هالة من النور السماوي ، وخر الشعب ساجدا على وجهه ، وحين افاقت الجماهير ونهضت ، كان الملك تتبعه حاشيته قد هبط درجات المذبح في طريقه الى قصره عابرا ردهات خفية ، وتفرق الشعب في جنبات المعبد لكي يرضي شهوته الى التطلع .

اخذ يتأمل الملوك الثلاثة المنتصبين في وقفتهم بعيون ملؤها الدهشة والاجلال ، ولكن حبه للاستطلاع جعله يتوق الى معرفة ذلك الشيء المتكور تحت السجادة في الفجوة الرابعة ، وسواء ما كان ذلك الشيء ، فقد شاء التواضع العطوف ان يبسط على الملك المنهار غطاء باهر الجمال ، لا تملك عين ان تنفذ منه ، ولا تجرؤ يد ان تكشف عنه.

لم يكن لتأمل الشعب او لاعجابه ان يقف عند حد ، ولا للجماهير المتدفقة المتزاحمة ان تنجو من الاختناق في المعبد لو لم يتحول انتباهها من جديد الى الميدان الكبير .

رنت قطع ذهبية على الالواح المرمرية على غير انتظار، وكأنما سقطت من الهواء ، واندفع المتجولون القريبون منها يتزاحمون عليها ليفوزوا بها ، وتكررت هذه المعجزة مرة فمرة ، هنا وهناك . ويفهم القارىء بلا شك ان النورين التائهين قد سمحا لانفسهما قبل ان ينصرفا بشيء من المزاح فراحا في مراح يبددان الذهب المتناثر من اعضاء الملك المنهار . ويتدافع ويكاد يمزق بعضه بعضا . وفي نهاية المطاف تفرق شمله ، ومضى في طريقه ، ولم يزل الجسر الى يومنا هذا يعج بالسائحين ، ولم يزل المعبد اكثر الاماكن على وجه الارض عمرانا بالزائرين . »

عبدالغفار مكاوي

تعليق على الحكاية

سجل صيف عام ١٧٩٥ حادثا نادرا في تاريخ الادب الالماني ، بل لعله من اندرها في تاريخ الاداب العالمية بوجه عام ، ونعني به انعقاد اواصر الصداقة الوطيدة بين الشاعرين العظيمين جوته وشيللر . كان شيللر في ذلك الحين قد شرع في اعداد مجلته الشهرية المعروفة باسم « الهورن » (١) ، وكان من الطبيعي ان يطلب من جوته ان يساهم في تحريرها ، فلم يتردد الصديق . وكان في نية شيللر ان ينشر في اعدادها الاولى بعض مقالاته الفلسفية ومقالات صديقه فيلهلم فون همبولت . ولكن كان على المجلة التي تتجه الى دائرة متسعة من المثقفين الا تقتصر على هذا اللون الجاف من الوان الكتابة ، وان تقدم من القصص ما يضمن لها الذيوع والانتشار . ووعد جوته في اول الامر ان يقدم قصة قصيرة ، ما لبثت ان تحولت الى مجموعة من القصص ، في اطار روائي طويل .

كان جوته في ذلك الحين مشغولا باعداد الجزء الاول من روايته الكبرى فيلهلم ميستر ، وهو المعروف « بسنوات التعلم » ، كما كان في الوقت نفسه منكبا على اتمام دراساته عن « نظرية الالوان » ، ووضع الخطوط الرئيسية في ابحاثه عن العظام . وكان اشرافه على مسرح فيمار يكلفه الكثير من وقته وجهده . فلم يكن هناك مفر من ان تظل الحكايات القصيرة التي وعد بتقديمها لمجلة « الهورن » عملا جانبيا الى جانب الاعمال الاخرى التي تشغله ، وان لم ينف هذا انه اقبل على كتابتها في شغف ولذة هما طابع كل قصاص اصيل . وكان ان تجمعت كل هذه الاقاصيص في شكل رواية قصيرة على هيئة مسامرات سماها بالفعل « مسامرات مهاجرين المان » ووضع الحكاية التي نعرفها في نهايتها .

والمسامرات ـ ان جوته لا يترفع عن المشاركة في ادب التسلية الذي كان منتشرا في عصره ، بل يجد في ممارسة القصة والارتفاع بشكلها والسمو بغاياتها واجبا من امتع الواجبات ـ مجموعة من الاحاديث تدور حول اسرة من الاسر النبيلة هاجرت الى احد املاكها النائية ،فرارا من جيوش نابليون الزاحفة . ولسنا هنا بصدد الحديث عن هذه المسامرات (٢) ، فلهذا موضع اخر . ويكفي ان نشير الى انها تبدأ بمناقشات حادة حول الثورة الفرنسية تدور بين متعصب لها وساخط عليها ، فيحاول القسيس العجوز الذي يرافق العائلة ، مدفوعا من البارونة الحكيمة ربة الاسرة ، ان يعيد الاتزان والبهجة الى الحاضرين بحكاياته ، وان يبعد بهم عن القضايا الوقتية ليوجههم الى قضايا الانسان الخالدة . ان العجوز يسلي الحاضرين ، وبخاصة الشباب منهم بحكاياته ، لا بالمعنى الشائع لكلمة التسلية ، من تشتيت البال وصرف الانتباه عن قضايا الساعة الملحة ، ولكن ليصرفهم عن المنازعات السياسية العقيمة والمسائل السطحية العابرة ، ليعدهم لما هو اعمق من مسائل الفكر والشعور . انه يضرب لهم المثل ـ وبخاصة في أقصوصة فرديناند الشاب الذي يكفر عن جريمة اختلاس اموال ابيه بالوفاء والتضحية ،

ـ التتمة على الصفحة ٤٩ ـ

(1) Die Horen

(٢) تعد مسامرات المهاجرين الالمان التي ظهرت في مجلة « الهورن» في عام ١٧٩٥ بداية فن القصة الالمانية القصيرة في القرن التاسع عشر . وليست اقاصيص جوته التالية هي وحدها التي تبدأ من هنا ، بل كذلك اقاصيص الرومانتيكيين ، انهم يقتفون اثره ، واذا بنا نرى فيلاند ينشر قصته « هيكسا ميرون روزنهيم (١٨٠٥) ، وارنيم « حديقة الشتاء » (١٨٠٩) ، وتيك « فانتازوس » وكثيرون غيرهم . واحب الناس الاقصوصة وعرفوا اهمية هذا الشكل الفني . واصبحت الحكاية التي سبق اليها « موزايوس » وجرى فيها على اسلوب عصر التنوير الذي ساد فيه سلطان العقل عملا من اعمال الخيال الخالص عند جوته . ومن هذا النبع الصافي اغترف شاعر الرومانتيكية الكبير نوفاليس (فريدرش فون هاردنبرج) .

أربع قصائد

١ ـ اغنية صغيرة للصمت

ملني الصمت فقبل يا لظى الاحرف بارود دمي
هز في اعمق اعماقي التلاحين الدفينه
واهتكي يا زاهرات الانجم
عتمة الليل الذي طال على هذي المدينه
...
ايها الصمت ، رياح الليل لم تطفىء بقلبي
أملا اورق ،
ما كنت رمادا
بل انا الخنجر في اعماقهم اعرف دربي
ابدا أنتظر الصبح واشتاق المعادا .
...
ايها الصمت ارتحل عني وخليني شراعا
مسرعا ، فالمرفأ الآتي فوانيس تلوح
وعيون ترصد الافق ، لان الافق بالسر يبوح
والذي شيده التاتار رمل يتداعى .
...
أيها الصوت الدم الاعصار هبني
من حكاياك صدى اهدم سجني .

٢ ـ المفترون

البائعون مــاء
وجوههم بالثمن البخس
والهاتكون السر للاعداء
يقهقهون أسكرتهم اكؤس الدماء
يقهقهون في غباء
يقهقهون ، يفترون
على الرؤى البيضاء
يلطخون وجنة الشمس
بعارهم في ساعة اليأس .

٣ ـ الشاعر مات ولم يكتب حرفا الى (ح . ع)

جراحه نبع يبل عطش الظلماء
ومقلتاه نجمتان أطفأ الاعداء
ضوءهما العميق
في وجنتيه ندب تنبىء عن حريق
ومن حناياه على الطريق
نبع يبل عطش الشروق
لكنما ظلت على شفاهه الصحراء
تحلم بالانداء
بقطرة من ماء
تصيح .. ماء .. ماء .. ماء
ماء .. ماء
وفجأة يسكتها الاعياء
...
خمس ليال مرة صفراء
غارقة بالموت والدماء
مــرت ،
وكان وجهها وصفا
... ...
مات ، ولم يكتب ولو حرفا

٤ ـ رجفــه

لانني أبيت
ان اهب الجناة من حروفي الخضراء
أكون في أيادي الاعداء
خناجرا مرهفة سوداء
تنغل في أعماق اخوتي
وتطفىء الاحداق
...
لانني أبيت
... ...
تنتابني رجفه
تهز رأسي كيفما تشاء
تحكى لي المأساة ،
أرتمي على ضفه
كانت لاحبابي مقبره
غيلانها السود المزمجره
حاقدة تود أن تكوم الرماد
في شفتي دونما رأفه
تود أن تمزق الحب الذي يشدني
لكل ما قالته شهرزاد
تود لو اكون كالسعفه
تختض في درب رياح الليل والسهاد
تخاف من صدى حكايا موته الوحفه
...
لانني أبيت
أن أهب الجناة من حروفي الخضراء
لانني أبيت
تنتابني رجفه
أعيش نصف ميت .

بغداد **سهام الرمادي**

★ من مجموعة « النصل الدامي »



طلع عليه الصباح ، كما اعتاد أن يطلع عليه منذ ثلاثين سنة ، على باب المتحف الصغير ، وهو يضع المفتاح في قفل البوابة المتآكلة. وعصفت الرياح في صباحه ذاك كما لم تعصف من قبل ، وتجمعت نذر الامطار في سماء مكفهرة غاضبة . وفي دوامة مروعة ثارت ذرات الغبار ، وكأن مسا شيطانيا أثارها في الشوارع المتقاطعة لتلتقي عند مدخل المتحف وهو يتوسط الشوارع . صدمت الاتربة المتصاعدة وجهه الاغبش،وعينيه الذاويتين ، فزوى بين حاجبيه في يأس ، وازدادت خداه تغضنا، وامتدت اصابعه القلقة الى وجهه تحاول وقاية عينيه من أن يعميهما التراب .

وفي هدوء ثائر امتدت يده اليمنى الى الباب بالمفتاح وفمه يردد بصوت مسموع :

ـ يا فتاح يا عليم ... !

دخل المتحف الصغير وهو يعلم انه سيكون في يومه ـ كما كان في امسه ـ سجينا في هذا السجن الذي فتحه بنفسه ، ودخله بمحض ارادته . وقف عند الباب وقد اسنده بكتفه مخافة أن تجتذبه الرياح فتخلع اعمدته . وتطلع الى الشوارع المفضية الى المتحف العتيق فلم يجد بها غير دوامة الرياح تثير من أعطافها التراب والازبال وبقايا الاوساخ ونفاية الرواسب .

زوى عمي الطائع ـ وهذا هو اسمه ـ بين حاجبيه مرة أخرى ، لا ليتقي ذرات الرياح السافية ، ولكن ليفكر :

ـ يوم ثائر كيومنا هذا ، هل ينتظر فيه زائر يزور المتحف ، او رجل متفرغ يعيش مع الماضي ؟

وترامى اليه الجواب دون أن يمعن في التفكير :

ـ افتح واسكت ، فليس من شأنك أن تسأل : هل يزور المتحف زائر ... هذا المتحف اسس ليقصده القاصدون ، يعيشون فيه ساعة او بعض ساعة مع الماضي بعد أن ينهكهم العمل للمستقبل .

ـ ثلاثون سنة عشت فيه ، لا ماضي لي فيها ولا مستقبل ، انتظر الوافدين ، لا ليؤنسوا وحدتي ، ولكن ليشاركوني حياتي . في الصيف انعم بزيارة الزائرين ، يدخلون والفضول يلمع في اعينهم ، ويخرجون والخيبة تجلل سحناتهم . وحتى في الصيف قل رواد هذه المتاحف . وانا ، انا الذي ارد ـ في اصرار ـ كل صباح لاقضي سحابة يومي بين سكانه ، لا تغريني به حمارة قيظ ، ولا ينفرني منه زمهرير شتاء ، ولا ثورة رياح سافيات .

وتراكمت نذر العاصفة في تجاوب كامل بين السماء والارض ، وارعدت السماء في دوي هائل كما لم ترعد من قبل ، فقطع الصوت المدوي حبل تفكيره ، ورفع عينيه الذابلتين الى السماء ، كأنما يستمطرها الرحمة في خشوع وخوف . وعربدت الرياح مرة أخرى في الدروب الضيقة فند عنها صوت انذار اعاد الى ذاكرته نعيق صفارات الانذار على عهد الحرب الماضية .

لم تكن نفسه أقل ثورة من السماء والارض ، ولم تكن في حاجة لان تتجمع فيها نذر العاصفة ، فهي تعيش في عاصفة مستمرة ، فليس غريبا اذن ان يجد في ثورة الطبيعة انسجاما مع نفسه وارتياحا لم يبد على السطح بمقدار ما رسب في الاعماق .

ودوى الرعد مرة أخرى ـ وهو ما يزال يسند الباب بكتفه ـ فرفع عينيه الى السماء في تثاقل ، بعد ان برئت نفسه من الانفعال الذي احدثته الرعدة الاولى . وبدا وكأنه يسخر من السماء في دويها المرعب ، ولم يكد يرتد اليه البصر حتى تفجرت العاصفة في ينابيع مزمجرة ، اصطدمت مع الرياح فحملتها في قسوة لترقع بوابة المتحف في عنف وكأن لها معها ترة .

وتطلع عمي الطائع الى الشارع فرآها تغتسل مما احدثته بها الرياح من قذارة ، وانتبه الى نفسه فوجد حبات المطر المتهاطل تسفع وجهه وتبلل جلبابه القديم ، وعاد بعض الاطمئنان الى نفسه ، فتخلى عن مكانه ليدرأ عنه آثار العاصفة ، ودلف خلف الباب وهو يدفعها في تؤدة وراء عالم الرياح والعواصف والامطار .

بدأ يومه الجديد في المتحف وقد اسند ظهره خلف الباب ، وكأنه يعلن انفصاله عن عالم ما وراء الباب . وتطلع الى التماثيل والاحجار والنصب تثوي في مكانها لم تبرحه منذ وضعها الفنيون ومهندسو المتاحف ، فانفتحت عيناه على عالم عاش فيه ثلاثين سنة من عمره،وكأنه يدخل لاول مرة الى متحف للتماثيل والنصب والاحجار . وفتح عينيه من جديد ، كأنه يحاول أن يكتشف شيئا جديدا ، متجولا بهما في اصرار، حول هذه الاجساد المرمرية العارية التي صنعتها ايد طواها البلى من آلاف السنين .

وفكر :

ـ احرس هذه التماثيل ... ؟ ممن ... ؟ افتح باب متحفها... ؟ لمن ... ؟ اعيش معها ، وهي التي طوت قبلي مئات عاشوا معها ولها ، ثم طواهم البلى في صمت وبقيت هي ثاوية خالدة كأنما كتب على هذا العالم الا تعيش فيه غير التماثيل ...

وقطعت حبل تفكيره طبيعة المهنة فابتعد عن الباب في تكاسل ليقوم بجولته التقليدية التي يقوم بها كل صباح ، يتفقد فيها التماثيل والنصب والاحجار المرموقة ليطمئن على انها ما تزال في مكانها لم يعتد عليها عاد ، ولم تمتد اليها يد بالاثم .

وانتهى من جولته في سرعة مخترقا الابهاء والغرف في المتحف الصغير ، وهم بالعودة الى كرسيه العتيق ـ الذي احتمله سنوات حتى بدأت اضلاعه تئن من تحته كلما اعتدل أو وقف او جلس ـ ولكن عينيه الفاحصتين اصطدمتا بتمثال الة العطاء واليسر ، وقد تقدمت اصابعه على باقة من سنابل القمح ، رمز الخصب والنعمة ، وتوقفت عيناه قليلا امام وجهه المتفتح عن ابتسامة باهتة صفراء ، كانت في يوم ما بسمة رضى ، يوم كان العطاء واليسر تعبيرا عن رضى الالهة ،وبقيت صفراء باهتة لانها فقدت التعبير عن العطاء ، وفقدت هؤلاء الذين يلتمسون العطاء من التمثال المرمري الجامد ، فهي بسمة عاطلة الا من معنى السخرية الذي تحمله ، سخرية البقاء بدون خلود ، والسخرية من الفناء الذي لم يقتحم هذا الوجه الوديع الانثوي .

واطال عمي الطائع النظر الى الوجه يتفحصه لاول مرة ، وكأنه سائح جديد من اقطار ما وراء البحر يدخل المتحف ليكتشف فيه كنوز العهود الخوالي . وامتدت يده الى جيبه في عفوية واضحة ، وعادت بدخينة بين الاصبعين المتغضنتين سارتا بها ، في تردد ، نحو الشفتين الذبلتين ، وتركزت عيناه في الوجه الوديع والبسمة العاطلة ، واهتدت اليد الاخرى الى الجيب الثاني تبحث عن علبة الوقيد بين عديد من المخلفات : بضعة دراهم ، اوراق قديمة ، خيط وابرة ، موسى صغيرة ،

مفاتيح ، وصعدت اليد المرتعشة بعلبة الوقيد وقدح الزناد بعود منها . واقترب العود من الدخينة ، حتى اذا تلألأ نوره أمام عينيه الزائغتين، عاد اليه بعض رشده فتذكر ان التدخين ممنوع في المتحف . وتوقفت يده في منتصف الطريق وهو يقلب عينيه بين عود الثقاب المشتعل والدخينة ترتعش بين شفتيه ، وفكر :

ــ ممنوع التدخين ... ! حتى الدخان يتصاعد في الهواء يخشون منه على الآلهة التي تمنح الرخاء واليسر ، وتعصر الخمر ، وتمنح الجمال، ونعطي الصحة والعافية ، وتثير البحر وتمنح الرضى والغضب والنقمة والجزاء ... الاف السنين مرت لم يحرقها دخان الاعواد الضخمة ، ولم تقض عليها الزوابع والزلازل وتعاقب الاحداث ... الزمان ... ؟ الزمان نفسه لم يقض على هذه الاجسام البضة العارية المتحدية في عنف ...

ومست نار الثقاب الكف التي احاطت بعود الوقيد ، محافة تيار الرياح ، وان لم تجر في المتحف رياح ، ولكنها العادة المتحكمة ،وانتفضت اصابعه في عنف تطفىء الوقيد الملتهب ، وعادت الدخينة الى مكانها في الجيب . وعاد عمي الطائع يكمل جولته المتفحصة ، وهو يتنقل بين التماثيل في بطء ، وقد اشتبكت يداه خلف ظهره فزادته تقوسا وانحناء.

توقف عند اله الخمر ــ وهو يذكر اسماء الالهة كما يذكرها خبير فني في المتاحف والآثار من كثرة ما مارس وسمع ــ وتفحصه طويلا وهو يفكر :

ــ حتى هذا الحجر الاصم يعربد ... ! انه يبارك الكروم وحقول العنب ليمنح البشر سبيل السعادة والانشراح وتسلية الهموم . أي خمر هذه التي يباركها هذا التمثال المعربد ؟ انهم يطلبون مزيدا من العربدة، ولا بد لهذه العربدة من اله يباركها ، فاننا نحن الاشقياء لا نملك حتىان نسلو من همومنا الا بارادة اله يمنحنا الخمر ، كما لم تأتنا تلك الهموم الا بارادة اله يغرقنا في الشقاء .

وفعلت كلمات : الخمر ، الهموم ، الشقاء ، فعلها في نفسه وهي تتردد في فكره ، وان لم ينطق بها لسانه .

وعاد عمي الطائع يخاطب التمثال بصوت داخلي ملحاح تكاد اذناه تسمعه :

ــ لا حاجة لي بخمرك ... فشقائي شب عن دوائك . انا الذي احرسك منذ ثلاثين سنة ، لو كنت تشفي من هموم الحياة ، لكنت جديرا بان تعرف همومي وتلمس شقائي انا ... انا البشر العادي الذي ارتطم بهموم الحياة . ؟

وانفعل عمي الطائع في حدة . ونطق الصوت الداخلي :

ــ خمرك التي اغرقت الاثينيين لم تستطع ان تبقي عليهم ، انتوحدك الذي نعمت بالبقاء ... خذ خمرك ... عربد ... امنح نفسك النشوة والانشراح والسلوة ، اما نحن فلن نسألك عطاء ولا خمرا ولا سلوة ،نحن، نحن هنا لنمنح انفسنا ، لا لنطلب المنحة منك .

وازدادت نفسه حدة ، وأرعد الصوت المدوي في نفسه :

ــ اغرب ... اغرب عن وجهي لارأتك عيناي .

وعاد يخطو في جولته المتفحصة ، وكاد يتراجع الى كرسيه العتيق، وقد ملأته تطلعاته للالهة غيظا وحنقا ، ولكن عينيه اصطدمتا بالحسناوات الثلاث تنظرن اليه في غنج ، وقد تمايلت قدودهن اليانعة وتعانقت منهن الايدي ، ونبعت الشهوة من صدورهن الناهدة لتسيل لعابا زعافا على جسمهن العاري هاتفة في غير حياء : هل من شباب ... !!؟

وقف عمي الطائع ينظر اليهن ، وكأنه لم يرهن من قبل . وانطلقت اساريره ، وارتسمت ابتسامة حية على فمه المتغضن ، واعتدل في وقفته وهو يطرد عن ظهره التقوس والانحناء . وطاف بالاجسام العارية يتطلع اليها في حذق من خلف ، كما تطلع اليها من امام ، وكاد يتراجع خجلا وقد اصطدمت حاسته الحيية بالارداف وما تحت الارداف .

ــ اي حسن هذا الذي يتعرى في خلاعة ؟ لقد فقدوا ذوق الجمال المتستر ، احفادهم ادركوا جمال التستر ، فكسوا الجسم وان اعفوا الوجه والصدر . هؤلاء الذين اغرقهم باخوس في عربدته ، جردتهم فينوس من جمال الحياء والحشمة .

وتجولت عيناه وهو يطوف بالقدود الهيفاء في تطلع ، واستقرت عيناه على صدر ناهد استدارت به وسطاهن لتضمه بجانبظهري زميلتيها، وكأنها تحاول ان تحدث انسجاما لرديفيها الناتئين . وانحدرت عيناه السائحتان في الجدول المترقرق حتى استقرتا على ملمس العفة وقد تعرى في غير خجل ...

وابتسم عمي الطائع لهذا الابتذال العاري ، وصوت من اعماقه يهتف :

ــ لو تعرى جميع النساء كما تتعرين لما اكل ادم من شجرة حواء، العري افقدكن قوة الاغراء .

وتطلع الى وجوه الحسناوات الثلاث فامح السعادة تلمع من بسمتهن الصبية ، ابتسامة طفلية ولكنها مغرية . وهتف الصوتالداخلي في حنان :

ــ الاف السنين وانتن سعيدات . ليت لي من حظكن لبضع سنوات ... احرس سعادتكن من ثلاثين سنة ، ومع ذلك فالشقاء يحرسني من ستين سنة . من حجر السعادة صبت قدودكن الجامدة، اما جسمي انا ، جسمي المتحرك الحي فمن نطفة الشقاء نبت ، وفيارض جرداء نبت الخبز الذي به اتغذى وببذرته ينمو هذا الجسم القاسي المتغضن .

وهفت بخياله ملامح فاطمة زوجته ، التي كانت في يوم ما فتاة صغيرة . وابتسم في سخرية :

ــ فاطمة زوجتي انا ، انا الذي لم يباركني اله العطاء واليسر ، وهي ، هي التي لم تباركها فينوس ، ولم يعتصر لها باخوس كأسا من خمره الذهبية المعتقة ، كانت شابة صغيرة في يوم ما ولكن خديها لم يلتهبا بخمرة باخوس ، وعينيها لم تكتحلا بسحر فينوس ، وقدها لم ينتسب لحسناء من الحسناوات الثلاث . فاطمة ليست ندا لهن كما لم اكن ندا لفتى الالب ، هذا الذي يقف في مواجهتهن ، وكأنه يخطب ودهن ــ بجسمه الفارع يطفح بالشباب والقوة والعافية والنعمة .

وتداعت ذكريات العمر المديد الشقي امام ناظريه ، وغامت في افق العينين الذابلتين غمامة سوداء لفت تمثال الحسناوات الثلاث فتحول عنه في غير اسى ليصطدم بتمثال اله البحر ، فتجولت عيناه في وجهه القاسي الغاضب ، وكأن ثورة الامواج تنبعث من جبهته الصلدة القاسية . ووقف يطيل النظر في البحر اللانهائي ذي الابعاد الشاسعة ، وقد اختصر نفسه في وجه اله يمثل الثورة والغضب والعنف ، ويحمل في نظرته المتفحصة غدرا واضحا طالما طوى فلكا اطمانت الى وداعته ووثقت بحلمه . وذكر احد آبائه ــ فيما روت اساطير العائلة ــ كان صيادا ماهرا اتخذ البحر صديقا له ، يغدو لرحابه فقيرا مملقا ، ويروح ثريا حفيا بما ملأ سلته من سمك ونون . واستنام لوداعة البحر حتى طواه يوما في ثورة عارمة ، واستبد به دون العائلة والاولاد .

واطال عمي الطائع النظر في وجه اله البحر عله يكتشف في صفاء وجنتيه جدث الشيخ الذي طوى ، فلم يجد غير القسوة والعنف والغدر. وانطلق الصوت الداخلي يهتف :

ــ حتى انت يا مصدر حياة دنيا الناس لم تنعم بالنبل والصدق والمحبة ، فكنت كجميع الآلهة ودودا في مظهرك خائنا غدارا في حقيقتك..

ايما دنيا يحفل بها متحفي هذا ... !!؟

لكأن الذين جمعوكم في هذا القفص طافوا بالارض ليلتقطوا كل غدار اثيم يصنعون منه الها ، ويضعونه على رأس قطاع من قطاعات دنيانا ...!! حتى اله البحر الذي يلتمس فيه البشر غذاء ومتعة وجمالا يستميل اليه الناس ليغدر بهم ... ويل لي من كل هؤلاء ،. وقد طوحت بي الدنيا لتضعني ــ ثلاثين سنة كاملة ــ بين احضانهم . لم اجد فيك انت الاخر غذاء ولا متعة ولا جمالا ، ومن يدري لعلك تخبىء لي ما نفحت به صديقك القديم : جدي السابق ؟

ولوى وجهه عن اله البحر ليخطو خطوتين الى الامام ، فاذا به يصطدم باله الطب .

وقهقه عمي الطائع حتى دوت ارجاء المتحف باصداء قهقهته الرنانة،

وهو يحدق في وجه اله الطب . واخذ يحدث نفسه :

ـ طب ..! طب ... !!

وازدادت سخريته اللاذعة وهو يقول :

ـ داوني يا اله الطب ... أشف امراضي وانقذني من عللي ... لعلها تستعصى عليك كما له تستعص عليك امراض اليونان .. أنـــا عليل سقيم ، امراضي تدب في جسدي من أخمص قدمي الى قنـــة رأسي ، انا العليل الذي التمس الشفاء من ستين سنة لم أجده عنــد طبيب ماهر من أطباء الناس ... افلا تلمسني بحكمتك الالهية لتشفـي عللي ؟ ها ... ها .. ها ... حتى الطب له آله ، وفـي متحفـي المتواضع مكان لاله الطب .. مـا جدوى الوهيتك ـ يا سيدي الاله ـ اذا كنا نحن البشر لا نجد شفاء من امراضنا في حضرتك ...!!؟

ودوت أرجاء المتحف بصدى ضحكته الساخرة الغاضبة ، وهـو يزور عن وجه الاله ، الذي لم ير فيه غير النفاق والكذب والغش ، واتجه ببصره نحو وسط المتحف ليجابه « جوبيتر » اله الآلهة بقامته الفارعة وجسمه الصلد وعضلاته المفتولة ولحيته الكثة وشعره المتموج ، وقـد استند على عصاه الطويلة كانه يحاول أن ينش بها على الالهة الصغار.

وشك عمي الطائع من منظر اله الالهة ، فان ما توحي بـه ملامحه الجادة من حزم وعزم وقوة يبعث على الاحترام والتقدير . والالهة لـم يتخذوه الها لهم الا عندما قدروه واحترموه وخافوا من سطوته وعزته .

وعاد الجد الى ملامح عمي الطائع وهو يتطلع في فضول الى الوجه الطافح بالجلال والقوة والحزم . وخيل اليه انـه لم يره قط رغـم السنين الطويلة العريضة التي طواها في حراسة جلاله وعظمته وتحـول الاحترام والتعظيم الى نوع من الخوف . وسرت في جسمه رعدة لـم ينسبها الى البرد القارس الذي كان يلف المتحف الصغير ويشيع الزمهرير في كيانه ، وانما نسبها الى ما غمر به اله الآلهة نفسه مـن احتـرام وخشيه وخوف . وعاد الصوت الداخلي يدوي ليحمل عمي الطائع الى عالمه الجديد ، وعادت أذناه تتسمعان في ارهاف الى الصوت وقـد أخذ يهدر في داخله :

ـ حتى الآلهة لهم اله .. ومن يدري لعل لجوبيتر الهه الاقـوى والاغنى والاكثر نفوذا ...؟

وتغيرت معالم عمي الطائع من فعل موجة الشك التي اخذ يصبهـا في نفسه الصوت المدوي ، وتخلى عنه الخوف ليظل الاحترام يفغر فـاه وهو يتطلع الى اله الآلهة .

وعاد الصوت المدوي يهدر :

ـ وانت يا اله الآلهة : ماذا صنعت لآلهتك الصغار ؟ منحتهم قـوة البطش وسر السلطة ولذة الخمر وسحر الجمال ... ولكنا نحن البشر ...؟ ماذا صنعت لنا حتى تتمتع باحترامنا واجلالنا .؟ انا ؟ انا الذي انفقت في حراسة ذاتك العلية زهرة عمري وكهولتي وشيخوختي ، مـا جزائي عندك ؟ البؤس والحرمان والشقاء والمرض . الا تستطيع سلطتك الالهية أن تمتد الي بعطف يقلب كيان شقائي الى نعمة وارفـة الظلال ؟ سلطتك يا سيد الالهة لم تعد ذاتك ... قد لا تكون امتدت الـى زمـرة الآلهة من حولك فعمتهم نعمتك الوارفة ، فأنت وهم شركـة استغلال السلطة الالهية التي حلت في ذاتكم الكريمة ...

وبدأت الابتسامة الساخرة تغمر وجه عمي الطائع والصوت المدوي يردد : شركة استغلال السلطة الالهية ...

وتطلع عمي الطائع مرة اخرى الى وقفة اله الآلهة ، وتركزت عينـاه على العصا الفارعة ، ويد جوبيتر تعتمد عليها في قوة ، وهتف الصوت :

ـ حتى انت يا جوبيتر تعتمد في سلطتك على عصا؟ اهي شيخوختك ام عجزك ؟ سلطة اله الآلهة تعتمد على عصا خيزران ؟ انا ... انـا العاجز ، انا البشر استطيع ان ارعى بعصا تبعث الخوف في رعيتـي ... انا ... أنا العاجز اقوى منك يا اله الآلهة : في جسمك قوة ، وفي روحي ثورة مدمرة . في وجهك رعب ، وفي نفسي حب وود وتسامح . سطوتك في حاجة الى حراستي ، انت خائف ابدا ، مرعوب دائما يـا الـه الآلهة ... !!

وعاد عمي الطائع ينظر الى نفسه في ثياب حارس المتحف وينقـل عينيه بينه وبين اله الآلهة ، وكأنه يقارن بين قوته كانسان وبين سطـوة اله عاجز الا ان يقتعد مقعد اله .

ولم يمهله الصوت المدوي ، فقد الح في حديثه :

ـ حراستي تمنحك القوة وتمنع عنك ايدي العابثين . انت تستمد مني وجودك ، دون ان استمد منك حتى خبز أولادي .

وغلى الدم في عروق عمي الطائع ، وقطـع صوته حديث الصوت الداخلي ، وهمس لنفسه ، ثم دوى بصوته الجهوري :

ـ حرام على روحي ان ظللت « طائعا » امنحك الوجود ، واحرس سلطتك وسطوة الآلهة من خلفك ... لن اعيش لكم بعد اليوم ، ولتتعقبني لعنتكم الى الابد ...!!

واكفهر وجه عمي الطائع ، وشعر بدم بشري جديد يجري فـي عروقه ، واندفع في غير وعي يحطم تمثال الآلهة مـن قاعدته حتـى شعره المتموج .

وضحك ضحكة النصر وهو يرى أشلاءه المحطمة تتطاير في كل مكان من المتحف الصغير ، ثم اندفع في حماس نحو الآلهة الصغار يحطمهـم واحدا بعد الاخر بقوة كأنها لم تعرف القهر ابدا .

ونفض يديه من الآلهة ليقف امام الحسناوات الثلاث يتطلع الـى اجسامهن العارية في كثير من الفضول ، وارتعش جسده بشهوة عارمة . ولكن دمه الفوار انطلق في جسده يعوي كذئب جريح . وانطلق صوتـه يعبـر :

ـ حتى انتن ـ يا من امتعتن الآلهة بجسدكن البلوري ـ لكـن نفس المصير . فلن تعيش شهوة الآلهة بين ظهرانينا بعد اليوم .

واندفع عمي الطائع في ثورته المدمرة يطيح بتمثـال الحسناوات الثلاث لترتمي اشلاؤهن الممزقة بين أشلاء الآلهة واله الآلهة .

واجال بصره في المتحف يبحث عن ضحية اخرى فلم يجد غـير الفراغ ، وانطلق يجري في ارجاء متحف الاشلاء كأنه يحتفل بالنصر .

وتوقف مرة اخرى امام ركام الاشلاء ، ففغر فاه ، وهو يفكر فيمـا صنعت يداه ، ولكن نفسه الثائرة لم تخذله ، فقد انطلقت فـي حماس تشجعه وتمنع عنه اي شعور بالخوف .

القى عمي الطائع نظرة وداع اخيرة على متحفه الصغير ، وفتح الباب لينطلق في عدو سريع وهو يهتف في الاسواق :

ـ حطمتها جميعا ... حطمت رؤوس الآلهـة ... لا متحف ولا آلهة بعد اليوم .

اثارت صيحاته ضجة في السوق ، وتطلع اليه المارة في دهشة وهم يشهدون عجبا من الرجل الذي لم يعرفوا عنه غير الوقـار والهدوء والطاعـة .

وهتف احدهم في اسى :

ـ مسكين عمي الطائع ... لقد ادركه الخلل ...

واجاب صوت الشيخ العجوز من مقعد بجـوار المسجد وقـد عرف بالحكمة :

ـ دعوه ... دعوه ... فان ما به ليس خللا ولكنه ثائر تحرر ..

الرباط (المغرب) عبد الكريم غلاب

طبعت على مطابع :



تلفون : ٢٢٢٩٢١

الحكايــة

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٤٣ ـ

واقصوصة التاجر الايطالي العجوز وزوجته الشابة التي يطول غيابه عنها فتبحث عن الحبيب والصديق في شخص محام شاب يدفعها بالصوم والصلاة ـ اي الى حد كبير باماتة الجسد ومجاهدته كما يقول المتصوفة ـ الى أن تقهر نزواتها وتنتصر على ذاتها ـ اقول انه بهذه الاقاصيص التي اخذ بعضها عن بوكاتشيو يضرب لهم المثل على الانسان الذي لا تقوى كارثة من الخارج ولا عاطفة من الداخل على أن تفقده توازنه ، الانسان « الذي يحافظ دائما على المسلك الهادىء ، ويجد نفسه على الدوام مدفوعا الى ان يعيش لغيره ، ويضحي بنفسه في سبيل الاخرين . »

وفي « الحكاية » التي يختم بها القسيس العجوز مسامراته نجده يصف لنا تلك الحالة التي تفيض بالنعمة والسعادة والتي ما كان لهذه الشخصيات العجيبة أن تصل اليها لو لم تتغلب واحدة منها (الحية) على نفسها وتضحي بذاتها في سبيل المجموع . انها تبني من جسدها جسرا مسحورا يصل الواقع بالمثال ، والحياة بالفن ، كما يربط عالم الشاب الملتهب بالحب والعذاب بعالم الزنبقة الفياض بالسعادة والتجانس والكمال . والقسيس بهذا يحاول ان يكشف عن جوهر الانسان ، كما يطالبه في الوقت نفسه بان يكبح جماح غرائزه ، ويعرف حدوده فلا يتعداها .

في اقصوصتي فرديناند والتاجر العجوز يحرص الراوي على التزام الشكل ، اما في الحكاية فتصبح طريقته في القصة ، وقد تحررت من قيود الواقع ، لعبا خالصا وصورة خالصة ـ شيئا يتعذر ان نجد له نظيرا في فنون الكتابة ، اذ هو اقرب ما يكون الى جوهر الموسيقى .

لقد كان جوته في ذلك الحين يقرأ كتابات شيللر الفلسفية ،ويرى كيف يحاول الصديق ان يتغلب على اختلاط الغرائز وفساد العصر عن طريق الفن والجمال . ولعله قد تذكر كلمة صديقه المشهورة التي وردت في رسائله الفلسفية عن التربية الجمالية للانسان (الرسالة الخامسة عشرة) : « لا يكون الانسان انسانا بكليته الا حين يلعب » . ولكنه رأى كذلك كيف ترك الصديق ارض الواقع وحلق بجناحيه في مملكة المثال العالية ، وكلما ازداد تحليقه تعرض لاخطار الحماس والخطابية . ولعله ايضا قد عرف مصداق التفرقة التي اقامها شيللر بين الشاعر العاطفي الذي يبدأ من الفكرة والمثل الاعلى وقد يعود او لا يعود الى الواقع ـ وقد قصد بذلك نفسه ـ وبين الشاعر الساذج الذي يبدأ من المشاهد والمحسوس ليصعد درجة درجة الى الفكرة والمثال ـ وقد قصد بذلك صاحبه ومنافسه جوته .

ولقد رفرف هذا بجناحيه في مملكة الخيال الحرة السعيدة ، ولكن حكايته بقيت مغزولة من نسيج الواقع ،ضاربة في جذور المحسوس .

***

ظلت الحكاية بالنسبة لمعاصري جوته وللاجيال التالية لغزا مستورا ، وتتابعت تفسيرات المفسرين تحاول ان تتغلغل في اسرارها ، ولكنه هو نفسه لزم الصمت ، وآثر الكتمان فلم يحاول ان يفسر رموزها بكلمة واحدة . ولم تكد تظهر في مجلة « الهورن » في شهر اكتوبر عام ١٧٩٥ حتى بدأت محاولات المفسرين ولم تزل مستمرة الى اليوم* .

حاول نقاد القرن التاسع عشر ان يفسروها تفسيرات مجازية ، وان يجدوا في اشاراتها دلالات سياسية تقترن بالثورة الفرنسية وبشخصية نابليون . ورأى نقاد القرن العشرين فيها رموزا حاولوا في حذر ان يربطوها برموز اخرى تتكرر كثيرا في بقية اعمال جوته وفي فاوست الثانية بوجه خاص مثل النور والارض والماء والفيض والذهب ... الخ. وصرح جوته مرة لصديقه همبولت (في ٢٧ ـ ٥ ـ ١٧٩٦) بأن الحكاية ينبغي أن تؤخذ مأخذ الرمز لا مأخذ الاستعارة او المجاز ، غير أنه لم يبح بشيء عن طبيعة هذا الرمز .

والحقيقة أن كلمات القسيس العجوز الذي يروي الحكاية للاسرة المهاجرة تعبر عن هذا الرأي نفسه حين يقول : « انها تذكر بلا شيء وبكل شيء » ، فالرمز هنا غني بالعلاقات التي تربطه بما يرمز اليه ، ولكن العقل لا يستطيع ان يستنفد كنوزه . وربما كان جوته يحمل جزءا من المسئولية عن الحيرة التي يجد المفسر فيها نفسه باذاء هذا العمل .

انه يقول للامير اوجست فون جوتا في ٢١ ديسمبر ١٧٩٥ : « انني اجد في العمل الذي تمدحونه ، والذي لا يستطيع عصر آخر غير العصر الذي نعيش فيه ان يطلق عليه اسم الحكاية ، كل دلائل التنبؤ .. ذلك لان المرء يرى بوضوح انها تتعلق بالماضي والحاضر والمستقبل .. على نحو ما سوف ترونه سموكم من تفسيري لها ، الذي لا يخطر لي مع ذلك ان اقدمه قبل ان ارى تسعا وتسعين مفسرا سبقوني اليه ! » ولقد حاول ما يزيد عن هذا العدد ، وفي مقدمتهم شيللر ، ان يستوضحوه سرها ، ولكنه بقي صامتا . ومضى على موت شيللر اكثر من ربع قرن ، وحاول كارلايل ان يستفسر جوته عن الحكاية التي اعجب بها واعتبرها من اعمق اعماله واكثرها شاعرية ـ وما من شك في ان جوته كان بوده لو استطاع ان يجيب على سؤال الاديب الانجليزي الكبير الذي يحسانه يدين له بالكثير ، ولكنه لم يجد اكثر من قوله :

« انها قطعة فنية يندر ان تتكرر مرتين . »

لقد سبق لجوته أن تحدث بنفسه عن بعض اعماله ، وبخاصة قصائده الغنائية ، فكان يذكر بعض ملابسات حياته التي ارتبطت بانشائها ، أو يعيد مضمونها بعبارات نثرية او يحاول شرحها شرحا موضوعيا . ولكنه كان يحرص دائما على الا يمس سر العمل الفني والا « يفسره » بالمعنى التحليلي المعروف من هذه الكلمة ، فكل تحليل يفسد العمل الفني الذي ينبغي أن ينظر اليه دائما ككل ، والا كان الناقد كالطبيب الذي يريد ان يشرح الجسد ليضع يده على سر الحياة فيه ، مع ان التشريح لا يكون الا لميت ، بينما القصيدة أو العمل الفني كائن عضوي يفيض بالحياة !

واذن فليس عجيبا ان نراه يرفض تفسير الحكاية . ومن يدري ، فلعله لم يكن ليستطيع أن يقدم مثل هذا التفسير على الاطلاق .

أن الحكاية تروى بطريقة موضوعية جادة ، وتنتهي بخاتمة لا تخلو من الاحتفال . كلماتها الاولى تنقلنا الى عالم غريب ، يصفه لنا الراوية وكأننا نعرفه : هناك النهر ، والمراكبي ، والحية .. الخ. هذا العالم الغريب يبدو كأنه عالم الاحلام . ليست هناك حدود تفصل بين الارواح والبشر والحيوانات والكائنات العضوية وغير العضوية . ان كل شيء يتداخل في كل شيء . ولكن هذا العالم غير المحدود لا يخلو مع ذلك من القوانين والقيود : فهناك قانون يتحكم في النهر فلا يقبل ذهبا ، وفي المراكبي فيعبر بالمسافرين في اتجاه واحد فحسب ، وفي العملاق فلا تكمن قوته الا في ظله ، وفي المصباح فيذيب كل جامد ، وفي الزنبقة فتميت بلمستها كل حي .. الخ. تقابل ذلك مثل هذه العبارات التي تسود الحكاية باكملها : لقد آن الاوان . ان الخلاص قريب . الشقاء رسول يسبق السعادة . النبوءة قد تحققت . ثم يأتي التحول العظيم في النهاية ، فيتحد المتفرق ، ويطمئن اليائس ، ويتحرر المغلول ، وتنشأ حياة جديدة بعد ان تلتئم القوى المختلفة في تجانس وانسجام .

كل المشاهد والاحداث تؤدي الى هذا التحول السعيد ، في بناء واضح شديد الوضوح ، يظل يتعقد الى ان يصل الى هاوية الشقاء (عندما تلمس الزنبقة حبيبها لمسة الموت ويفتش الجميع عن وسيلة للخلاص) ، ثم يبلغ ذروة السعادة (عندما يتحد الحبيبان وتتحول الحية الى جسر متألق يفضي الى المعبد الخالد) . ثلاثة دوافع تخلق التوتر

---

* راجع في ذلك كله اعمال جوته الكاملة ، المجلد السادس ، طبعة هامبورج ، والتعليق على الحكاية بقلم اريش ترونس .

وتحرك الحدث وتمضي به الى الامام : ما هو نوع الخلاص القريب ؟ ما هو مصير اليد التي اصبحت في سواد الفحم ؟ ماذا ستفعل الحية ؟

اما اليد السوداء فهي أظهر عناصر التوتر . ان العجوز قلقة على يدها ، تخشى ان يحل الموعد المضروب قبل ان يحمل لها الشفاء . اما الحية فهي تتوارى وراء الاحداث فترةمن الزمن ، ثم تظهر على مسرحها في شكل دائرة مسحورة تحيط بالجميع في انسجام ووئام ، وتحمل لهم النجاة والخلاص . انها تجعل من نفسها جسراً يربط بين الشاطئين البعيدين ، وما اشد افتخارها بذلك ! ولكنها سرعان ما تدرك ان فعلها هذا لا يكفي . انها تواجه الان صراعا باطنا يطالبها بان تتخذ موقفا قد يكون فيه فناؤها . فهي لا تستطيع ان توحد بين المتفرقين وان تبقى مع ذلك على حالها . ليس امامها اذن الا ان تضحي بنفسها ، وان تصبح شيئا اخر لا حياة فيه . فهل هي مقدمة على هذه التضحية ؟

ان الحكاية البهيجة ، ابنة الخيال الخالص ، تفسح المجال لموقف اخلاقي قد يكون من الصعب علينا ان نتوقعه في هذا المقام . ولكننا سنتبين في النهاية ان تضحية الحية ما هي الا عنصر من عناصر الخلاص الشامل ، وان مشكلة اليد المهددة بالزوال ستجد الحل الطبيعي لها من خلال التحول الاجمالي الذي يبشر الجميع بالنجاة . وهكذا يجد كل شيء مكانه المرسوم ، ويرتبط اصغر الاشياء باعظمها شأنا ، في وحدة منسجمة رائعة الانسجام . ما من عنصر يمكن الاستغناء عنه ، ولا من حدث يمكن اغفاله . فلا بد للحية من ان تضيء المعبد ، وان تلتهم الذهب ، لكي تتمكن الزنبقة من الاجتماع بالملوك في معبدهم المقدس . ولا غنى لها في سبيل ذلك عن الانوار التائهة التي تتولى عنها التهام الذهب . ولا بد لهذه الانوار التائهة بدورها من عبور النهر . فكل حدث يفترض الحدث الذي يليه ، حتى اذا قام كل بدوره — حتى الانوار العابثة ظهر انها لا تخلو من طيبة القلب ! — واتحد الجميع في نهاية الامر ، زال القانون القديم ، وغمرت الجميع حالة من السعادة الخالصة ، لا وجود لها الا في الحكايات والاحلام والاساطير .

كل الاحداث التي تصفها الحكاية تظهر في صور حية بهيجة الالوان . فالصقر الذي يرف في الهواء تنعكس عليه اشعة الشمس الغاربة فتكسوه بلون قرمزي ، والجسر يشع في ظلمة الليل كأنه عقد متألق من النجوم ، وحركة المعبد والشخصيات تتم في مكان شفاف منسوج بخيوط الاحلام . هذه الصور والشخصيات جميعا يغمرها « النور المقدس » كما يحدد اتجاهها ومصيرها . اما الذهب فينعكس في رمز الفاكهة . وكل هذه موضوعات رمزية ترد في صورة مشابهة في فاوست الثانية وفي سواها من اعمال جوته .

فالسر المكشوف الذي يتحدث عنه العجوز تعبير يتردد كثيرا في كتابات جوته ، فتتناوله احدى قصائده الفلسفية التي تحمل عنوان « ابيريما »★ وتلخص تأملاته في الطبيعة والحياة :

عليك عندما تتأمل الطبيعة
ان تنتبه الى الواحد كما تنتبه الى الكل ،
لا شيء في الداخل ، لا شيء في الخارج .
لان ما هو في الداخل فهو كذلك في الخارج .
فضع يدك بغير ما تردد
على السر المقدس المكشوف
ابتهجوا بالمظهر الحق
وباللعب الجاد ،
ما من حي في واحد
انه على الدوام كثير .

كما يقول في الديوان الشرقي على لسان حافظ :

سر مكشوف

سموك ، يا حافظ المقدس
اللسان الصوفي ،
ولم يعرفوا ، وهم علماء الكلام ،
قيمة الكلمة .
انت عندهم متصوف ،
لانهم يحسبون ان الطيش عندك
ويشربون على اسمك ،
خمرهم العكرة .
لكنك متصوف نقي
لانهم لا يفهمونك ،
انت الانسان المبارك
وان لم تكن تقيا !
وذلك ما لا يريدون
ان يعترفوا لك به .

ويقول في « الحكم والتأملات » : « ان من تبدأ الطبيعة في اماطة اللثام عن سرها الظاهر المكشوف له ، يحس بشوق غلاب الى الفن انبل مفسريها . »

ان مطالعة وجه الله ورؤية ما وراء العالم في كل ما هو ارضي مباشر هو فعل صوفي او سر مكشوف لا يتفتح الا بالدهشة . فالدهشة هي الطريق الوحيد الذي يمكننا من ان نرى الوجود الحق في ما يعطى لنا كل يوم ، وان نعرف السر الذي يربط الشيء الصغير بالروح الكوني الكبير . والدهشة★ التي تهز كياننا نوع من الارتعاش ، يعبر عنه فاوست في الجزء الثاني من المأساة فيقول :

على انني لا افتش عن نجاتي في الجمود
الارتعاش هو خير ما في وجود الانسان
(فاوست الثانية — البيت ٦٢٧٢)

★ راجع اعمال جوته ، طبعة هامبورج ، المجلد الاول ، ص ٣٥٨ .

★ راجع لكاتب السطور مقالا عن « الدهشة اصل الفلسفة » ، مجلة « المجلة » ، عدد اغسطس ١٩٦٣ ، القاهرة .

ولكن امثال هذه الصور الرمزية تتكشف فتصبح استعارات ، كما نرى في الحية عندما تتكور على نفسها ، وهي استعارة قديمة تدل على الصحة والحياة والخلود . والاستعارة ظاهرة كذلك في وصف الملـوك الثلاثة الذين تقابل معادنهم (الذهب والفضة والمعدن الخام) الحكمـة والمظهر والسلطان ، أو العقل والفتنة والقوة ، أو المعرفة والشعـور والارادة ، كما هي ظاهرة في العلاقة بين مملكة الحسيات (التي تمثلها الحية الخضراء) وبين مملكة الحرية او مملكة ما فوق المحسوس (التي تمثلها الزنبقة) .

ولكننا نخطىء اذا تصورنا ان بقية الصور التي تتتابع في كثرة مذهلة يمكن ان تحدد دلالاتها هذا التحديد . فلو فعلنا هذا لكنا كمـن يحاول معرفة السر بالعقل والاستدلال ، بينما الامر فيه متروك للشعـور والوجدان . ونخطىء كذلك لو حاولنا ان نعطي بعض الجمل التي تجري مجرى الحكم دلالات ثابتة . فحين يسأل الملك : « اي شيء اروع مـن الذهب ؟ » فتجيب الحية : « النور » ثم يعود فيسألها : « واي شيء اعذب من النور ؟ » فتجيب : « الحديث » ، أو حين يسألها العجوز : « علام صمتت ؟ فتجيبه قائلة : « على ان اضحي بنفسي قبل ان يضحى بي » ، أو حين يقول العجوز ذو المصباح للفارس الجميل : « ان الحـب لا يتسلط ، ولكن يربي ، وهذا أكثر . » سنجد انفسنا في حيرة من هذه العبارات جميعا ، فلا ندري كيف نفسر علاقتها بالحكاية في مجموعها . ان الحديث الذي تشير اليه الحية هو هنا نوع من التفاهم والتجـاوب بين السائل والمجيب ، ولون من الالتقاء بين من يتحدث ومن يستمع اليه. انه يصل الى ذروته في الحب ، وهذا يؤدي الى التضحية والفداء . وتضحية الحية بنفسها هي التي تتوج الحكاية ، وتخلق روح التجانس التي سترفرف على الجميع ، وكذلك لا يخرج الضد الا عن ضده ، ولا تولد السعادة الا من اعماق الشقاء .

مزيج عجيب من جميل ونادر ومضحك ومدهش تروى كلها فـي مستوى واحد وعلى وتيرة واحدة . فالمضحك لا يضحكنا بالمعنى المألوف لنا في حياتنا اليومية ، والمدهش لا يثير دهشتنا ، وكل ما هو جميـل او نادر فهو شيء نتوقعه سلفا في عالم الاحلام . هنا ينطلق الخيال فيلعب في حرية وبراءة ، وينثر صورة سحرية وراء اخرى ، خالصـا من قيود الواقع وقوانينه (وان لم يخلص من قوانين الافكار) حتى يشبه ان يكون لحنا موسيقيا او تأليفا غريبا من يد رسامي الرموز والاحلام . هي اذن مملكة احلام ، وهي في الوقت نفسه صورة عقلية عالية لا تعليم فيها ولا عظات ، بل لعب خالص من كل هدف ، يحاول ان يربط الكائن المحدود بالعالم غير المحدود .

لقد نسجت الحكاية من رموز عاشت في ضمير الانسانية من الاف السنين ، ورددتها الشعوب في اساطيرها وحكاياتها وخرافاتها واشعارها وفنون سحرها . فالحية والنهر واللهب والذهب ... الخ تنبع مـن هذا النبع الحي القديم . ولكن الحكاية تحاول الى جانب ذلك ان تجيب على السؤال الخالد عن جوهر الانسان ومصيره ، وعن موقفه من هـذا العالم وواجبه فيه . فالانسان خالق الحضارة هو الكائن الوسط الذي يقف بين شاطئين ، ويعيش بين طرفين ، ويتأرجح بين لامتناهيين (كما عرف اليونان وكما قال باسكال في عبارته المشهورة) ، بين الهوة والقمة، والحيوان والاله ، والضعة والكمال . والحكمة كلها في اقامة الجسـر الذي يربط بين شاطئي نهر الحياة : بين الطبيعة والفن ، والارض والسماء، والليل والنهار ، والواقع والمثال . ولكنه لن يقيم هذا الجسر حتـى يدفع الثمن من حياته ودمه . ولقد ضربت الحية له المثل الرائع الاليم ، فعرفت « حين آن الاوان » كيف تضحي بنفسها في سبيل غيرها ، وتبني من جسدها تلك الدائرة المسحورة التي تضم السعادة والتجـانس والكمـال ..

عبدالغفار مكاوي



أديبات من سوريا

بقلم عيسى فتوح

كان ذلك (١) قبل ستة وعشرين عاما ، يوم ولدت لسلمى رويحه واحمد السمان طفلة اسمياها « غاده » ... شعرها وعيناها بلون العتمة ، اما بشرة وجهها فبلون البن او الذهب المحروق ... وما ان ترعرعت الطفلة حتى طفق ابواها يعلمانها الفرنسية ... فقد كانت والدتها استاذة للعربية والفرنسية في الكلية العلمية الوطنية ... ومرة رأى الدكتور أنور حاتم والدها يحملها ، وحدثته بالفرنسية ، فابدى دهشته لذلك ، لكنه حذر الابوين من أن نطقها بالعربية قد لا يستقيم ما لم تتعلمها باكرا ... ومن يومها بدأت امها تعلمها القرآن عن ظهر قلب ، فهمته ام لم تفهمه ... ليستقيم نطقها ، وتفصح عبارتها ، وتسلم من اللحن ... لكن توفيت امها وهي في الخامسة من عمرها ودفنت في اللاذقية ، مسقط رأسها ، فكان لوفاتها صدى مفجع في نفوس الكثيرين ... رثاها في حفلة تأبينها الدكتور زكي المحاسني ،والشاعران انور العطار ونزار قباني ، وكان من جملة ما قاله نزار في قصيدته التي لم تنشر ، وهو يومئذ شاب صغير في العشرين من عمره :

قد تنبأت بانهيارك قبلا — رب حلم يفوق كل يقين
اتذكرت مجلسا قلت فيه : — شاعري ان صرعت هل ترثيني
قلت : تفديك اغنياتي الطرايا — ودعيني من السواد دعيني
لا تقولي اموت عيشي لطفلين — كتفتيح زنبقات الغصون

ذكرياتها عن امها كثيرة وواضحة حتى لتشبه الرؤيا ... تحس بارتباط غامض بينها وبين امها ... تعرف انها كانت مكافحة ، وتشعر بانها استمرار لها ، لرسالتها ، لادبها ، لرغبتها في بعث المرأة العربية بعثا جديدا مجديا ... تتصورها بشكل مشوش يقترب من اليقين .

ومرة ... ايام طفولتها ، كانت مسافرة مع ابيها لزيارة قبرها في اللاذقية ... وفي الطريق المقفرة ليلا سألت اباها عن امها ... فاشار الى نجمة في السماء وقال : هذه امك ... فصدقته يومئذ .. وبعد وفاة امها بدأت صداقتها مع ابيها ... كانت له كل شيء كما كان لها كل شيء ... غرقت في خضم من الدراسة كان يضم في اطاره تيارات كثيرة خفية ومختلطة .

درست في اللاييك حتى الصف الثالث الابتدائي دراسة فرنسية، ثم قضت عاما في الكلية العلمية الوطنية ، وعاما آخر في مدرسة الفيحاء، حيث نالت الشهادة الابتدائية في العاشرة من عمرها ... كانت في هذه المرحلة تتمتع بصداقة ابيها الرائعة ... ترافقه وتصادقه وتستفسر منه عن امور كثيرة ... كانت تعبد القراءة ... تلتهم كل شيء ... قرأت مكتبة كامل الكيلاني للاطفال برمتها ، وعرفت منذ تلك السن الآثار الادبية الرائعة مبسطة ... عرفت الملك لير ، وتاجر البندقية... وعرفت عوالم تشارلز ديكنز ، واجواء ويلز ، بشكل طفولي عابر ... وكانت تهوى قصص الساحرات والجنيات .

ثم تابعت دراستها الاعدادية والثانوية في تجهيز البنات الاولى بدمشق ، وفيها بدأت بدراسة اللغة الانكليزية التي اصبحت موضوع اختصاصها فيما بعد . لقد طالعت في هذه المرحلة كل ما وقعت عليه يدها دون نظام ... طالعت روايات بوليسية وعاطفية ، كرواية آلام فرتر ، وروميو وجولييت ، وعطيل ، وسيرانو دي برجراك ، وكثيرا من الكتب المترجمة ، الى جانب تعمقها في الشعر العربي القديم والنثر ، ككتب الجاحظ والمبرد وغيرهما ... وفي هذه الفترة ايضا كانت تكتب مذكراتها وتجد في كتابتها دواء لها من مرض الحساسية ، من التفجيرات الخرس العجيبة ، وفورات التمرد والنقمة .

عندما بلغت الرابعة عشرة من عمرها بدأت مذكراتها تتحول ـ دون ان تشعر ـ الى تلوين او تضخيم لبعض الحوادث ، وتغفل اشياء اخرى ... كانت احيانا تكتب اشياء لم تحدث ، لكنها تعيشها كما لو كانت قد حدثت ... تكتب حكاية انفعالات انسان غريب ، امام حادثة تخصه ، كأنها حادثتها ... وبعد فترة تعلقت بالكتابة الى حد غير معقول ، حتى انها اصبحت لحظاتها الحقيقة الوحيدة ، وخصوصا حينما اكتشفت انه من الصعب ان تتفاهم مع الكثيرين ، فكانت تلجأ الى الورق لتكتب ، وتهرب الى الكتاب لتقرأ .

وخلال هذه الفترة ، اي في الرابعة عشرة من عمرها ، واجهت مشكلة كبيرة ، حينما نالت الشهادة الاعدادية (الكفاءة) فقد كان عليها ان تختار بين الفرع العلمي والفرع الادبي ، اي كان عليها أن تحدد حياتها ... وطيلة هذه المدة كان ابوها يحاول ان يغرس في نفسها رغبته في ان تدرس الطب ، ولكنها كانت تحس بانحراف غريب نحو الادب ، واحاديث الادب ، وكل ما يمت للادب بصلة ... واخيرا اذعنت لمشيئة ابيها ، ودرست البكالوريا العلمية ، وفازت بها بدرجة جيدة... لكنها عندما دخلت الجامعة ، لم تستطع مقاومة نفسها اكثر ، فاختارت دراسة الادب الانكليزي ، وتركت لاخيها مهنة الطب .

كان ابوها مرافقها وصديقها دوما ... يقضيان الاوقات باكملها معا ... يخرجان للمشي على الاقدام مسافات طويلة ، ويمارسان رياضتهما معا ... يسبحان ... يصطادان ... يسافران .. كانت كأي « رادار » حي ، تتأثر بأي شيء ثم تعكسه في كتاباتها التي كان يشرف عليها ويشجعها ، فقد بدأت بعد الكفاءة تكتب الشعر ...

علمها ابوها كم هي جميلة بلادها ، في القدموس ، في غابات كسب ، في بحر اللاذقية ... وعود اذنها منذ الطفولة على حب الفن وتذوق الموسيقى الكلاسيكية ، والموشحات الاندلسية ... وكثيرا ما كانا يتناقشان في قضايا الوجود والله والمنشأ ... لكنه لم يحاول مرة ان يفرض عليها رأيا وانما كان يذكر لها دائما ما قيل في هذه المجالات كلها ، ووجهات النظر جميعا ... وكان اساتذة الجامعة من اصدقاء ابيها اصدقاءها ، فعاشت في جو فكري معين ، قد يكون فيه بعض القسوة على سنها ، لكنها كانت تحبه ، لانه عودها على المجاهرة بالرأي، وعلى البحث عن الحقيقة ... لم يشعرها ابوها بعقدة كونها انثى ، لانه كان يمنحها دائما حقوق اي صبي في مثل سنها ، فعشقت الحرية الحقيقية التي تتضمن مسؤولية كبيرة امام نفسها وامام الاخرين .

لقد اشترى ابوها مزرعة صغيرة رائعة يخترقها نهر بردى ،وتحيطها

(١) فصل من كتاب بهذا العنوان سيصدر قريبا .

الخضرة والازهار ، وابتنى دارا ريفية على صخرة كبيرة وسط النهر... وهناك كانت تقضي الصيف ... وتواجه جمال عري الطبيعة ، وجمال صدقها ووضوحها وجبروتها ، وهناك عشقت الصدق والحقيقة ، وآمنت بان رسالة اي فنان هي البحث عن الحقيقة ... وهنالك ايضا كانت تكتب اشعارا كثيرة تريحها من ضيق خفي ... وتتفجر باكية احيانا حينما تحس حنينا غامضا مؤلما الى اشياء خفية وبعيدة يعجز الحرف عن التعبير عنها ، كانت تكتب والدموع تسح من عينيها ، دونما سبب واضح ... كانت في تلك المرحلة شفافة وحزينة ، لا كما هي اليوم صلبة وحقيقية ومعتدة بانسانيتها ... كانت تبكي جمال اللحظات ، وجمال المكان الذي لا يدوم ... تبكي صفة الفناء التي تلازم جمال الاشياء ، وكانت عندما تكتب الشعر تحس بخيبة عميقة بعد الكتابة،لان رخاوة الاسلوب بالنسبة لحرارة الاحساس ، كانت تفجعها انذاك ، فآمنت بان عليها ان تقرأ كثيرا ، وان تعيش اكثر ، وان تواجه المدينة ولا تهرب الى « يوتوبيا » المزرعة الحلوة .

وفي مطلع عامها الدراسي الاول خطبت ، وتزوجت في نهايته ، لكنها ثابرت على دراستها الجامعية ... دام زواجها اقل من عامين ، ثم افترقت عن زوجها بالطلاق بعد فحص الليسانس باسابيع ، وكان ابوها طيلة هذه الفترة صديقها الوحيد ... وبالاجمال فقصة زواجها وطلاقها غامضة تحوطها الشائعات والتخمينات ولا احد يعرف عنها شيئا.

كان لهذه التجربة التي عرفت فيها الحياة والناس بشكل واسع ، ولدراستها الادبين الاميركي والانكليزي في الجامعة ، اثر عظيم في نفسها وكتابتها ... اذ صارت لها رسالة واضحة ... عرفت معنى الجراة ، ومعنى الكفاح ، ومعنى الثمن الذي ندفعه لنخلص من الخوف ، ومن ازدواج الشخصية . لقد توقفت نهائيا عن كتابة الشعر ، وبدأت تكتب القصة ، وكان قالب النثر يترك لانفعالاتها المحمومة وارائها الثائرة حرية كاملة في ان تنفجر وتهيم بحرية مطلقة ... كما أن دراستها للادب الاجنبي والعالمي والنقد واسسه ، علمتها ان الموهبة ليست كل شيء ، ولا تستطيع ان تبدع اذا لم ترفدها الثقافة ... بدأت تحس بالحاجة لان تخلق شيئا جديدا ، لان تفجر طاقات لغتنا العربية الرائعة وتبرز حيويتها ومقدرتها على تأدية افكار جديدة ... ولذا يلاحظ النقاد ان لدى غاده لغة مختلفة جديدة .

كتبت في هذه المرحلة عددا كبيرا من القصص لم يره الا اصدقاؤها المقربون جدا ... كانت تكتب وتمزق دونما اسف ، وترفض عروضا كثيرة من عدد كبير من الاصدقاء للنشر ... ولم يخطر لها ان تنشر ... كانت رسالتها هي البحث عن الحقيقة ، وايجاد الاسلوب الذي يليق بها لنشرها على الناس ، وكانت قراءتها الكثيرة المستمرة للاداب الاجنبية من يونانية وافرنسية تجعل الغرور لا يعرف الى نفسها سبيلا .

وتم طلاقها عام ١٩٦٠ ، كما حصلت بعد ذلك بشهر على الليسانس في الادب الانكليزي بدرجة جيد ، وفي مواد الاختصاص كالادب الاميركي بدرجة الامتياز ، والادب العالمي والنقد بدرجة جيد جدا ... ويتساءل الكثيرون كيف استطاعت ان تثابر على دراستها بهذا الشكل رغم زواجها ورغم عملها كموظفة في جامعة دمشق ... لقد واجهت الحياة بصراحة وفهم ... عملت في القصر الجمهوري ، سكرتيرة في المكتب الصحفي عام ١٩٦٠ ، وظلت فيه حتى اواخر نيسان ١٩٦١ حيث وجدت نفسها في جو ادبي وصحفي ، ولسبب ما اقدمت على النشر ، وقررت ان تبدأ معركة جديدة ... نشرت قصة ثم نقدا ، ثم خواطر ، ثم واصلت الكتابة والنشر الى جانب قراءاتها المستمرة واعادتها النظر في كثير من المفاهيم، محاولة الوصول الى مواقف نهائية من المجتمع والوجود .

من جملة الاشياء التي كتبتها سلسلة من الخواطر نشرتها في جريدة « الوحدة » فاحدثت صدى قويا ... كتبت مرة مقالا بعنوان « فلنصلِّ من اجل الجارية التي تجلد » وهاجمت فيه بنات مدينة « حماه » اللواتي رفضن حق ممارسة الانتخاب ... مما اثار حفيظة بعض الناس ، فهوجمت ، وطبعت احدى الجمعيات الدينية منشورا وزعته ضدها في حملتها الانتخابية ... واثار ذلك عنادها واعتدادها وعوضا عن الصمت كتبت مقالا اخر بعنوان « فلنطالب بتحرير الرجل ايضا » فاثار المقال ضجة عنيفة لما فيه من مطالبة بحرية المرأة واعتبار خطيئتها مساوية لخطيئة الرجل،عكس ما هو موجود في مجتمعنا الحالي.

في نيسان ١٩٦١ تركت وظيفتها في القصر الجمهوري ، وعملت في المكتب الصحفي لمؤسسة المشاريع الكبرى ، الى جانب عملها في الصحافة مراسلة لدار « اخبار اليوم » القاهرية ، وقد نجحت في عملها الصحفي حتى ان بعض دور الصحف اللبنانية عرضت عليها العمل فيها مقابل مبلغ وافر .

وفي مطلع العام الدراسي ١٩٦١ - ١٩٦٢ لقيت تقديرا كبيرا من كلية الاداب في جامعة دمشق ، حيث عينت استاذة محاضرة للغة الانكليزية في كلية الاداب نفسها ، ويقال انها اصغر استاذة فيها . ثم اشتركت في مسابقة اجرتها كلية الحقوق لتعيين مثقفة للطالبات في اذار ١٩٦٢ فنجحت وتركت على اثرها عملها في مؤسسة المشاريع الكبرى ، ثم اصدرت في الشهر نفسه مجموعتها القصصية الاولى (عيناك قدري) وهي الان تحضر للماجستير في الجامعة الاميركية تمهيدا لسفرها الى اوروبا للحصول على الدكتوراه في الادب الانكليزي،وتعمل في الاكثر من صحيفة او مجلة لبنانية ، وقد اصدرت منذ اشهر مجموعتها القصصية الثانية (لا بحر في بيروت) .

***

ولعي بادب المرأة ، وادب المرأة الشامية بخاصة ، ولع كبير حتى ليكاد يطغى على اي ولع اخر ، بالرغم من تعدد الاهتمامات ، واختلاف الوانها عندي ... ولعل هذا الولع وهذا الاهتمام هما اللذان دفعا بي لرصد حركة الادب النسوي المعاصر في سوريا وتعقب كل ما انتجته اقلام كاتباتنا خلال السنوات الاخيرة ... بيد اني لم اشهد غزارة في الانتاج ، ولا طوفانا في النشر مثلما اشهد اليوم ... لا اكاد افتح مجلة ادبية دورية ، او صحيفة سياسية كانت ام ادبية ، حتى يطالعني اسم جديد في هذه الزاوية ، واخر في تلك ، تذيل به هذه القصيدة او تلك المقطوعة النثرية ، او هاتيك القصة او الاقصوصة ... ولقد تأفف البعض وامتعض ليس للغزارة فحسب ، بل لهذا التعجل في النشر بغية كسب الشهرة العريضة ، ولو بطرق ملتوية يعرفها اكثر الذين يختبئون وراء قبضة الاقلام الانثوية الطالعة ... ولكن لا هم فالزمن وحده كفيل بابقاء الصالح الجيد ، وافناء الفاسد والضعيف .

صحيح ان التطبيل والتزمير قد يلفتان نظر غير الواثق ، ويخلقان الاثارة في النفس ، غير ان الاثارة الاتية من الخارج لا يدعمها ايمان ذاتي عميق ، ولا شعور نابع من الصميم ، سرعان ما تزول كسحابة الصيف... فلنترك اذن اساليب الدعاوات الرخيصة ، لنفسح المجال امام القارىء كي يعرف ماذا يختار ... ماذا يهمل وماذا يأخذ ، ماذا ينفي وماذا يعد... وعند ذلك يستفيق من وهمه الخادع ، وينتقي الاجود والاحسن من غير دليل ... ولو كان في بلدنا نقاد منصفون موضوعيون ، نقاد يحملون مبضع النطاسي لا مدية الجراح ، وقيثارة العازف الفنان لا ربابة المداح المرتزق ، لاعتمد القارىء عليهم في ما ينتقي من كتب لرحلته الثقافية الطويلة .

***

في خريف عام ١٩٥٦ تعرفت بغادة السمان ، وكنا طالبي علم في « شهادة الثقافة العامة » ، بالجامعة ، نتلقى هذا الخليط المتنافر من الدروس تمهيدا للاختصاص ... كانت غاده عامذاك تكتب بصمت وتخف وخجل ، محاولات شعرية تطلعني عليها وهي تأبى نشرها ... كما كنت اطلعها على ما اكتب ... وراحت الايام تنطوي ومحاولات غاده تزداد نجاحا وعمقا ، عندما شاءت ان تدرس الادب الانكليزي ... فاذا بالمحاولات تصبح قصصا موفقة في قالب شعر ، يقرؤها الناس فيعجبون

ويدهشون ... يعجبون بالحساسية والرهافة ، ويدهشون باناقة اللفظة ، وجمال الصورة ، وبراعة التحليل ، وعمق الفكرة ... فغاده تتميز عن باقي الاديبات بانها كاتبة « انفعالية » تسكب عصارة قلبها وروحها في ما تكتب ، دونما تكلف او تمثل ... كل ما فيها ينبض بالحرارة ، ويلهث بالدفء ، كأنها جبلت منهما ... تغريها شفافية الكلمة ، فتعيش في سحرها ، ويجذبها الرمز احيانا ، فتلوى اليه متحاشية غموضه ... ما اجمل التشابيه ترشها هنا وهناك مساكب ورد وبنفسج ... فخصر فتاتها النحيل كطوق الياسمين ، وهي تعاتبه كعصفور فاجأه الربيع ... وعينا « عماد » تجوسان وجهها كعاصفة عطر مثيرة ... والارقام ترقص في الصفحات كديدان مرعبة ... انها فنانة في سوق التشابيه الناعمة ... غايتها ان تظهر للقارىء مدى الذوق في توزيعها ، ومدى اللطف في جمالها ، ومدى الروعة في دقتها .

والى جانب ذلك فهي تعنى بالصورة عناية فائقة ... تكدس الصور ، تفجرها ، تأتي باكثر من لوحة واحدة في السطر ... علها تمتص شيئا من زخم الاحساس ، وتطفىء ولو قليلا من لهب الانفعال المتأجج ... لكنني لست ادري كيف استطاعت غاده ان توفق بين التأثر الشديد والعمل الفني وهذا الاخير يحتاج اكثر ما يحتاج الى الاناة والروية وهدوء النفس ... ذلك لان التأثر الشديد كثيرا ما يجمد الخيال ويمحوه . وفي هذا يقول سعيد عقل : « لم يقم اثر فني او عمل عظيم في حالة هياج . فالفن نتيجة الهدوء وعمل لا واع » .

ولقد ادرك الاستاذ محمد حيدر هذا او قريبا منه ، فاشار الى انه « لا يمكن ان تتوقع تعبيرا عقليا من كائن انفعالي : فعندما يتأجج الانفعال في النفس ، فان التعبير اللغوي لا يستطيع ان يستوعب خلجات الانفعال، لذلك فان انبثاق الصورة الحسية بما لها من كثافة مادية وايحاء ، منفذ ملائم للانفعال المستعر في اعماق صاحبه ، وهو امر ملحوظ في الحياة، فالشخص الذي يشعر بان اللغة لا تستطيع التعبير عما يريد ، يستخدم الاشارة والتعبير الحسي ، وكثيرا ما تستخدم الجماهير هذا الاسلوب ، وقد برعت الكاتبة في استخدام هذه الصور التي تكاد تملأ صفحات المجموعة » (١) .

ومهما تكن الغاية من تكديس الصور والتشابيه ، فاغلب الظن ان مثل هذا العمل كان يضطرها الى اعادة النظر في ما تكتب اكثر من مرة ، وفي كل اعادة تحصل اضافات ، وتعديلات ، فقد تبدل صورة باخرى ، وقد تحذف هذا المقطع او ذاك ، الى ان يستوي ، ويأخذ شكله النهائي ، شأنها شأن كل كاتب ينقح ويحكك ، ويأبى ان يلقي بعمله الى الناس غفلا ، او كما جاء في صورته الاولى .

ان حدة الانفعال هي التي جعلت عبارتها دائما تتقطع ، ونفسها ينهدج ، كمن يعترف والخوف باد على سحنته ، تقذف الفاظها قذفا يغنيها عن ادوات الربط . وترد السيدة وداد سكاكيني هذا التخطف في عبارتها الى « تلك الموجة الجديدة الوافدة التي شاعت في الشعر والنثر لدى طائفة من الادباء الشباب ، كان من سماتهم القلق في التفكير والاداء ، وهو تعبير متلاحق ، متقطع الانفاس ، يشبه الصور التي تعرض بالفانوس السحري ، اذ ان كل صورة على جمودها ، لا تتصل بالاخرى فاين من ذلك مشاهد السينما الحية الناطقة التي تشبه التعبير السلس المترابط ... انه لو عرف هؤلاء فن الوصل والفصل في البلاغة العربية ، لما فضلوا هذا التخطف والتخفف في التعبير الوافد الذي اخذ يسري في ادب القصة الغربية التي تحتذي التكعيبية في مذهبها ، وكتابها ينفلتون بالوانهم على هواهم ، في التعبير عن نقمتهم على العادات السائدة ، وقد اتخذوا الوصف المتقطع وسيلتهم الى الانطلاق، دون التقيد بفكرة يدورون حولها » (٢) .

(١) مجلة الاداب . حزيران ١٩٦٢ ص : ٣٢

(٢) مجلة الاداب . نيسان ١٩٦٣ ص : ٤٢

فاذا وضعنا ذلك الى جانب عنايتها بالصور ، ادركنا الى اي حد تنهك القارىء وتتعبه ، فهو مضطر دوما لان يلاحقها بخياله ، يطير حيثما تطير ، ويفرد جناحيه حيثما تفرد ، وبغير ذلك لا تحصل عنده المشاركة الوجدانية ... الانفعال المطلق يستحيل ان يستوعبه اللفظ مهما كان مثقلا بالصور ، مفعما بضروب البيان ... لقد بقيت الصورة عند غاده وسيلة لا غاية ، فلم تطغ على الفكرة ، ولم تنازعها حقوقها في ان يبقى لها مكان الصدارة ، بل جعلت العنصرين يتماشيان ويتآزران لابلاغ القصد ، فهما عندها كشقي مقراض يتعاونان على القطع ، ولا يدرى ايهما اقطع .

فاذا رجعنا بعد هذه الجولة الى قصة (عيناك قدري) التي سمت باسمها الكتاب ، رأينا ان محور القصة هو عينا عماد ، لا تفتأ ترجع الى ذكر تلاشيها ازاءهما كلما شطت ... حتى لكأنهما لازمة شعرية اذا صح لنا ان ندخل اللازمة في القصة ... عينان استحالتا الى كابوس حلم يظل يلح ويلح ... كلما حاولت ان تهرب منه انتصب امامها كالمارد الجبار . لقد ذكرتني هاتان العينان بغراب الشاعر الاميركي ادغار البو، كلما اراد ان يفلت منه عاد اليه باسرار وتحد وعناد وصاح : هيهات .

وكان بو يقصد بالغراب محبوبته « الينور » التي فجع بها، فامتزج شبحها بدمه وراح يعذبه بمرارة .. وهكذا عينا عماد « ترصدانها ، تلاحقانها ، تثيران حنينها الى رائحة شبابه ... عينان تطلان من كل شيء ... من الجدران حولها ... من وجوه العابرين ، من اصابع يدها التي تحاول ان تمسح بها النار عن جبينها ، عن معطفها حول رقبتها ... عيناه حارتان ، عاتبتان ، ممزقتان ... عيناه بكل ما فيهما من قوة حنان وثقة واحلام ... عينان تطلان من كل شيء مجنونتين قاسيتين ترصدانها كقدر لا تستطيع ان تهرب من عتابهما اليائس » .ثم تبلغ غاده ذروة التمرد والشموخ عندما تجأر « يا عينيك ... يا افاق الرعب ... الى اين اهرب ؟ » ... صرخة مفجعة يرسلها اليائس عندما لا يرى مهربا ... صرخة تزلزل افاق الدنيا ، صرخة الميت في هوى العينين النفاذتين ... غير انها تعود لتستسلم وتلقي السلاح عندما يقهرها طغيانهما ... وتتسرب في جدول شرقيتها المعروف — ان ترتمي في احضان القضاء والقدر ، فتقول في حرقة المنكسر : « عيناك قدري ... لا استطيع ان اهرب منهما ، وانا ارسمهما في كل مكان ، وارى الاشياء خلالهما » .

لله در هاتين العينين ما كان اغناهما ... وما كان اندى كفيهما على الادب ... منهما انطلقت غاده تكتب ... من قرارتهما نبعت غاده الاديبة، فرحم الله جريرا اذ قال :

ان العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

لم تقتل غاده بالعيون كما قتل جرير ، بل لملمت اشلاءها ،وراحت ترسم تجربتها على الورق قصة تلو قصة ، وخاطرة تلو خاطرة ... لم تتحطم ، ولم ترسل حزنها في كل مكان وجراحها ، بل راحت تزف للالم قصصا لا اعظم ولا اخلد .

مرة ... مرتين ... ثلاث مرات ... عشر مرات تضيع غاده في متاهات العينين الخضراوين ... ترحل معهما في غيبوبة شعرية لا واعية، ثم تستيقظ فجأة لترى امامها حروف الارقام في صفحات المصنف ترقص كديدان مرعبة .

ثمة شطحات امومية تلفحها بين حين وحين فتصور الامومة ابدع تصوير ... تغوص الى الاعماق ... فتستحيل الحروف ارياشا تحمل اللون والظل ، وتعين المسافات ... كانت كلماتها ، وهي تحلم بنفسها اما مقبلة ، تضع امامي لوحة « الامومة » التي تعد اروع واجل وامتع ما انتجه بيكاسو ... هنا القدرة ... هنا الفذاذة ... هنا الموهبة ... ان يستطيع الكاتب رسم اللوحات بالحروف ، مستغنيا عن الارياش والطلاءات .

كأني بغاده تؤمن بالايحاء ... بضربات الريشة الخفيفة التي تنفذ

الى اعماق الانسان ، بالكلمات المشحونة التي يأخذ منها كل انسان حسب حساسيته وقدرته ... تقرأ القصة من قصصها فتحس بالصور تتفجر امام ناظريك تفجيرا ... فكيفما لامس قلمها الورق رسم صورة ... لوحة كبيرة ... صغيرة ... لا تؤطرها ، وانما تترك اطرافها حرة ، لتشركك انت في وضع الاطار ، فقد تريده احمر او اصفر او اخضر ... اما هي فحسبها ان جعلتك تشاركها في العمل ، فلا تمل او تسأم ... تأسرك من اول القصة الى اخرها ... تدعوك فتستجيب ، لتغيب معها في تلك المتاهات الحلوة .. في تلك الرحلات القصصية الناعمة ، رحلات تنسى فيها واقعك ، وتحيا هنيهات مع الكاتبة ومع ابطالها ... ترصد باهتمام غرابة سحر العينين الخضراوين ، حتى صار يهمك ان تعرف اين ستنتهي قصة السيطرة ـ سيطرة العينين وكيف ؟ انها تخلق عندك فضولا كبيرا ... شوقا جارفا لتعرف نهاية سحر العينين ، وطغيانهما النزق القاهر الجبار المستعلي ... هل ستحطمان « طلعة » ؟ هل ستتركانها اشلاء ممزقة ، او ستخلفان لها بقية من ذماء الروح ؟

في فن القصة شيء نسميه « المماطلة » وهي ان يستطيع الكاتب حبس انفاس قارئه الى النهاية دون أن يسئمه ... يخلق في نفسه مئات الاسئلة ... ماذا ؟ ما عسى ان يكون ؟ اي شيء سيحدث؟والكاتب يمعن ... يغذ السير ... يماطل ... لا يريد ان يعطي الحل سريعا ... حتى يشعرنا بشيء من توتر الاعصاب ... كلما اوشكت العقدة ان تنحل ، زادها لفلفة وتعقيدا ، موه دروبها وضيع معالمها ... حتى يصل الى اخر الشوط منهكا ... عندئذ يبوح له بالسر في شيء من هدوء الاعصاب ، وبرود الانفاس .

لعل غاده استقت هذه الطريقة من الكاتب الاميركي هنري جيمس ، فهو في قصته (صورة امرأة) يحبس انفاس قارئه شوقا الى تتبع الشخصية القصصية ، حتى يجعله يتساءل : ما عسى ان تكون هذه الصورة ؟ وبعد هذا الحبس الطويل والتشويق المضني ، والمماطلة الماكرة ، يعود جيمس ليقول : ان الصورة هي صورة « اليزابث ارثر » ، وان هذه المرأة معقدة بطبيعتها ، وهذا الغموض هو الذي جعل « رالف توشيت » يترصد غموضها وشذوذها .

هنالك شيء اخر في قصصها ، اعني اللجوء الى الرمز ... وارى ان القصد منه هو عدم مصارحة القارىء بالاشياء الصميمة ، وبخاصة في القصة الاولى (عيناك قدري) ... فهي قصة الكاتبة نفسها هي بطلتها وشخص اخر يدعى « عماد » ... ويتضح للمدقق ان غادة هي البطلة في معظم قصصها تروي في كل قصة تجربة من تجاربها ،او حادثة من الحوادث التي مرت بها .

ان كاتب القصة لا يمكنه ان يستعير ابطاله من الخيال ـ ولو جرب ذلك لفشل ـ بل من الواقع ، ويشترط بسماتهم ان تكون حقيقية مئة بالمئة ، نراهم ونعيش معهم كل يوم ... انهم انا وانت والاخر .

لقد اتهم بعض النقاد غاده بانها تجري وراء الصنعة والتكلف والتعابير المنحوتة ، وبانها تلجأ الى العواصف اللفظية والتزويق الكلامي المفتعل ، والا كيف تستطيع ان تعطي هذه التعابير التي لا ينكر جمالها ؟ وقالوا عن اسلوبها انه « جبراني » وانشائي ، وظنوا ـ وبعض الظن اثم ـ ان محاولاتها في القصة ستبقى مجرد محاولات ، ما لم تتخل عن ذلك كله ... ولكن ليت شعري متى كانت القصة تقارير ورصف حكايات بالفاظ باهتة ليس غير ؟ هاكم كرم ملحم كرم ، وطه حسين ، وميخائيل نعيمه ، وشكيب الجابري ، الا يطعمون القصة باللفظة والصورة الملونة ؟ .

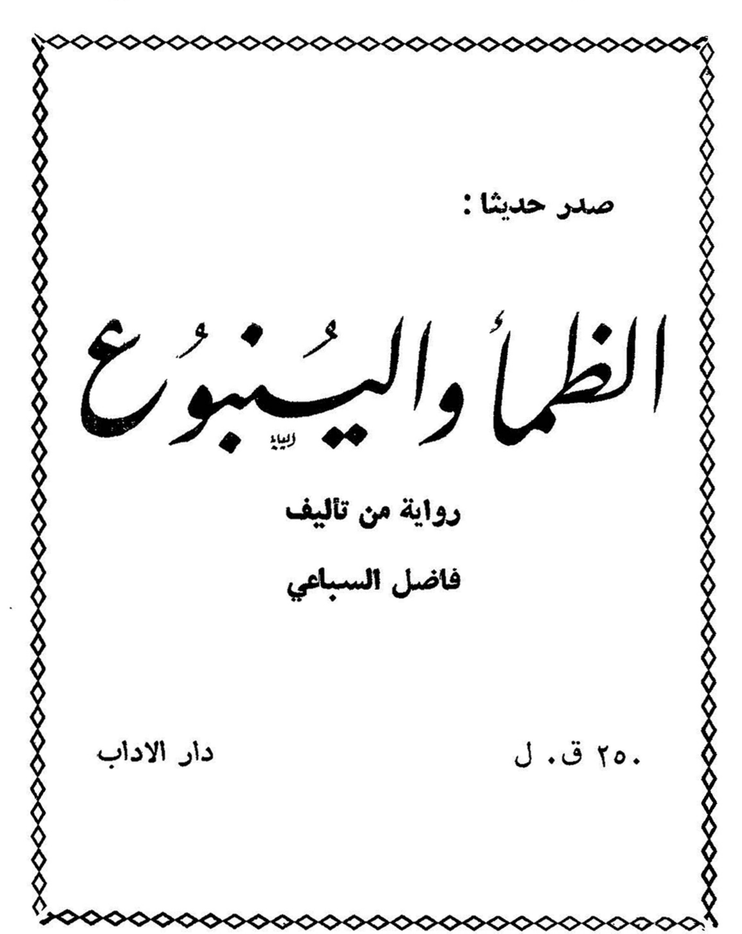
ان الاسلوب المغسول الذي يستعمله بعض كتاب القصة عندنا ، لا نغالي اذا قلنا انه اسلوب صحفي يعتمد على السرد الاعجف والرواية الهزيلة ... يلتقطون المشاهد ويقررونها في قصصهم ، كما يلتقطها المصور الفوتوغرافي عينا بعين ... لا حرارة ... لا زخم في الالفاظ والعبارات ... لا اغوار نفسية ولا ابعاد وجدانية عينا بعين ... لا حرارة ... لا زخم في الالفاظ والعبارات ... لا اغوار نفسية ولا ابعاد وجدانيه تختبىء وراءهما ... الكلمات لا توحي باكثر من مدلول حروفها ، ولا تحمل شحنات انفعالية زاخرة قادرة على هز القارىء واشراكه في ما يقرأ .

قصص هؤلاء واضحة صريحة ، نقرؤها فلا تحرك شيئا في كهوف وجداننا ، ولا تترك اثرا او انطباعا عميقا يذكرنا باحداثها بعد ان نطبق الكتاب ، ويقول اخر انها لا تقوى على الديمومة ... من هنا قفزت غاده بقصصها الى القمة ... من هذه الزاوية ... فشقت دربها بين عمالقة القصة في العالم العربي ، بهذا الاسلوب الابتكاري الفريد ... انه نسيج وحده ، لم نألفه عند كاتبة عربية من قبل ، الاسلوب الذي يعتمد على تفجير الصور والمماطلة والتشويق والاثارة المحرقة اللطيفة..تصف انفعالات ابطالها وحركاتهم المتعاقبة برشاقة العازف الماهر ... تغمس الفاظها بالوان الغروب حينا ، وبالوان قوس قزح حينا اخر ، وبالوان الطيف حينا ثالثا .

الفاظ مضمخة ، يأخذك ترفها ، وتستهويك اناقتها ، دون ان تحس في طياتها فتر الشهوة او عربدة الجنس ... ان غاده كاتبة من نوع فرويدي ستطعم ادبنا العربي باعماق لا اوسع ولا ابعد ... ابعاد يحلم بها كتابنا ، ولكن ثقافتهم العربية الصرف ، واطلاعهم المحدود ، يقفان دون الوصول اليها .

لقد انصبت في اسلوبها روافد الاساليب العربية والاجنبية ، فاخذت من لورانس ، وولف ، وهنري جيمس ، وديكنز ، وويلز ، عمق الافكار وغناها . ومن القرآن الكريم جمال الالفاظ وسمو البيان ، ثم صهرت ذلك كله في بوتقة كبيرة من التجارب الحياتية المتسمة بالعنف وحدة الصراع .

دمشق — عيسى فتوح





الإجازة ...

قصة بقلم عبدالله خيرت

ظهر الاعلان الكبير فجأة على جانب الطريق الزراعي .. كان منتصبا فوق ثلاث قوائم طويلة مغروسة في الارض الخضراء .. ولانه كان وحده في هذه المنطقة فقد بدا واضحا مثيرا ... وحين اقتربت منه سيارة الاوتوبيس ابتسم له صابر في ود كأنه يرحب بصديق ساقته الصدفة السعيدة .. انه هو نفس الاعلان الذي يعرفه جيدا .. الفتاة اللطيفة تضحك بسعادة وهي تمسك بيديها كرة مخططة كبيرة كأنها ستقذف بها كل من ينظر اليها .. والكلمات نفسها .. الكلمات التي لا زالت تضيء في خياله وتملأ احلامه ويعيش في جوها « استمتعوا بالهدوء الساحر في رأس البر ... » وامام الاعلان تماما هدأت السيارة من سرعتها وانحرفت الى الطريق الضيق ثم انطلقت من جديد تسبق الاشجار والبيوت والناس وتترك الهواء يصفع بقوة وجوه الركاب وملابسهم ...

وفكر صابر وهو في مقعده المريح بالصف الامامي يلتهم بنظره كل شيء ويتمنى لو ان له الف عين في كل اتجاه حتى يعي هذا السحر الذي لا ينفد .. فكر في هذه الرحلة التي لم تكن تخطر بباله ابدا .. لقد كان يحلم احيانا وهو يحترق في شوارع القاهرة بزيارة بور سعيد او الاسكندرية ، اما رأس البر هذه فقد كانت بعيدة عن ذهنه تماما .. انه هذا الاعلان وحده .. نعم هذا الاعلان هو الذي اشار عليه بتلك الرحلة ..

فمنذ خمسة ايام كان في بوستة العتبة ليرسل المبلغ الصغير الى اهله كما تعود ان يفعل في اول كل شهر .. وكان قادما لتوه من الجمعية التعاونية بالسيدة زينب حيث يعمل ولا زال في ذهنه صراخ الاطفال والخادمات والنساء وكل قسوة جمهور الجمعية التعاونية وظلمه واستغلاله السيء للافتة الزجاجية الموضوعة امام الباب الرئيسي «نحن في خدمتكم » .. وكان صابر في هذه اللحظة ناقما على الجمهور والحر والزحام وعلى اليوم الذي اختار فيه مدرسة التجارة .. وظل واقفا في الصف الطويل متململا ضجرا اكثر من ساعة نصفها في الشمس .. ومثل كل مرة حاول بعض الواقفين ان يتقدم دوره واحتج صابر وغضب ولكنه سكت حتى يقول غيره ما يريده هو تماما « الله .. يعني احنا اللي فاضين ؟ ما فيش نظام ابدا ؟ » .. وحين وضع الايصال في جيبه احس بارتعاشة فرح صغيرة وتمنى لو انه يملك نقودا اكثر ليرسلها اليهم وود لو يراهم جميعا الان ويجلس معهم مدة طويلة يتحدث ويلعب مع اخواته الصغار .. ولكنها لم تكن الا لحظة قصيرة فقط ثم تذكر الرسالة التي ستصله منهم بعد ايام فارتسمت على وجهه تكشيرة قاسية واحس ان الجو شديد الحرارة وانه سيختنق من الزحام وعاد الصداع الذي لم يعد يجدي معه شاي او اسبرين يحطم رأسه من جديد .. وصعد الى غرفته بالدور الخامس فوق السطح وهو يقرأ الكلمات التي تتكرر في كل رسالة « اهتم بنفسك .. لماذا ترسل لنا نقودا .. نحن بخير وحالتنا طيبة جدا جدا !؟ هه .. جدا جدا .. كله كذب وكلام فارغ اصبح يؤلمه ويثير اعصابه .. لقد كانت تجتاحه في كل مرة رغبة عنيفة في ان يمزق هذه الرسالة او يحرقها قبل قراءتها ولكنه لم يفعل ذلك ابدا .. كان يمسكها باصابع مرتعشة ويعلقها في الضوء امام عينيه ثم يفتحها بحذر ويظل يلتهم سطورها بقلق بالغ مرات

كثيرة ... وفتح باب الغرفة فخيل اليه ان حرارة النهار قد انحطت فيها فجذب الكرسي وجلس امامها مرتفقا سور السطح .. كانت الشمس قد بدأت تغيب وميدان التحرير ـ كما يحس بأذنيه وعينيه ـ يملأه صخب كل يوم ويبدو كما لو ان فيه معركة لا تنتهي بين كل شيء .. وفكر صابر بلا حماس انه سوف يشتري غدا بنطلونا من النقود التي توفرت معه خلال الاشهر الماضية وربما يشتري قميصا ايضا .. وفجأة اشرق حوله نور اخضر خافت ورفع رأسه فالتقت عيناه بالاعلان الذي بدأت كلماته تنطفيء بعد ان قرأ « استمتعوا بالهدوء ال .. » وزحفت في الشارع سيارة كبيرة فارتجف باب الغرفة خلفه وارتجف الكرسي الذي يجلس فوقه واضيئت الكلمات من جديد « استمتعوا بالهدوء الساحر في رأس البر » .. لم يكن قد رأى هذا الاعلان من قبل .. رأس البر ؟؟ قفزت الى ذهنه الجمل التي قرأها وهو صغير في كتاب الجغرافيا والتي كان يتذكر بين وقت واخر بدون اي سبب « مصيف رأس البر قريب يقصده الناس لجمال موقعه بين البحر الابيض والنيل » ..

ومع تقدم الليل وارتفاع الضوضاء ووضوح نور الاعلان كان صابر قد بدأ يقنع نفسه بانه ليس في حاجة الى البنطلون الان وانه يجب ان يذهب الى رأس البر هذه ولو ليوم واحد فقط .. يوم واحد ينفلت فيه من الحر والضجة وكل الاشياء التي تضنيه وينسى هذا التكرار المؤلم الذي غدا يطبع ايامه .. كان دائما يقوم من نومه متأخرا ويقطع المسافة الى محطة الاتوبيس وهو يلهث ، وفي المحطة كان غالبا ما يجد اتوبيسا يتحرك بسرعة كأنه يهرب منه ويحس لسبب لا يدريه ان هذا هو الاتوبيس الذي كان سيركبه وانه لو تقدم لحظة واحدة للحق به.. وتحت تأثير هذا الاحساس يميل على احد الواقفين معه ويسأله بخوف سؤالا يعرف قبل ان ينطق به انه سخيف ولا معنى له « الاتوبيس ده نمره كام ؟ » وكم تكون دهشته قاسية حين يؤكد له الرجل ظنونه ..وفي الجمعية التعاونية يظل طول النهار يأخذ نقودا ويعطي بونات ويسمع صراخا ويتقبل اهانات احيانا ويتصرف هو وزملاؤه والعمال وكل موظفي الجمعية في حدود اللافتة الزجاجية المتأرجحة « نحن في خدمتكم ».. وبعد الظهر تدفعه العادة وحدها لا الرغبة فيجد نفسه واقفا مع الواقفين امام دكان الحاج راشد بائع السمك المقلي ويقرأ الكلمات نفسها « من غش امتي فليس مني » و « سخر لكم البحر لتأكلوا منه لحما طريا » .. ويهمس بصوت متعب « ربع مكرونة » .. ويكتشف في كل مرة وهو يأكل ان هناك سمكة فاسدة أو اكثر ولكنه لا يتعلم ابدا ولا يتوب .. والصداع ؟؟ لا .. لا .. لا بد ان يذهب الى رأس البر..

وامس فقط سمحوا له باجازة لمدة اسبوع سوف يقضيه كله في رأس البر ..

وكان صابر الان يراقب بدهشة أشجار النخيل العالية التي تملأ هذه المنطقة حين تحرك الرجل الذي يجلس بجواره ونفض الغبار عن ملابسه ثم قال بصوت مرتفع « خلاص .. وصلنا » .. وانتبه صابر وتيقظت كل حواسه ومد بصره الى الامام وقلبه يدق .. هاهي «العشش» التي حدثه عنها زميله في القاهرة .. العشش التي تميز رأس البر .. انها تبدو كما لو كانت كثبانا صغيرة منتظمة من هذا الرمل الناعم ..

وارتفعت الضجة في الاتوبيس واخذ الناس ينزلون حقائبهم ويمسكون بيد اطفالهم ..

ونزل صابر والشمس توشك ان تغيب .. جلس في القهوة لحظة ثم ترك حقيبته بها ومضى .. كان حريصا على الا تفوته هنا لحظة واحدة .. سوف يشهد اولا سحر الغروب عند « اللسان » ثم يمشي في شارع النيل متمهلا سعيدا خالي البال فيحس انه في الجنة كما حدثه زميله ..

ولكنه بعد خطوات قليلة وجد نفسه امام لافتة ضخمة تطوق احدى العشش « لوكاندة السعادة » .. وكان يريد ان يؤجل هذه المسألة الان غير انه اخذ يصعد الدرجات القليلة وفي نيته أن يأخذ فكرة عن الاسعار على الاقل وربما يجد هنا مكانا فلا يثقل رأسه بأي تفكير بعد ذلك .. وكان كاتب اللوكاندة مشغولا فلم ير الدهشة التي ملات وجه صابر وهو يقرأ « غرفة بسرير واحد ٧٠ قرشا .. غرفة بسريرين ١٢٠ قرشا .. غرفة بثلاث ... » ورفع الرجل رأسه فحاول صابر ان يبدو هادئا وسأل في صوت خافت متردد :

ــ فيه اماكن ؟

ــ لا ..

واقنعته هذه الاجابة المقتضبة فنزل مسرعا .. ان الاسعار هنا مرتفعة بشكل مثير رغم ان اللوكاندة عادية فيما يبدو .. وحين قرأ كلمة لوكاندة بحث عن بابها حتى وجده ..

ــ فيه اماكن ؟

ــ لا والله ... حضرتك عارف ..

ــ عارف ؟

ــ اغسطس .. كل سنة وانت طيب ..

ولم تكن الاسعار في هذه المرة هي التي ادهشته وان كانت مرتفعة وانما اخذ يسأل نفسه بقلق وهو يهبط ما علاقة شهر اغسطس بسرير صغير في عشة كهذه ؟ يبدو ان النوم هنا مشكلة يجب ان يحلها الان حتى لايتعب فيما بعد .. وكانت الشمس تختفي هناك في اخر البحر وهو هنا يمشي في الشوارع الرملية الصغيرة ويصعد وينزل ويقابل بابتسامات معتذرة وبكلمة « لا » مذيلة بجمل اخرى لم يكن يهمه ان يسمعها واحيانا كان يقابل بهزة صغيرة فقط من الرأس كان يعرفها قبل ان يصعد السلم .. وكان عليه ان يميز الشوارع لان اكثرها لم تكن له اسماء وانما ارقام حتى لا يظل اكثر من ساعة كما فعل الان يتوه في ثلاثة شوارع متشابهة يقوده احدها الى الاخر دون ان يدري .. وهو الان يعرف ان لوكاندات هذا الشارع كلها مشغولة لانه قرأ من قبل هذا الاعلان « جبنة البسيوني تتحدى ... » ويعرف ان الشارع المجاور له يقع في اوله مبنى البلدية الكبير ويعرف ان الشارع الذي بعده يقوم في وسطه مسجد الحقت به مساحة جديدة غير مسقوفة .. ولانه لم يعد يهتم بقراءة اسم اللوكاندة كاملا ولان العشش كلها متشابهة فقد كان يكتشف ايضا انه صعد هذا المكان من قبل .. كان يعرف ذلك حين تحقق فيه نفس الصورة التي رآها ووعته ذاكرته او يجد السيدة التي تستلقي على مقعد مريح واضعة ساقا ثقيلة فوق اخرى لا زالت كما تركها من قبل تقلب صفحات مجلتها بتثاؤب .. وحينئذ كان ينصرف محاولا الا يحس به احد وهو يتهم نفسه بالغفلة والجهل .. وظل دائما يتساءل اين ذهب زملاء الاتوبيس .. هل هم مثله الان وهل يجرجرون اولادهم وزوجاتهم بحثا عن مكان ينامون فيه ..

ونصحه احد المارة الذين لاحظ هو انهم يختلفون عنه اختلافا كبيرا في المشي والنظر والكلام نصحه ان يذهب الى شارع النيل فربما.. وكانت الساعة قد تجاوزت الثامنة حين وجد نفسه في شارع النيل فوقف مبهوتا قلقا .. خيل اليه انه يدفع الناس ويدفعونه في شارع السد في الليلة الكبيرة لمولد السيدة زينب .. شارع النيل.. ان الاعلانات هنا تومض وتنطفىء بشكل مفاجيء مزعج والناس في صخبهم وزحامهم لا يعطونه اي فرصة ليرفع راسه ويقرأ اسماء اللوكاندات .. وها هو منذ وقف يحاول عبثا ان يعرف هل « الفردوس » الذي جاءت وقفته امامه كازينو او لوكاندة او محل لبيع الاحذية .. كم يحس بالتعب والارهاق .. لو انه يجلس قليلا ليفكر .. ولكن ليس هنا من المستحيل ان يجد في هذا المكان مقعدا خاليا .. ورجع الى القهوة ليستريح وهناك تحدث بانفعال الى الناس الذين لا يعرفهم واراد ان يخلق من مسألة المبيت مشكلة كبيرة .. ولكن الجالسين هناك قابلوا كلامه بفتور واضح واشار عليه اكثر من واحد ان يقصد الفنادق الكبيرة على البحر قد تكون اسعارها مرتفعة قليلا ولكنه حتما سيجد هناك مكانا ..

وقال لنفسه وهو يحمل حقيبته ويمضي اسعارها مرتفعة .. اكثر من هذا ؟ لا بد اذن ان تكون جنيها .. غير انه سوف يذهب .. والا فماذا يصنع .. انه لن ينام في الشارع على اية حال ..

وكان الوقت يجري وصابر يمشي بخطوات بطيئة متحيرة وفيما عدا هذه الزمجرة الغاضبة التي كان البحر يطلقها من وقت لاخر كان السكون يلف كل شيء والشوارع والعشش قرب البحر هادئة نائمة خافتة الضوء .. وفكر صابر واقدامه تغوص في الرمل الناعم وحقيبته تنتقل من يد الى اخرى .. فكر ان هذه العشش ليست حجراتها كلها مشغولة وان الناس لا يتكدسون فيها كما هو الحال في بيوت القاهرة.. وحجرات الجلوس في هذه العشش خالية الان تماما .. مئات من حجرات الجلوس ليس بها سوى المقاعد والسجاجيد وربما صورة او لوحة تمثل غروب الشمس على شاطىء بحيرة .. ويبدو ان تفكيره قد اضطرب بعض الشيء فقد تخيل انه سيكون سعيدا غاية السعادة لو وجد نفسه هذه الليلة مقعدا صغيرا في احدى حجرات الجلوس هذه ثم تمنى ان يكون احد هذه المقاعد بقية عمره يقبع في ركن بجوار الباب هادئا صامتا

لا يتكلم ولا يكتب رسائل لاحد ولا يركب اتوبيسات مزدحمة .. ثم انتبه فجأة واخذ يلوم نفسه على هذه الافكار السخيفة .. ولكن الى اين يتجه الان ؟ هل سيذهب حقا الى الفنادق التي على البحر .. ان ايجار غرفته في القاهرة جنيهان في الشهر .. فكيف ينام هنا ليلة واحدة بجنيه ؟ وكم من الوقت سيمضي قبل ان ينسى او يغفر لنفسه انه نام ذات ليلة ست ساعات بجنيه .. واذا وجدها اكثر من جنيه فهل سيقبل ايضا ام يترك نظرات كاتب الفندق الكبير وربما احد الفراشين وسيدة لم تستطع النوم يترك نظراتهم تخترق ظهره وهو ينزل ويعطيهم الفرصة ليتحدثوا عنه باشفاق مصطنع ثم يتساءلون في دهشة واستنكار متى يدرك الناس ان هناك فرقا في كل شيء بين المصايف وغيرها من المدن .. ولماذا يأتي الانسان من بلده اذا لم يكن قد فكر في هذه الاشياء من قبل واستعد لها ..

وفي اللحظة الاخيرة حين قرر وهو ساخط على نفسه قبل كل شيء انه لن يذهب الى الفنادق التي على البحر وفي نفس الوقت بدأ يشعر كأنه مطارد وان تسكعه في الشوارع بعد الساعة الواحدة اصبح شيئا مخيفا خطرا .. في هذه اللحظة جاءته فكرة فاخذ طريقه بخطوات سريعة الى الشارع الذي به المسجد وهناك احس ببعض الخجل وهو يتلفت حوله عدة مرات ثم اعتلى السور المنخفض وغدا داخل هذه المساحة الجديدة التي الحقت بالمسجد .. وحين خلع حذاءه خيل اليه ان اقدامه متورمة بشكل واضح وانه من المستحيل ان تدخل بعد ذلك هذا الحذاء الضيق .. ولماذا كان دائما يختار الاحذية الضيقة ؟ ان رأسه يدور وهو يريد ان ينام .. ولكن اين يضع نقوده ؟ فكر اولا ان يضعها في الحقيبة ما دامت ستكون تحت رأسه وفتحها لاول مرة واخذ ينظر بدهشة الى الاشياء التي حشرها فيها كانت هناك بيجامة مكوية وقميصان وزوجان من الملابس الداخلية وفرشاة ملابس وماكينة حلاقة واشياء غريبة لا يعرف متى رتبها ووضعها هكذا وكان هناك ايضا كتاب .. لماذا ؟؟ واغلق الحقيبة بغيظ .. ستظل النقود في جيبه وليحدث ما يحدث ..

وقبل الفجر ايقظه مؤذن المسجد .. وحاول صابر ان يتجاهل هذا الصوت الخشن ولكن الرجل اقترب منه وهزه بشدة وهو يقول « وحد الله ... » .. وحينئذ قام مفزوعا .. كان صوت الرجل امتدادا لزمجرة البحر التي اخافته وانقبض منها قلبه طوال الفترة التي ظل يتقلب فيها على الحصيرة .. وغسل وجهه ويديه ورجليه ووقف في الصف الصغير صامتا لم ينطق بكلمة واحدة ..

ولم يكن يفكر في شيء محدد حين اخذ حقيبته والنهار يشرق ونزل الى الشارع ولكنه سمع من قرب سائق تاكسي ينادي « واحد مصر .. نفر واحد .. واحد ناقص .. » واحس صابر ان هذا الرجل يناديه فأسرع وهو يقول « انا » .. ولم يدر لماذا ضحك بعض الجالسين في التاكسي حين قال ذلك .. كانت المقاعد الامامية مشغولة وكان احد الركاب يشير بيده وهو يقول « شايف يابني .. النخل هناك عند الشمس .. يا سلام ما فيش معانا شاعر يا ناس .. » ومد صابر عينيه الى الامام .. كانت اشجار النخيل تلوح من بعيد وكأنها تتعانق وتلتف وتتهامس .. ولكن صابر يعرف الان فقط ان هذا وهم وخداع وانها من بعيد تبدو هكذا اما حين يقترب منها فستظهر كل شجرة على حقيقتها بعيدة عن الاخرى بعدا كبيرا مجرد عمود طويل من الخشب يقف وحده ..

وتحرك التاكسي فزحف بجواره اعلان كبير اكبر من كل الاعلانات التي رآها صابر من قبل هنا وفي القاهرة « لا تنسوا زيارة ... » وكان يريد ان يقرأ بقية الاعلان ولكن التاكسي كان اسرع من عينيه المتثائبتين .. وقد ظل رأسه يميل الى الامام ويميل حتى انغرز ذقنه في اسفل رقبته واستغرق في النوم .

القاهرة — **عبد الله خيرت**

الصمت والجائعون

– تتمة المنشور على الصفحة ٢١ –

بأشياء مختلفة تماما ... الراحة والعمل والكرامة ونفض الماضي كله في غمضة عين . ثم الزواج من الرشيقة الحلوة ، التي لاحت في الحلم ابنه لهذا الاب المجهول المعجز الذي وهب غيابه الازمة والضياع واللاحرية .

وبين الحلم والواقع والاب المفقود يبعثر نجيب محفوظ اعماق بطله ثم يجمعها في نسيج مأساوي يقدم خلاله رؤيته لقضية واقعنا المصري المعاصر .. الذي يتمزق ابن الانسان تجاهه ، تمزقا يدخل ضمن الاطار العام لتوقه الى العثور على حريته .. ويذكرنا في الان نفسه برائعة سارتر (دروب الحرية) فاذا كانت مضاجعة ماتيو لمأساة التمزق الضارية التي عاشتها بلاده في (دروب الحرية) قد جاءت ضمن الاطار العام لتوقه الى العثور على حريته .. حريته المفقودة تماما رغم ولوجه كل السبل المفضية اليها .. واذا اسلمنا بالصدق الفني لدى كل من سارتر ونجيب محفوظ ، واخذنا الظروف الموضوعية التي صدر عنها كلا العملين في الاعتبار (دروب الحرية) و (الطريق) ... فرنسا اعوام الهزيمة ومصر اعوام الصمت ... لامكننا ان نقع بسهولة على المعادل الموضوعي لكافة ما في الطريق من احداث . ولاستطعنا ان نفهم بيسر كل الاحداث التي تبدو للوهلة الاولى مغرقة في البوليسية والتطويل.. ولادركنا بحق الوجه المعجز لهذا العمل الروائي الفذ التركيز والثري بالدلالات والشديد الالتصاق بالواقع . ولاستطعنا ان نقع على الدلالات الفنية لفشل البحث عن طريق الاعلان واخفاق البحث عن طريق التليفون .. ولا جدوى الاستدلال على الاب المفقود عند مشايخ الحارات او في السجون ... وغير ذلك من الطرق التي تنكبها صابر في سبيل البحث عن ابيه المفقود .. بل لادركنا ايضا حقيقة (الطريق) المفضي الى هذا المجهول المعجز .

وبين دوامات البحث عن هذا المجهول المعجز . تمزق صابر .. اذ كان يواجه في آن واحد ، محاولات التزييف العديدة لوجه هذا الواقع ، وتهديد النقود الوشكة على النفاد ، ودوي الصمت الذي يحاصر كل شيء ، والوجه اللاعادل للحياة .. اما الزاد الذي كان يستعين به على الحياة طوال هذا الوقت ، فقد كان يتناوله بما في ذلك الخمور من « بقالة الحرية » ... وكان الواقع يضعه مباشرة امام حلول ثلاثة عليه أن يختار واحدا منها .. « ارجع الى الاسكندرية واعمل قوادا لاعدائك . أقتل واغنم كريمة ومالها . استخرج الرحيمي من الظلمات وتزوج الهام » (ص ٩١) .. فلماذا اختار الحل الثاني دون بقية الحلول ؟. الحل الاول يبدو مستحيلا .. اما الحل الثالث فانه بحاجة الى بعض النقاش . فمن البداية اكدت كل الشواهد ان الرحيمي موجود .. تأكيد أمه القاطع بوجوده وهي على فراش الموت .. خليل ابو النجا الذي عاش زمنا طويلا يضيق عينيه حينما يسأل عنه ويقول « غير مستبعد انني سمعت عنه » (ص ٣٠) .. ومقابل هذا يؤكد احسان الطنطاوي « انا رجل عشت في مختلف الاوساط بالقاهرة زهاء ثلاثين عاما ولم اسمع عنه » (ص ٥٢) .. ويتمتم بذهول حينما يرى صورته « يا له من شخصية » (ص ٥٢) .. ويعلن عنه فيأتي كثيرون كل يدعى انه هو « اتصل به سيد سيد الرحيمي الحلاق ببولاق ، وثان مدرس لغة عربية ، وثالث سائق ترام ، وقابلهم واحدا فواحدا ، كما قابل الدكتور من قبل ولكن لم يكن لاحد منهم علاقة بمن يبحث عنه . اين من يبحث عنه اذن ؟. ولم لم يتصل به كما فعل الاخرون ؟ » (ص ٤٦) .. ولاحت محاولات عديدة لتزييف هذا الاب المفقود ، بله التشكيك في وجوده نفسه عبر السبل المختلفة التي تنكبها صابر من اجل الوصول اليه . ولنتعمق هذه الوسائل التي مارس صابر من خلالها بحثه عن ابيه ، او بمعنى اكثر وضوحا (الطرق) المختلفة التي سلكها في سبيل الوصول اليه ، لنرى لم لم توصله هذه الدروب الى الاب المفقود ؟.

في البداية برقت السخرية عبر كلمات مشايخ الحارات وهو يسألهم عنه ، وكأنهم يبتسمون اسى لسذاجته . وفي سجلات السجن او المحراك لم يجد اسمه ، وادعى كثيرون عبر اسلاك التليفون انهم هو، ولكن المواجهة الحقيقية كانت تفضح محاولاتهم التزييفية له . ثم اتصل به رجل مجهول ساخر وهو اهم من اتصلوا به وبالتالي فان تفسير هذا الاتصال ، وهذه الشخصية سوف يلقي دفقات ضوء شديدة على حقيقة سيد سيد الرحيمي من جهة . وعلى عقم الدروب التي يسلكها صابر للوصول اليه من جهة اخرى . والتفسير الساذج الذي قدمه عبد الرحمن فهمي (١١) .. لهذه الشخصية بعيدا عن حقيقتها لدرجة كبيرة، اذ صوره عبد الرحمن فهمي بسذاجة ، او بدون فهم لا ادري ، احد معارف امه الذين يتشفون فيه ، بينما التعمق البسيط لاحداث الرواية يؤكد ان نجيب قد قطع كل الصلات بين صابر وماضيه تماما . كما ان طبيعة الحوار الذي دار بينهما – صابر والرجل المجهول – لا يشي بذلك . فقد اكد ذلك الحوار حقيقتين .. اولاهما ان صابر لا يعرف بالضبط وبصورة محددة ماذا يريد من ابيه المفقود . وثانيتهما ان سيد سيد الرحيمي الحقيقي موجود بصورة قطعية ، وانه في مكان لا يمكن الاستدلال عليه بسؤال المارة . كما ان الاستدلال عليه عن طريق الاعلان في الصحف وسيلة جد عقيمة وجد ساذجة .. تماما كأن تعلن في احد الصحف بأن .. الحرية والكرامة والسلام مفقودة ، من يعثر عليها او يعرف مكانها ، يتصل بصابر سيد الرحيمي بفندق القاهرة .. ولذلك يصرخ فيه هذا الرجل المجهول بعد ان اكد له فشل طريقة الاستدلال عليه بسؤال المارة « حقيقة انك حمار » (ص ٥٩) .. تصفعه الكلمات بعد ان « حرق ساعات النهار في البحث والسؤال مندفعا باصرار محموم» ف « يرد الى نقطة البدء ودون بادرة أمل » (ص ٥٩) .. ان هذا الشخص المجهول في رأيي اما انه سيد سيد الرحيمي الحقيقي والذي لا يهب نفسه بسهولة قد رثى لحال باحث عنه فأتصل به ليقول ليس هذا هو الطريق .. او انه – وهذا هو الارجح – واحد من الذين يعرفون الطريق الحقيقي الى سيد سيد الرحيمي . ويعرفون في الان نفسه عقم الدروب التي يجوسها صابر ، ومن ثم يتصل به ليقول هو الاخر .. ليس هذا هو الطريق .. وبهذا فان نجيب محفوظ يؤكد عبر وسائل البحث تلك حقيقتين ، احداهما ان هناك محاولات عديدة لتزييف الوجه الحقيقي لسيد سيد الرحيمي .. والاخرى ان هذا ليس الطريق اليه.. ويكفي فقط ان يقول نجيب هنا ليس هذا هو الطريق .. فهذه المقولة في حد ذاتها ، والتي سبق أن ترددت في جنبات (اللص والكلاب) مقولة تقدمية في هذه الظروف .. وتحضرني بهذه المناسبة الكلمات المضيئة التي قالها بيير كوري ردا على سؤال احد مساعديه ..

– علينا ان نكف عن هذه التجارب ، لقد اجرينا مائة تجربة لم توصلنا الى اي شيء .. فما جدوى كل هذا ؟! واجاب بيير كوري العظيم.

– يكفي اننا عرفنا ان ثمة مائة طريقة ، لا توصلنا الى ما نريد .

ذلك لان معرفة الطريق الخاطيء هي اولى الخطوات في سبيل الطريق الصحيح .. هذا وقد اشار نجيب في هذه الرواية ، وفي (اللص والكلاب) ايضا الى بعض معالم الطريق الصحيح . عبر بعض الاشارات الايحائية السريعة « السبل مسدودة لحد الاختناق » و«العمل! هو الذي يحل مشكلتنا » (ص ١٢٣) .. كما اكد في نهاية الرواية أن سيد سيد الرحيمي موجود فعلا .. وان مأساة صابر الدامية لم تذهب هباء .. وان كان يوميء الى ان العثور عليه لن يتم عن طريق المواجهة المباشرة بل عن طريق البرهان (١٢) المؤكد لوجوده في بقاع اخرى من العالم .. يمارس الحب ويرتع بحرية شديدة عبر البلاد الاخرى ، غني

(١١) في معالجته الاذاعية للرواية باذاعة القاهرة .

(١٢) كان باسم الرجل الوحيد الذي تعرف بحق على سيد سيد الرحيمي .. على برهان .. لاحظ دلالة الاسم هنا .

يملك الملايين من « الجنيهات التي اقتناها من تجارة المشروبات الروحية» (ص ١٨٠) التي تحرر العقل من كل قيود الواقع فيمنح نفسه بحرية.. ويدمر قضبان الصمت .. ولكن توضيح ابعاد شخصيته بهذه الطريقة.. تدفع صابر الى اولى درجات الطريق اذ يهتف « وبسبب هذه المعرفة الطارئة اصبح الرجل اعز منالا من الاول » (ص ١٨١) .. ذلك لان المعلومات التي وصلته عنه اكدت وجوده واكدت في الان نفسه صعوبة العثور عليه ... وتترك الرواية صابر وهو يهز منكبيه استهانة بيقين المحامي ، وبالحكم بالاعدام وبكل شيء .. قائلا « فليكن ما يكون » (ص ١٨٥) .. تماما كاستسلام سعيد مهران لرصاص الطلاب « بلا مبالاة » .. وكأن هذه اللامبالاة ، هي صرخة الاحتجاج الوحيدة التي يسمع بها الواقع المجلل بالصمت واللامرئية .

بذلك نكون قد قدمنا الهيكل العظمي لخريطة العلاقات الانسانية داخل الرواية ، وحتى تستطيع كافة هذه العلاقات ان تكتسب وجهها الحقيقي تلزمنا دراسة تفصيلية لاغلب الشخصيات الرئيسية في هذه الرواية ، حتى تظهر اعماق كل شخصية واضحة وناضجة بما تحتويه من معان ودلالات . وحتى تكتسب خريطة العلاقات الانسانية في الرماية بعد ذلك كافة ابعادها الرمزية .. ولنبدأ الان في التعرف على كامل شخصية على حدة ..

(٣) بسيمة عمران .. يا بلدي الحبيب

رغم ان الاشارات التي تناولت هذه الشخصية قليلة للغاية ، الا انها كانت كافية لان تؤكد اهميتها من جهة ورمزيتها من جهة اخرى ، خاصة وانها كانت أم بطل الرواية ، او بمعنى اكثر مباشرة الجذور التي ارتوى منها حتى يناعة شبابه .. كما انها كانت العارفة الوحيدة طوال ثلاثين عاما بحقيقة ذلك الاب المفقود المعجز ، المسيطرة في الان نفسه على وجه الواقع الذي عاشت فيه اذ كانت اعتى نساء الليل في الاسكندرية قاطبة ، الحادبة الرؤوم على وليدها المدلل الوحيد ، والتي مارست شتى صنوف السيادة والسيطرة .. غير ان نجيب لم يشر الى هذا الجانب العريض من حياتها الا باشارات خفيفة للغاية ، ولم يحاول ان يقدم لنا دلائل هذا العز وهذه السيادة ... ذلك لانهما تلاشيا في الفترة الاخيرة ، ومن ثم عمق تلاشيهما من مأساوية الوضع الراهن المذل ، وبدأت الرواية في اللحظة التي مأتت فيها هذه الام تماما ، ولاحت في كفنها على اعتاب المقبرة كالخيال « شد ما هزلت يا اماه ، وتوارت عن ناظريه تماما فلم يعد يرى الا ظلمة ، وسطعته رائحة تراب » (ص ٥).. واقترن الظلام بغيابها ، واقترنت به الذكرى ، « كانت رحمها الله تحب الرفاهية فأعدتها للدارين ، ولكن لم يبق لها الا المقبرة » (ص ٦) .. ولاحت له صورتها بالامس بعد ان انهكها الاسى « وسارت في خطوات متثاقلة متخاذلة من الاعياء والضعف ، وقد وهنت وهزلت وكبرت ثلاثين عاما فوق عمرها الحقيقي الذي لم يجاوز الخمسين ، هكذا تبدت بسيمة عمران في اخر صورة لها » (ص ٧) .. وهي نفسها تصرخ مرهصة بنهايتها « امك انتهت يا صابر » .. بزحف التلاشي فوق سيقان الحياة . والسبب في ذلك يصرخ صابر « لعنة الله على المرض » (ص ٧) على انتفاء الاتساق والقوة والحيوية من جسم الواقع ، ولكن امه توقفه على السبب الحقيقي الذي استل مياه الحياة من الوجه المتورد « ليس المرض ولكنه السجن ، والمرض جاء من السجن ، امك لم تخلق لذلك ، وقالوا الكبد والضغط والقلب ، الله يمرض عيشتهم ، ترى الا يمكن ان ارجع الى ما كنت » (ص ٨) .. وهي الى جانب معرفتها بالداء مليئة بالحكمة «صابر .. تجنب الغضب .. انه الغضب ادخلني السجن » (ص ٩) .. وهو ايضا الذي ادخل ابنها . واثقة بنفسها رغم ولوغها حتى الاذنين في دوامات العار . رغم حياة العهر الدامية التي عاشتها في صبر ودأب ومقدرة .. على فراش الموت تنفث الدخان في غضب وتصرخ « امك اشرف من امهاتهم ، انني اعني ما اقول، الا يعلمون انه لولا امهاتهم لبارت تجارتي » (ص ٩) ... وعن الواقع الخارجي تعرف فكرة حقيقية وعميقة ، مكتظ بالانانية والتفسخ فالضياع .. ومن هذا لفت حول ابنها الاسيجة . حمته من تفسخ هذا الواقع وتهرؤه . لكن الان .. وقد استل الوهن من اليد الحانية قوتها ، وزحف اليأس على اشلاء الارادة الصارمة « أنا انتهيت .. بسيمة ايام زمان لن تعود ، ولا سبيل الى العمل من جديد ، لا الصحة تسمح بذلك ولا البوليس » (ص ١٠) .. واصبحت هذه حالة تلك التي « كانت تدخن النارجيلة وتحكم الرجال ، وعندما تجلس لمناقشته تجلس كملكة » (ص ٦٠) .. وتزعزعت لاول مرة في حياة صابر ثقته في امه . وادركت الام نفسها ان لحظة فقدانها لصحتها ومالها وسيادتها وحريتها عانقت في الان نفسه لحظة فقدان الابن « انت لا تفهم شيئا ولك الحق ، الواقع ان الحكومة صادرتك ساعة صادرت أموالي ، لم يعد لي الحق في امتلاكك انت ايضا ، ادركت ذلك يوم صدور الحكم » (ص ١١) .. ومن هول هذا الواقع الراعب ، عناق لحظة الوعي الضارية بتدفق طوفانات الحب في القلب الذابل صرخت بالحقيقة الدامية التي حبستها بين الضلوع ثلاثين عاما .. حقيقة الاب المفقود .. « لا تحاسبني واستعد للبحث عنه » (ص ١١) عن الاب الذي يعوض وجوده القيم المفقودة والتي فقدت بسببها الام ابنها ، الابن الذي دافعت عنه حتى الاستماتة، أفنت الحياة كلها من اجله ، تقذف به في لحظة يأس وامل الى دروب الواقع .. تحكي القصة ثم تؤكد انه سيهيىء للابن القيم التي لم تتمكن من توفيرها له « كنت غنية حقا ولكني لم اهيىء لك كرامة ولا عملا ولا سلاما » (ص ١٧) .. ولكنه .. الاب المفقود « ستجد في كنفه الاحترام والكرامة » (ص ١٤) .. تقول كل هذا ثم تموت .. ويموت معها الماضي كله ، وتترك الابن فوق دروب البحث بلا زاد .. واذا اضفنا الى كل الدلالات التي تبرق عبر حديثنا عنها والتي تشي برمزيتها ، ان مصر عند نجيب محفوظ دائما ما تتجسد في صورة المومس ، حميدة في (زقاق المدق) ونور في (اللص والكلاب) .. أستطعنا ان نعثر على بعض وجوهها الرمزية ، وان كان ليس من الضروري ان تعني مصر بطريقة حرفية ، ولكن دلالات كونها مومسا ، ودلالات المومس الثرية في ادب نجيب محفوظ ، تضيف الى ملامحها الشخصية ابعادا خصبة اخرى ، وهذا هو ما اردنا ان نركز عليه ...

(٤) سيد سيد الرحيمي .. المجهول المعجز

من البداية لاح مغرقا في الالغاز ومرتبطا بالقيم ، بالدرجة التي يصبح القول معها بأنه مجرد أب مفقود ، درب من السذاجة المفرطة . ولذلك فاننا سنحاول ان نستكنه بعض ابعاد شخصيته ... تقول بسيمة عمران « كنت امرأة له منذ ثلاثين عاما ثم لم اعد ادري شيئا » (ص ١٢) .. وتقول عنه ايضا « انه سيد ووجيه بكل معنى الكلمة ، لا حد لثروته ولا لنفوذه ، لم يكن في ذلك الوقت الا طالبا بالجامعة ومع ذلك كانت الدنيا تهتز لدى محضره » (ص ١٢) .. سيحررك من ذل الحاجة الى اي مخلوق بما سيهيء لك من عمل غير البلطجة والجريمة فتظفر آخر الامر بالسلام » (ص ١٤) .. « أؤكد لك ان المال ليس الا حسنة من حسناته » (ص ١٤) .. يسأل صابر عنه خليل ابو النجا فيقول « غير مستبعد انني سمعت عنه » (ص ٣٠) ويقول احسان الطنطاوي المشغول الرأس بالحسابات لا القيم « أنا رجل عشت في مختلف الاوساط في القاهرة زهاء ثلاثين عاما ولم اسمع عنه » (ص ٥٢) .. وفي الحلم رآه صابر « نظر صوبه في رهبة حقيقية اذ وجده أضخم وافخم من اي خيال » (ص ٦٧) ويقول عنه علي برهان .. الصحفي المخضرم الذي عاش تسعين عاما « كان وما زال مليونيرا ، لا عمل له الا الحب ، وكلما وقع في مأزق هاجر من مدينة الى مدينة ، مواصلا ممارسته لهوايته » (ص ١٧٨) كما انه « يذكر انه تلقى رسائل منه من جميع القارات (ص ١٧٩) .. فما هي دلالة كل هذا ؟.

علينا ان نرتب ما لدينا من معلومات عنه ونموضعها في أطارها الاجتماعي حتى نخرج بصورة واضحة له . فقد كان زوجا لبسيمة عمران الرمز منذ ثلاثين عاما ... وكان وقتها طالبا بالجامعة تهتز الدنيا لدى محضره .. فاذا اخذنا في الاعتبار ان الرواية كتبت في بدايات ستينات هذا القرن ما بين ١٩٦٢ ، ١٩٦٤ .. كانت الفترة التي كان فيها سيد سيد الرحيمي طالبا في الجامعة وزوجا لبسيمة واقعة بين ١٩٣٠ ، ١٩٣٤ ، وهذه الفترة على وجه التحديد من اكثر الفترات اكتظاظا بمعارك شعبنا من اجل الديموقراطية . اذ تتابعت على وجه الواقع المصري في تلك الفترة حكومات العهد السياسي ، ابتداء من حكومة اليد الحديدية برئاسة محمد محمود ، حتى حكومة توفيق نسيم والقوادين ، مرورا بحكومة اسماعيل صدقي الاوتوقراطية وحكومة عبد الفتاح يحيى العميلة .. وصادرت الحكومات الاربع دستور ١٩٢٣ ، وجاءت حكومة صدقي ببديل اخر مزيف هو دستور ١٩٣٠ .. وبصفة عامة اتسمت هذه الفترة بالمصادرة المستمرة لحريات الجماهير الشعبية على وجه التحديد . ومن ثم اندفع طلبة الجامعة ، طليعة البرجوازية الصغيرة التي ظلت حليفا مستمرا للجماهير الشعبية في ثوراتها المستمرة من اجل الحرية منذ بداية الثورة القومية حتى اليوم ، يقودون المعركة ، ويحملون لواء الكفاح في تلك الفترة ... لذلك فان ربط سيد سيد الرحيمي بطلبة الجامعة في هذه المرحلة من تاريخنا الكفاحي من اجل الديموقراطية ، له دلالاته الثرية ، خاصة وقد قيل ان الدنيا كانت تهتز لمحضره آنذاك ، وفعلا كانت تهتز الدنيا لاضرابات طلبة الجامعة وحركاتهم العصيانية في تلك الفترة . يؤكد هذه الدلالات ارتباط الاب بهذا الشعار الثلاثي .. الحرية والكرامة والسلام .. والذي يقابل اسم الاب الثلاثي الذي ركز الكاتب على ثلاثيته .. مقابل تركيزه على ثلاثية شعاره . واذا اضفنا الى كل هذا الدلالات التي تشي بها الابوة وخاصة في العقلية المصرية المرتبطة بهذه الفكرة الى درجة كبيرة ، وطوفانات الوعي بحقيقة الواقع والتي كانت تنوش اطراف وعي صابر متمثلة في الصمت الكئيب الذي يسيج كل شيء والظلام الذي يلف كافة الاشياء « ورأى الظلمة مرة أخرى ، سواء فتح عينيه استطلاعا او اغمضهما شبعا وارتياحا » (ص ٦٢) .. « واحيانا يخيل اليه ان الصمت يخنق العالم » (ص ٧٠) .. وتوق صابر الدائم الى التعرف على جذوره ، والتي انطلقت اشباعا لهذا التوق كل الفلسفات الباحثة عن اصل الوجود الراغبة في تقديم تفسير مقنع لبدايات الحياة الانسانية ومن ثم لنهاياتها .. اذا اضفنا كل هذه الاشياء الى ارتباط الاب بهذه الفترة، لاح لنا المعادل الواقعي لشخصية هذا الاب بطريقة جد واضحة .. وبدا هذا الاب المجهول العجوز المفقود تجسيدا لكل القيم المفقودة في واقع صابر .. واول هذه القيم .. هي الحرية .. الحرية والكرامة والسلام.

(٥) الشحاذ . .ومعادلات المطلق

ثمة معادلات اخرى للقيم الى جانب سيد سيد الرحيمي في الرواية ... اولها الشحاذ ، الذي يرى الصديق الاستاذ توفيق حنا انه بمثابة توقيع نجيب محفوظ على هذه الرواية ، وذلك لتكرار هذا النموذج بالحاح في كافة رواياته .. في المرحلة الاخيرة فقط نرصده في (اللص والكلاب) في صورة الشيخ علي الجنيدي وفي (السمان والخريف) في شخصيتي سمير عبد الباقي والشيخ السلهوبي .. وهو هنا ليس مغرقا في الصوفية فحسب بل هو مغرق في اليأس والتحدي معا ومن ثم يتمثل شحاذا ... يطلب الصدقة من بطل روايتنا الذي « لم تشده الى الدين علاقة تذكر ، ولا شهد النبي دانيال ممارسة عادة دينية واحدة فهو يعيش في عصر ما قبل الدين » (ص ٤٧) .. ولكنه لا يستدعي منه سوى الكراهية .. ذلك لانه كان يلوح في كثير من الحالات مرادفا للضمير في أعماقه ومن ثم كان يمارس عليه ، وبطريقة غير مباشرة ، كأغلب القيم الميتافيزيقية المعاصرة ، سلطات لا محدودة .. ولذلك يهتف حينما يفاجأ بمنظره المرعب (ص ١١١) وهو في عز الازمة « اي انسان يعطف على هذا الشحاذ » (ص ١١١) .. غير ان الشحاذ، وبعد أن يتعقد الموقف بصورة مرعبة، يهتف وسط الظلام « ربنا ينور بصيرتك . دعوة مستجابة باذن الله من سائل مسكين » (ص ١٦٣) .. ثم يظهر في النهاية ان هذه الدعوة هي التي ايقظت المخبرين النائمين ليتتبعوه الى النهاية المحتومة .

وهناك الى جانب هذا العارف بالله سيدي الشيخ زندي المتربع في حجرة تحتانية تعيش في مغيب متصل، والذي تشمم عبير منديل صابر ثم أطلق حدسياته بوجود من يبحث عنه عبر عبارات مغرقة في الالغاز (ص ٢١) واللاجدوى .. ثم قارىء الغيب بالدرب الاحمر المدعو بالشيخة زهرة والذي « لما بلغ مسكنه وجده مقفلا مختوما بالشمع الاحمر ، وقيل له ان البوليس قبض عليه بتهمة الدجل . وتساءل صابر، متى كان الدجل تهمة ؟ » (ص ٩٢) .. كل هذه الشخصيات تجسد شتى ابعاد المطلق .. وتؤكد في الان نفسه لا جدوى الارتكان الى الحلول التي يقدمها ، وان كانت شخصية الشحاذ اكثرها وضوحا قد جسدت الى جانب ذلك القوى الضميرية ، ومن ثم كانت تشي ببدايات الكثير من الاحداث وتعد بخواتيمها .. نجعله يصرخ « اللعنة .. متى يخرس الشحاذ البشع » (ص ١٢٩) .

***

الشخصيات الثلاث السابقة تقدم الى جانب المعادلات التي اوضحناها دلالات قيمية بالدرجة الاولى ، فان جسدت بسيمة الماضي ، فان سيد سيد الرحيمي يعد بالمستقبل ، بينما يشي الشحاذ بكثير من ابعاد الحاضر .. وكلها دلالات قيمية بالدرجة الاولى ، اما الشخصيات الاربع الباقية فانها تمثل دلالات واقعية بالدرجة الاولى ايضا ومن ثم فانها الشخصيات الاكثر فاعلية والاشد اهمية في هذه الرواية . اما بقية الشخصيات الاخرى فانها تمثل الاطار العام الذي تتحرك في نطاقه هذه الشخصيات الاساسية ، ومن ثم لم تظهر طوال الرواية اي خريطة للعلاقات بين هذه الشخصيات القيمية الثلاث وبعضها ، بينما تزاحمت خريطة العلاقات متشابكة بين الشخصيات التي تمثل العلاقات الواقعية وتقدم تلخيصا روائيا لشتى ما في الواقع من تيارات .. ولنحاول التعرف على هذه الشخصيات في اطار خريطة العلاقات الدائرة فيما بينها ، وفي الاطار العام الذي تحركت خلاله .. اطار القيم .. ولنبدأ بصاحب الفندق .

(٦) خليل أبو النجا .. صاحب الفندق

يبدو هذا الرجل العجوز رغم ثانوية الاحداث التي شارك فيها مسيطرا على كل احداث الرواية .. مالكا لمقدرات شخوصها .. فهو صاحب (فندق القاهرة) التلخيص الروائي للواقع الكائن فعلا والذي يعيش فيه كل من صابر وكريمة ... وهو في الان نفسه رمز لسيطرة القوى الرجعية والمتخلفة على وجه هذا الواقع « انت سر من الاسرار يا عم خليل . ووجهك يصلح رمزا للموت كعلم القرصان » (ص ٣٥) .. ولذلك فانه يستوي لدى صابر ان يجيء ابوه او ان يذهب ذلك الوجه الرجعي المسيطر على الحياة .. لان دلالة الحدثين واحدة « يستوي لدي ان يجيء ابي او ان تذهب انت » (ص ٨٥) .. خاصة وانه « اما انت يا عم خليل فلن تتغير كثيرا يذكر بعد الموت » (ص ٨٥) .. فهو ميت فعلا بشكل او باخر ،وسيطرته على وجه الواقع تعني سيطرة الموت على الحياة ، ومن ثم يستوى ان يذهب الموت ليترك للحياة فرصة الانطلاق ، او ان تجيء الحرية الحقيقية لتهبها هذه الفرصة . خاصة وان هذا الموت المسيطر « بيده المعروقة المرتعشة والكوثية السوداء التي اخفت عنقه النحيل » يمارس كل غرائزه على حساب الحياة .. « خير ما تفعل يا عم خليل هو ان تموت . أنا اعرف عنك اكثر مما تتصور . أنت لا تنام الا بالمنوم وبعد ان تدلكك كريمة طويلا . وسعادتك تمارسها في الحنان العقيم ، ولذلك الوهمية عندما تجردها من ثيابها فتذهب امامك وتجيء ثم تحبها براحتيك » (ص ٨٥) .. وكي ممارس للسيطرة يلهب الباقين بسوط الحاجة « غريزة النقود هي الغريزة الوحيدة التي حافظت على قوتها عند الرجل » (ص ٧٨) .. ويكبلهم بالقيم الجوفاء « لم يكتب كل شيء باسمي الا بعد ان اخذ علي عهدا بالوفاء ، قال لي انت يدي وعيني وابنتي وزوجتي ، لا تنغص على صفوة الايام الباقية » (ص ٩٧) .. بكل شيء دعم سيطرته.. ومن ثم يلوح هو العقبة الاساسية والوحيدة بين صابر وكريمة .. وبينه والرحيمي .. وبينه والحرية والكرامة والسلام ... ولذلك يجيء اغتياله في النهاية ضمن رغبة صابر المشوقة الى اغتيال كافة الشروط اللاانسانية من وجه الحياة . خاصة وان هذا العجوز الكئيب غير القادر على خدمة نفسه في هذا الواقع مسيطر على كل ما فيه ومسخر كل افراده لتلبية مطالبه واشباع غرائزه ، مكتفيا بمراقبة ساحة الفندق التي تلوح بكل ما يدور فيها من مناقشات تلخيصا روائيا للواقع ككل .

(٧) صابر .. ابن جيلنا

صابر هو الشخصية الرئيسية التي يريد نجيب محفوظ ان يقدمها لنا في هذه الرواية ... والتي تجيء كافة الشخصيات الاخرى معمقة لابعادها وموضحة لملامحها ، فلا تعدو كونها شعيرات دموية تصب في شريان الرواية الرئيسي .. صابر .. وصابر شاب في الثلاثين من عمره ، ومن ثم فهو ابن لجيلنا بحق ... يجسد كل عذابات هذا الجيل، وكل جوعه الى الحرية .. يجسد بحثه الدائم عن جذوره ، وعن قيم جديدة يؤمن بها وتوفر له كل ما يفتقده في واقعه من حرية وكرامة وسلام .. يجسد صراع هذا الجيل ضد جدران الصمت وقضبان السجن المركبة داخل كل منا .. يجسد حالة الرعب الدائمة التي يعيشها ، وحالة التمزق الدائمة التي تفتت كيانه ، التمزق بين قيود الواقع كما هو كائن ، وبين صورته المستقبلية التي تلوح صارخة بالالوان مشرقة بالبهجة .

وككل ابناء جيلنا فهو مثقل ضميريا بتركه العفونة التي خلفها الماضي .. بما فيه الملوث بالدعارة والجريمة .. والذي يرادف التكوين الحضاري لابناء جيلنا الذين دعوا مع بدايات اطلالاتهم على الحياة كافة المآسي الدامية التي لطخت بالعار ضمير هذا القرن ... ثم عاشوا واقعا اكثر مأساوية من ذلك الذي دمرت الحرب انسانه .. ومن ثم فان هذا الماضي يدخل ضمن تكوينه الحضاري ، ملوحا له في كل لحظة .. « آه . تحريات . النبي دنيال . الكنار الليلي . بسيمة عمران . سوف تطارده الشبهات بالوراثة » (ص ١٣٤) .. ورغم كل هذا فهو صابر بحق .. يتلقى قصة ابيه المطالب بالبحث عنه بنفس شجاعة ابن جيلنا الباحث عن جذوره التائق الى التعرف على اصوله . « المتطلع بمعجزة الى الحرية والكرامة والسلام » (ص ١٨) .. ومن البداية تنوش فكرة مداعبة الواقع خياله ، خاصة بعد ان نزع جذوره تماما من ارض الماضي وجاء الى القاهرة ، فيعرب لكريمة منذ اللحظة الاولى عن اعجابه بها .. غير ان هذا الواقع الجديد ما يلبث ان يسفر رويدا رويدا عن وجهه الكئيب .. وتتناءى بشائر التفاؤل ... تتدانى علامات التجهم .. « المؤسف انني ظننت ان الذين يعرفونه في القاهرة لا حصر لهم ، ولكني لم اجد حتى الان احدا يعرفه » (ص ٤٠) .. وذهبت كل محاولات البحث هباء « وكل ساعة تمر تقربه من النهاية المخيفة . وماذا بعد الانتظار والجري وراء المجهول في الظلام » (ص ٦٠) .. فهو ككل ابناء جيلنا مطالب بأن يهب حياته المعنى رغم ضآلة ما لديه من امكانيات توشك على النفاد .. ممزق بين كريمة والهم « ولكن ما قيمة اي شيء قبل العثور على الاب » (ص ٦٠) .. ولذلك فانه ما يلبث فور حضور كريمة اليه ان « ضمها اليه بقوة تعادل الصبر المعذب الطويل » (ص ٦١) .. والتحم بها تماما فرأى « الظلمة مرة اخرى سواء فتح عينيه استطلاعا ام اغمضهما شبعا وارتياحا » (ص ٦٢) .. ويقطع نفسي كريمة الحازم لاي صلة بينها وبين ذكريات الانفوشي ، خيوط التفاؤل « ولكنك خيبت ظني ، طالما قلت لنفسي اذا كانت هي فتاة الاسكندرية فقد يعني هذا انني ساوفق في البحث » (ص ٦٣) .. فلاح الاب متخليا عنه في الحلم ممزقا لكل الصلات التي تربط بينهما « وهو يكره الاحلام لانها ترجعه الى فترة ماضية من حياته الح فيها عليه الصرع حتى كاد ان يهلكه » (ص ٧٠) مع كل ما للصرع وكراهية الاحلام من دلالات هنا .. وتتتابع احداث الواقع بصورة تدعو صابر الى التخلص من وجهه اللاعادل فيستميت في البحث مناشدا الاب بالعودة « انه هو المحتاج الى الغائب وليس العكس . وانه لا يحتاج اليه حبا في الحرية والكرامة والسلام فحسب وانما خوفا من التردي في الجريمة » (ص ٨٦) .. وزحف اليأس والفتور .. « ولم تعد انباء التليفون تهز أعماقه ، ولكن آه لو يخلف ظنه ويجيئه بالمعجزة في هذه اللحظة من اليأس والعذاب » (ص ٩٦) .. ويتردى في الجريمة .. ويواجه عقبها مباشرة الوجه السافر للشحاذ .. « رآه لاول مرة بوضوح على ضوء مصباح . وشد ما اثار اشمئزازه لحد الغثيان . وجه نحيل ضائع المعالم في لحية متلبدة بالقذارة ، وعظام بارزة ووجنتان غائرتان وانف مجدوع . ورأس مغطى بطاقية سوداء يحجب مقدمها حاجبيه . تدمع تحتهما عينان دمويتان مشدودتان الى اسفل » (ص ١١١) .. كل هذا في مقابل جمال صورة وجه صابر الاخاذ .. وفي نفس اللحظة يلوح له الماضي مسؤولا عن كل شيء بعد اليقظة الراعبة على وجه الشحاذ « وأمك هي القاتل الحقيقي لمم خليل ابو النجا » (ص ١١٦) .

ورغم كل هذا فان ارتكابه للجريمة لا يلتصق بقشرة وعيه كثيرا ، لانه جاء ضمن اطار البحث عن الاب الذي يحتل المكان المحوري من كل تفكيره .. لذلك كان يشعر في لحظات كثيرة بهذا الاحساس « ودهمته الحقيقة الغريبة ـ وكأنها تدهمه لاول مرة ـ وهي انه ازهق روحا » (ص١٦١) ... وهتك الشك الجزء الباقي من عقله ، وهتك في الوقت نفسه حيانه وحياة كريمة .. ولم يعد امامه في اللحظات الاخيرة سوى الاحتجاج الصامت الذي اطلقه من خلال استسلامه بلامبالاة للمصير الراعب المحتوم .. ذلك لان « امه انشأته على مستوى رفيع من الجاه، فلم يكن بد من ان يعثر على الاب الوجيه المزعوم او يرتكب اشنع الجرائم وهي القتل » (ص١٦٩) .. وجاءت تحليلات الصحافة للمأساة شاهدا اخر على مأساوية الواقع ككل .. حيث لا يبقى من مأساة تهذه سوى وجهها الطريف .. « وقال استاذ علم النفس ان صابر مصاب بعقدة حب الام ، وانه يمكن تفسير اندفاعه الاجرامي بامرين مهمين . فهو اولا وجد في كريمة بديلا عن امه فاحبها . وان لاشعوره اصر على الانتقام لامه فقتل صاحب الفندق كرمز للسلطة وطمع في مصادرة امواله كما صادرت الحكومة اموال امه » (ص١٧٠) وبات واضحا المصير الذي

ينتظر اي محاولة فردية للبحث عن القيم المفقودة .. في واقع فاقد لاغلب شروطه الانسانية ... وان اضاف صابر الى المحاولة التي قام بها سعيد مهران من قبله في تحرير وجه الواقع ، ابعادا فلسفية كثيرة، اثرت المحاولة بالدلالات ، وكشفت النقب عن وجه الواقع الحقيقي .

(٨) كريمة .. شبق الواقع

تعمق كريمة مأساة صابر وتثريها بالابعاد التي توضح الاسباب الراسمة للازمة ... اذ تصب ازمتها في الشريان الاورطي لمأساة صابر التائق الى ابيه المفقود .. وتلتحم بها تماما ، فيصبح همه الجديد بعد المفاجعة ان يبقى جوارها لاطول مدة ممكنة (ص٦٣) .. كما انها تلوح من البداية مرتبطة بذكريات الماضي ، ومشكلة واحدا من الابعاد المأساوية للواقع خلال تبديها داخل مفالطته الضارية زوجة لعم خليل.. « وهي تأبى أن تعترف بانها فتاة عطفة القرشي ، لماذا تخفين الاسرار ؟ لانك العذاب والشيطنة . وقد التحمت في خياله بهدير البحر ورائحة الماء المالح واليود وحنين الوطن ومغامرات الليالي المفعمة بالشهوات ، والمعارك البهيمية . وهي مثله تغلي في شرايينها دواعي الفطرة والغريزة والعمي والقحة ، لا كالهام نسمة تستقر في ذروة لا يرقى اليها احد » (٨٧) ... « اما كريمة فامتداد حي لامه فيما تهبه من متعة وجريمة » (ص٩١) .. و « الايام تمر والنقود تتناقص وحكاية الاب امست اسطورة سخيفة لا يركن اليها بحال ولا غنى له عن هذه المرأة فهي حياته والامل الباقي له في الحياة » (ص٩٥) .. يتوحد مصيرها بمصيره « حياتنا واحدة فاذا قضي عليك قضي علي ، ولا حيلة لنا في البحث عن طريق للخلاص من الالم والجنون » (ص١٠٠) .. « وماذا يعني الرحيمي له بعد ما كان ؟ .. الامل الوحيد الباقي هو : كريمة » (ص١١٢) ... كريمة باختصار « ربيبة بلطجية ، جارية سوقية ، زوجة رجل فان ، مدبرة جريمة رهيبة ، خالقة لذات جنونية ، معذبتك الى الابد ، ومجرد وهم لا اساس له ساقك الى فندقها الدامي ثم رمى بك الى براثن هذه الحيرة القاتلة » (ص ١٤٤ ، ١٤٥) .. كل هذه الصفات والاحالات تعطيها دلالات تخرج بها من محدودية الاطار الشخصي الى افاق رمزية وشمولية تنحت ابرز ملامحها من شديد التصاقها بذكريات الماضي والام .. ومن كونها الصورة الراهنة للواقع كما هو كائن ، وبكل ما فيه من تناقضات .. ومن ثم يجيء اغتياله لها في النهاية ، ثورة منه على هذا الواقع .

(٩) الهام .. والحلم

تلوح الهام دائما مرتبطة بالاب المفقود ومتناقضة في الان نفسه مع كريمة .. اذ ان الهام تمثل في المعادلة الروائية الوجه المرتجى للواقع والوعد بالعمل والسلام والحب النقي ... لذلك فهي من اقصى الجنوب بينما صابر وكريمة مفتقران الى هاتين الصفتين ، وهي الى جانب كل
بينما صابر وكريمة مفتقران الى هاتين الصفتين ، وهي الى جانب كل
هذا متمايزة عن كريمة رغم جمال كل منهما وصابر معهما ، والجمال هنا هو السمة المشتركة او الرابطة الفنية القائلة بوجود علاقة ما بين هؤلاء الثلاثة – بنوع جمالها الشديد الشفافية كملاك « هي طاقة عبير لطيف يدعو الى استباحة الاسرار ، ليست كالنار التي صهرته بالفندق » (ص٤١) .. « وزاد انتعاشا باشعاعاتها التي ترفعه الى مستوى غير مألوف في علاقاته مع الناس » (ص٤٢) لذلك فان « تجريدها من الثياب غير مجد لان سحرها لا يستقر بموضع بالذات ، شائع كضوء القمر » (ص٤٤) .. ومن ثم فانه يعتبرها من البداية واحة يستظل بفيئها كلما انهكته عذابات البحث « وطريق البحث شاق ومحرق وطويل فيحتاج الى استراحة من الظل الظليل » (ص٥٤) ولذلك فانها « تنزوي في ركن كالندم عند طغيان الجريمة » (ص٥٥) ولانها غريبة جدا على واقعه الكائن بالفعل ، فانه يجد نفسه مضطرا الى اختلاق الاكذوبة تلو الاخرى ليحتفظ بها . خاصة وانه يعرف انها « ليست على شفا هاوية مثلك . وليست جائعة الى الحرية والكرامة والسلام . ولا يهددها ماض ملوث قد ينقلب في اي لحظة فيصير لها المستقبل الوحيد » (ص٧٥) .. « ولذلك فان الهام وان قامت في حياته كالمنار ، الا انها اقلقت مخاوفه وعقده . وزعزعت اركان العالم الذي بناه لنفسه واطمأن اليه » (ص٧٦) ولذلك ايضا « فانها تعطيك كل شيء صادق ، وانت لم تعطها الا حزمة من الاكاذيب » (ص٨٤) .. كل ذلك لان الهام سماء صافية يجري تحتها الامان . وكريمة سماء ملبدة بالغيوم تنذر بالرعد والبرق والمطر ولكنها ايضا سماء الاسكندرية المحبوبة » (ص٨٧) .. و « العقل ينصحه بان يهجر الهام ولكنه لا يستطيع . هي كأبيه فيما تعد به وفي انها حلم عسير التحقيق » (ص٩١) .. العقل هو الذي ينصحه هنا بالتخلي عن ذلك الحلم الجميل المدثر بالصمت . الواعد بالمعجزات ولكنه لا يقدر.. كل الذي يستطيعه هو التذكر الدائم للواقع .. لكريمة كلما عايش الحلم .. الهام .. لحظات .. ولما كان التقاؤه بهذا الحلم غير قائم على اسس متينة ، اذ قام من البداية على اختلاق الاكاذيب ، كان محالا ان يستمر التزاوج بين صابر وبينه ، خاصة في وجود الواقع الكائن فعلا والوثيق العلاقة بصابر الى درجة الزواج منه بوثيقة من دم ... ومن ثم فان كافة الحلول الرائعة المعجزة التي تقدمها الهام للازمة ، ما تلبث ان تلتهمها الحلول الدامية التي تقدمها كريمة ، اذ جاءت حلول الحلم .. بعد فوات الوقت ، ومتأخرة عن الحلول الدموية التي قدمها الواقع الكائن بالفعل .. لا ذلك الذي ينبغي ان يكون ... وفي النهاية يذرف صابر على هذا الحلم «الدمعة الثانية في عمري كله» (ص١٧٤).. بعد ان اختص الام بالدمعة الاولى .. وبقيت الدمعتان الكبيرتان .. مصباحا يلقي دفقات الضوء على احداث الرواية .

***

بعد أن تعرفنا على ملامح كافة الشخصيات الرئيسية في الرواية بالدرجة التي تلقي الضوء على طبيعة خريطة العلاقات الانسانية الكائنة بينهم ، والتي يلوح داخلها كل منهم بتصرفاته وانفعالاته ومشاركاته واحاسيسه ، ابنا حقيقيا ومخلصا لواقعه الدامي الذي يتمزق ابن جيلنا فيه .. وبصفة عامة فان الرواية ككل قد استطاعت ان تكون صدورا حقيقيا عن المرحلة الاخيرة في واقعنا العربي ، حيث جسدت بحق ازمة الصمت الذي يسربل كل شيء في الواقع ويدثر خطى كافة الذين يحاولون اجتياز حدوده ، كما جسدت في الان نفسه ازمة الجوع الى الحرية والبحث المأزوم عنها ، ومن ثم فانها قد ساهمت في رسم معالم (الطريق) الى حل هذه الازمات من جهة ، وكشفت الكثير من جوانب الواقع للقارىء العادي وعمقت رؤيته من خلال الحالة الحسية التي تتركها في النفس المعايشة الحقيقية لاحداثها . مؤكدة الدور الريادي الذي يقوم به فن نجيب محفوظ العظيم في واقعنا الراهن .

صبري حافظ القاهرة

فرنسا

((قوة الاشياء)) والنقد



لا تزال الصحافة الادبية في باريس تنشر المقالات المطولة لكبار النقاد والدارسين عن كتاب سيمون دوبوفوار الاخير ((قوة الاشيـاء)) الذي احتل في قائمة اروج الكتب المقام الاول لبضعة اشهر .

وكان الناقد المعروف اوتوهان قد نشر في جريدة ((الاكسبريس)) مقالا عن الكتاب بعنوان : ((سيمون دوبوفوار تقول : ماذا فعلت بحريتي؟)) وقد جاء في المقال ما يلي :

((تبدأ سيمون دوبوفوار سيرتها في الطريق ، عام ١٩٤٤ ، ايام التحرير ، وتنهيها في يوم ٥ تموز ١٩٦١ في مركز الطلاب الافريقيين الشماليين ، بين الجزائريين الذين يحتفلون باستقلالهم وبين هذين التاريخين ، قصة المسيرة التي تقود امرأة شابة في التاسعة والثلاثين ، مأخوذة بنجاحها الصاعد ، الى مرارة الكاتبة المكرسة التي تكتشف نفسها ، وهي في السادسة والخمسين ، وجها لوجه امام حدودها : التاريخ ، والزمن ، والموت .

و ((قوة الاشياء)) يرسم تجربة امرأة تحقق ذاتها ، والشكل الذي تتبدى به الحياة والعالم لناظريها . واذن ، فان سيمون دوبوفوار تباشر موضوعات لا تحصى تتسلسل وتتداخل ، وتخصص مكانا ممتازا لغرامين استثنائيين ولصداقتها الدائمة مع سارتر . ثم تصور مناظر حياتها ، وتتحدث عن لقاءاتها بكبار الكتاب من جميع البلدان ، وعن صداقتها لميرلو بونتي ، وكونو ، وجينيه ، وجياكوميتي وليريس . وقد روت احداث ١٩٥٠ التي ادت الى النزاع مع كامو وكوستلر اللذين صورتهما بريشة بالغة القسوة .

و ((قوة الاشياء)) يكشف كثيرا من المظاهر غير المتوقعة . ففيه نجد صورة لسارتر في حياته الخاصة ومباذله ، وهو يتناول حبوب الكوريدران حتى يكاد يصاب بالصمم ، فيما هو يعمل ٤٨ ساعة متتابعة ، او يترك الادب ليستأنف دراسته للاقتصاد والتاريخ . ونشهد في الكتاب مولد ((اسرى التونا)) و ((نقد العقل الديالكتي)) ، ونرى سارتر في كواليس مسرح انطوان يراقب تجارب مسرحيته ((الشيطان والرحمن)) ..

وتتناول سيمون دوبوفوار في اثناء الحديث محاولة ((التجمع الديموقراطي الثوري)) ، والخصومات مع الشيوعيين ، ودعوى كرافتشنكو ... وتروي - في لهجة تحقيق ممزوجة باللذة - رحلاتها الى البرازيل وكوبا والصين وموسكو ... وبالاجمال ، فان ((قوة الاشياء)) وثيقة ثمينة عن فترة يستطيع سارتر ودوبوفوار وحدهما ، وهما الشاهدان الممتازان ، ان يروياها .

ولكن وراء الحديث السردي عن عصرنا ، تفكيرا عميقا عن الحياة والنجاح والخلق . ان سيمون دوبوفوار تستعيد كتبها وتفكر بها من جديد ، وتتساءل عن التغييرات التي ستدخلها اليوم على كتابها ((الجنس الثاني)) الذي ما تزال متعلقة به اشد التعلق ، وتنتهز الفرصة لتتحدث عن طريقة تأليف الكتاب ، وعن ردود الفعل التي اثارها : من الرسائل المغفلة ، والعروض القذرة ، والسخريات التي تعكس كلبية الذكور الذين نوضع امتيازاتهم موضع الشك . وتسجل بعض ردود الفعل هذه ، ومنها رد فعل فرانسوا مورياك الذي كتب لاحد محرري مجلة ((التان مودرن)) يقول : ((لقد عرفت كل شيء عن فرج معلمتك)) .

وفي ((قوة الأشياء)) كذلك تسجيل لتطورات حرب الجزائر كما عاشها الاحرار في فرنسا ، في ثورة الاعصاب والضيق والقلق والعجز واليأس .. ونرى سيمون دوبوفوار تبتعث من جديد جو الكارثة الوشيكة. ولم يسبق لاحد قط ان يتحدث عن ايام ١٩٥٨ القلقة بافضل من هذا الحديث .

وقد اتبعت الكاتبة ، للسيطرة على هذا «البانوراما » الفني، اسلوبا تمتزج فيه المذكرات باليوميات والتعليقات ، بحيث ان بعض العبارات قد تبدو حشوا في الكتاب ، ولكنها في الحقيقة لبنات مرصودة لبناء المجموع المعقد الذي هو الحياة ، على كونها غير قابلة للتبرير . ثم ان سيمون دوبوفوار تقبل مباهجها وملذاتها ، واذا حاولت ان تفهمها وان تتعمقها ، فبكل هدوء وصفاء ، من غير ان تدخل في ذلك اي ندم او انكار .

من هنا كان ذلك الصدق الذي ينبعث من الكتاب كمجموع ، لا من اللحظات المتناثرة المعاشة بالصدف والتي يدافعها طيش العالم وخفته . والحق ان هذا الصدق سيعرضها لكثير من الانتقادات . انها لا تحكم على نفسها ، فتترك لغيرها مزية سهلة تمكنهم من التفتيش في الاعترافات ليبنوا تحقيقهم .

ومهما يكن من امر ، فان هذه السيرة الذاتية ـ وهذا ما يجعل لها قيمتها ـ لا يمكن ان يحكم عليها بكل براءة ولا بكل عدم تحيز ، لانها تلزم عصرنا كله الذي عشناه جميعا في العجز وفي المراهنة على المستقبل.

« لقد كنت مضللة مخدوعة ! » تلك هي الصرخة المأساوية التي تنهي « قوة الاشياء » والحق ان جميع الصفحات الاخيرة في الكتاب تتحدث عن « الشيخوخة التي تفسد القلب » كما لو انها تتحدث عن رؤية كابوسية . وفي هذا الحديث لهجة يأس بالغة : وتتخيل سيمون دوبوفوار موت سارتر في تمزق هائل ، وتصور كراهيتها للمرآة تصويرا قاسيا . وكل سطر يكشف عن الفظاعة التي نستشعرها في ان تطيل حياة اصبحت فاقدة المعنى .

ولكن الكاتبة تبالغ في ذلك . ولا شك في انها ، هي التي اصبحت رمزا لكثير من النساء اللواتي حررتهن من الخوف ، تستطيع ان تحس بان ليس ثمة ادنى نحس يثقل عليهن ، وبان الحياة يمكن ان تجد لها تبريرا بعد ان يبلغ المرء السادسة والخمسين من العمر . وبوسع سيمون دوبوفوار ان تجيب على السؤال التي طرحته في اول سيرتها « ماذا فعلت بحريتي » بقولها : « لقد وهبت منها للاخرين » .

هذا ما كتبه اوتوهان عن « قوة الاشياء » . اما الكاتب الفرنسي الشهير فرانسوا مورياك فقد تحدث عن الكتاب في يومياته التي ينشرها في « الفيغارو ليترير » (العدد ٩١٧) ، فقال ان هذه المذكرات «تعكس السنوات التي عشتها انا نفسي . وهذه الكاتبة الخصم التي لا تكتب اسمي الا بعداوة او احتقار ، والتي تتعارض جميع الافكار التي تعتنقها مع افكاري بعنف ، لا شيء يمنع ان تكون قصتها قصتي : فاذا عدت الى ذكرياتها ، فانما اعود الى ذكرياتي » .

وتعليقا على ما ذكرت سيمون دوبوفوار من ان فرانسوا موريـاك قال لاحد محرري « التان مودرن » : « لقد عرفت كل شيء عن فرج معلمتك ! » قال الكاتب ان هذه كلمة فظيعة لم ينطق بها قط ، واذا نطق بها ، فهو يعتذر لسيمون دوبوفوار عنها ...

وكتبت ماريا كرايو مقالا ضافيا عن « قوة الاشياء » في « فرانس اوبسرفاتور » قالت فيه : « يمكن للكتاب ان يزعج ويثير الحنق ، ولكن صوت هذه المرأة الذي يوشوش ، والذي يحسب حساباته ، ليس هو الا صوت جيل باكمله ، بكل اندفاعاته والوان اشمئزازه وتمرده ووعيه .

جائزة فورمنتور لناتالي ساروت

منحت الروائية الفرنسية المعروفة ناتالي ساروت جائزة «فورمنتور» العالمية لهذا العام . والمعروف ان هذه الجائزة التي هي جائزة الناشرين العالمية قد اسست عام ١٩٦٠ بناء على مبادرة ناشر اسباني على امل اعطاء اسبانيا مكانا في الحياة الادبية العالمية . وهذا الناشر الاسباني (واسمه كارلوس بارال) قد اقنع الناشر « انيودي » (ايطاليا) ويدافيلد (بريطانيا) روهولت (المانيا) وروزيت (الولايات المتحدة) وغاليمار (فرنسا) بان ينضموا اليه لمنح جائزتين قيمة كل منهما عشرة الاف دولار .

وكان المفروض باولى هاتين الجائزتين ان تعطى لكاتب مكرس ، شرط ان يكون قد نشر كتابا في السنة السابقة . وكان المفروض بالثانية ان تعطى لرواية مخطوطة لكاتب شاب يتعهد الناشرون الستة ان يصدروا كتابه في وقت واحد في كل من البلدان الستة . وقد انضم الى اولئك الستة فيما بعد ناشرون اخرون ، فاصبح عدد البلدان الممثلة بجائزة فورمنتور ثلاثة عشر . ولكن اللجان التحكيمية كانت تجتمع ـ لاسباب لغوية ـ بحيث اصبح العدد الضروري لمنح الجائزة سبعة اصوات .

غير ان الجائزة التي تمنح للمخطوطة ان كانت تعطى من قبل



الناشرين انفسهم ، فقد كانت الجائزة الاخرى تخص الكتاب الذين يصحبون كل ناشر الى ذلك اللقاء العالمي . ففي هذا العام مثلا كان يحيط بكلود غاليمار كل من فرانسوا ارفال ودومينيك اوري وميشيل مور وميشيل بوتور ، في حين ان مورافيان كان يرافق انيودي ... وقد فازت ناتالي ساروت هذا العام باربعة اصوات هي اصوات فرنسا وايطاليا والمانيا وسكاندينافيا لروايتها الاخيرة « الثمار الذهبية » . والمعروف ان ناتالي ساروت سبق ان ترجمت الى جميع لغات جائزة فورمنتور .

ويبدو ان التنافس كان شديدا ، باعتبار ان الانكلو ساكسون والبرتغاليين قد نصبوا في وجه « الرواية الجديدة » التي تمثلها ساروت كتابا امثال غانترغراس الالماني او ايوكيويشيما الياباني او جوادا روزا البرازيلي او اليجو كاربانتيه الكوبي او سولجانتسين الروسي

اما جائزة المخطوطة فقد منحت هذا العام لجيزيلا السنر الالمانية على مخطوطتها « الاقزام العمالقة » .

الولايات المتحدة

ساروپان ... واللامعقول

صدر اخيرا لوليم ساروپان كتاب يكاد المرء لا يصدق انه هو مؤلفه . وعنوان هذه الرواية الجديدة هي « بين الصبيان والبنات » ، وهي قاسية ، مريرة ، يائسة لا تتلاءم لهجتها مع لهجة ما كتبه ساروپان قبل الان . فكل شيء فيها كذب بين الصبيان والبنات ، والحب فيها انتحار والموت تهريج اجتماعي قذر . ان ساروپان المتفائل الذي كان يجرؤ على ان يبدو عاطفيا ، والذي هو اوفر الروائيين شاعرية ، يشك هنا بدوره في الانسان ويعتنق فلسفة اللامعقول والعبث .

فهل يكون هذا عرضا ، ام ان تفاؤليته لم تكن الا خدعة وقناعا ؟ لقد كانت حتى الامس القريب في سيرته الذاتية « ها انتم تعرفون من

يكون » يوحد بين الانسان وعمله في حس الحياة الانفعالي المباشر ، وكان حتى الامس خالق ذلك العالم نصف الواقعي ونصف الجني حيث يستطيع الشعر دائما ان يحطم قوانين الثقل الكئيبة . ولكنه يصبح الان بورجوازيا صغيرا ضجرا من الحياة ويائسا .

ان كتاب « بين الصبيان والبنات » كتاب قاس ، لا شاعرية فيه . وحدة المكان ، ووحدة الزمن ، ووحدة اللاعمل . ستة اشخاص ، وولدان، وجهاز تلفون والملل المعالج بالخمرة . انها درامة لا مجال فيها لاعمال



البطولة ولا السعادة ، درامة زوج وزوجة في شقة بالضاحية ، وسط اثاث معهود ، مساء عندما ينام الاولاد . « كانا جالسين في الصالون الذي كانا يحتقرانه كلاهما . ولكي لا يبقيا جالسين هكذا ببلادة ، كانا يبحثان عما يقولانه ، ولكن لم يكن لديهما ما يقولانه ، الا ان يبدأا خصاما بينهما ، وهذا ما كانا يفعلانه كثيرا . » وهكذا يبدا الحوار بينهما ، تهريجا للحديث الزوجي ، حتى يكاد المرء يحسب انه امام ارتفاع الستار عن مسرحية « المغنية الصلعاء » .

وهذا القتل للحب يبدو من اول نظرة وحشيا مميتا ، كانه مشهد من مشاهد ايونسكو . ولا نرى سارويان يرحمنا اطلاقا حين يصور ذلك كله ، من الصالون الى الحمام ، وحتى محاولة العناق الزوجي ، ذلك انه يبث القبح والفظاظة في جميع هذه الحركات . وما يلبث زوج وزوجة اخران ان يصلا ، وينعقد الحديث ، ويشيع الملل بين الاربعة ، بدلا من أن يشيع الكره بين اثنين . ويشرب الجمع لانهم يضجرون ، ثم يجري الاتصال تلفونيا بزوج وزوجة اخرين حتى يزداد الشراب ، وبزوج وزوجة رابعين كذلك ...

وينظم الجميع ، بعصبية ، شبه حفلة مرحة . ويتفق ان يصاب احد الازواج الشيوخ بنوبة قلب فيموت ويزداد الضجر والانزعاج ، ويشرب الجميع نخب الموت ، ولا تكون دموع الارملة اصدق من حداد الاصدقاء في ذلك العالم المزيف اللامعقول .

ولا شك في ان رواية « بين الصبيان والبنات » تضمن قسما كبيرا من سيرة سارويان فالحادثة تقع في مسقط رأسه سان فرنسيسكو ، والبطل الذي يحلم بترك زوجته يبلغ التاسعة والثلاثين من عمره ، وهو عمر سارويان تماما عام ١٩٤٨ حين طلق زوجته ، وله هو ايضا ولدان ، ذكر وانثى . وهو اخيرا كاتب ، كاتب فاشل . وحين تزوج بامرأة طائشة، وكان مأخوذا بهوس المال ، انقطع عن الكتابة وراح يضيع وقته بسباق الخيل ليكسب « الطراز الاميركي لحياته » .

وفي الرواية يبدو ان الدولار يفسد كل شيء ، والاولاد وحدهم هم الابرياء ، ويحاول البالغون الكبار ان يقلدوا العابهم ، ولكن عبثا . وهنا تبدو مثالية سارويان برمتها ، وهو الذي رفض عم ١٩٤٠ جائزة بوليتزر، لان على الفنان الا يمس المال ، ولا ان يفسد نفسه في مجتمع يجعل من جميع الفراشات شرانق . غير ان هذه المثالية قد فقدت هنا ، على رأي النقاد ، سحرها حين نسيت شاعريتها . لقد ذهب التوازن الرخص الذي كان يقوم ، في اعمال سارويان ، بين الواقع والنزعة الخيالية الجنية الساحرة . فلم يبق الا عبثية الثقل ويأس الاوهام الضائعة .

« المأدبة العارية »

لن يدهش المرء اذا قرأ اوصافا من مثل « فظ ، قذر ، مقرف » حين ترد هذه الاوصاف على ريشة ناقد من النقاد وهو يتحدث عن كتاب من الكتب . اما ان ترد في حديث مؤلف يتكلم عن كتاب له بالذات ، فذلك غاية ما يثير الدهشة والعجب ! وهذه هي حالة الكاتب الاميركي وليم بورو W. Bourroughs الذي يبلغ الخمسين من عمره بالنسبة لكتابه الجديد « المأدبة العارية » Naked Lunch

والواقع ان القارىء لا يسعه الا ان يقر هذه الاوصاف وهو يقرأ بعض المشاهد والفصول في هذه الرواية التي تثير الاشمئزاز والتقزز . ثم ان المؤلف يدعو « المعد المرهفة » ان تبحث عن غذاء لها في مكان اخر، وهو بذلك يحذر قراءه سلفا .

ولكن الذي يحدث ان بعض الكتب التي توصف بانها مقرفة وقذرة هي اثار ادبية ذات اهمية كبرى ، وهي تحمل بذور التجديد حين تكشف عالما تهمنا معرفته اكثر مما تهمنا معرفة عالم نمارس فيه نشاطاتنا ، عالم مليء بالمشاعر والاحاسيس والنزعات والمسالك التي تخصنا على نحو ما ، ما دامت تخص بشرا مثلنا .

كان بودلير يقول مخاطبا العالم : « لقد اعطيتني وحلك ، فصنعت منه ذهبا . » وسر هذا التحويل الكيميائي لا يكتشفه القادم الاول ، بل

هو يحتاج الى موهبة عظيمة . وكتاب وليم بورو هو اثر ادبي كبير ، فلا يمكن ان يكون مفشيا او منفرا . وربما كانت المادة التي يستعملها هي كذلك ، والموضوع ، والاشخاص . فوليم بورو يتحدث عن عالم المخدرات، يتحدث عنه لا كمحقق ولا كروائي بقدر ما يتحدث عنه كرجل تعاطى المخدرات مدة خمسة عشر عاما وخضع لعبوديتها ، فعاش طوال هذه المدة كانسان دون ، كحثالة بشرية . انه بعبارة اخرى يصف لنا تجربة معاشة اذا صح ان نسمي التجربة هذه الحالة المتأرجحة بين النهار والليل التي تعيشها بقايا بشرية لا تتحرك الا لتطلب السم الذي هو بالنسبة اليها حاجة ضرورية مطلقة .

وهذه التجربة المعاشة على صعيد الحياة اليومية ، هي معاشة كذلك على صعيد الوعي والميكانيزات العقلية . والرجل الذي يحدثنا هنا ليس حرا في ان يمتنع على التجربة ، فهو متحدة فيه ، وهي ضحيته اليائسة ، وهو لا يستطيع ان يعيش خارجا عنها . وليست عبارة « الجنة الاصطناعية » التي يلتمسها متعاطي المخدرات الا جحيما حقيقيا .

ان متعاطي المخدرات انسان يعيش على هامش المجتمع ، والمجتمع يسعى للتخلص منه بصفته جسما غريبا عنه . فالشرطة والعدالة والمخبرون يتتبعون اثاره ابدا فيما هو مستسلم الى سلسلة من اللصوص، الذين هم تجار المخدرات ، تتصرف ايديهم بحياتهم وفق هواها . وبورو يصف هذا العالم الخاص وصفا رائعا ، عالم قذر ، فاس ، لا يرحم ، يعمل فيه بلا هوادة قانون العرض والطلب، ويطغى فيه المال بكل مفاسده. عالم يمت من جهة الى النظام الرأسمالي ، حيث لا يبيع التاجر نتاجه للمستهلك ، بل يبيع المستهلك لنتاجه ، ويغرق من جهة اخرى في اعمق اعماق الجريمة « اجل ، لو كنت مكاني لفعلت مثلي . انك لن تتردد في الكذب او الغش او الوشاية باصدقائك او السرقة – اي شيء لتستطيع ان تشبع تلك الحاجة المطلقة . » هذا فضلا عن اعمال الشذوذ الجنسي بكل اشكاله .. والمؤلف يصور جميع هذه الاشكال تصويرا بالغ الصدق والدقة . انه يكتشف ، ويعري ، ويحسر الحقائق حتى عظامها حتى ليكاد ينقل الى القارىء الاحساس الجسمي بانها قذرة . وهكذا يخرج القارىء بأن هذا الكتاب « القذر » ، « المفشي » انما هو كتاب اخلاقي من الطراز الاول !

ايطاليا

وقحة ... وكاذبة !

***

لو كنت ايطاليا ، لسمعت منذ وقت طويل كثيرين يتحدثون عن اوريانا فالاشي Oriana Fallaci ولعرفت انها نجمة المجلة الاسبوعية المعروفة « اوروبا » التي ترسلها الى جميع انحاء العالم لتجري التحقيقات والمقابلات مع اشهر الشخصيات ... ولو كنت مثقفا ايطاليا لوصفت اوريانا بأنها فتاة وقحة وكاذبة . ولو كنت الشاعر الشهير كوازيمودو لاحتفظت لها بحقد شديد لانها وصفته بانه مصاب بمرض « جائزة نوبل » الذي لا شفاء منه ... ولو كنت ايطاليا لسمعتها في الراديو تجيب على سؤال : « لماذا سميت كتابك الاول : « الجنس اللامجدي » بقولها : « حتى يبيع كثيرا ! »

ولو كنت ناشر اوريانا فالاشي ، لاحتقرت قليلا هذه المرأة (بالرغم من انك تربح كثيرا من المال من كتبها) لانها تطالب دور النشر براتب شهري يعطي للادباء ، وحتى لو كنت صديقها فلينى لتضايقت منها حين تقرأ سلسلة مقالاتها عن بعض الادباء ، وانت منهم ، بعنوان «الكريهون» !
وقد نشرت اوريانا روايتها الاخيرة بعنوان « بينيلوب في الحرب »، وهي قصة امرأة ايطالية لا تخلو من رجولة ترحل لفتح اميركا فتجد نفسها مهزومة فيها وخائفة :

« احب اميركا ، اكره اميركا ، وانا لم اشف منها على اي حال . يا ماما ، كم هي قاسية اميركا ! ان المرء لا يرى فيها رجالا شيوخا ، لانهم حين يبلغون الخمسين ، تكون النساء قد اكلتهم ! انه بلد الارامل والمطلقات . وجميع المال هو بين ايدي النساء : فالرجل لا يستطيع حتى ان يختار بنطاله . وانا لا افهم : فانني انور حين ارى النساء في البلاد الاسلامية متحجبات . اما في اميركا ، فالرجال هم المتحجبون ، او انهم سيصبحون كذلك . »

« في ايطاليا ، اعيش كانني رجل ، او بالاحرى كأني امرأة اميركية، باستثناء انني لا احسن قيادة السيارة . فآخذ التاكسي . على نفقة الجريدة . والمثقفون في ايطاليا اشبه بحزب سياسي : لكي يستطيع احدهم ان يدخله ، فيجب ان يقبل فيه ، كما هو الشأن في الحزب الشيوعي بروسيا ... ولكنك تتساءل : لماذا اكتب كتبا كذلك ، وانا صحفية ؟ حين كنت صغيرة ، اخذتني الرغبة ، لا بأن اكون كاتبة ، ولكن بان اكتب كتبا ، لاني احب الكتاب ، وورق الكتاب . ان الناس على الاقل لا يلفون به الاحذية . بلى ، بلى ، لقد اخذت مرة حذائي لاصلح كعبه فأعاده لي الاسكافي ملفوفا بمقالي ...

« ولكن حين يقال لي : ان الصحافة اسوأ من الادب ، اجيب القائل : انت ابله . ان هناك كتبا فظيعة ومقالات رائعة ، اليس كذلك ؟ وتولستوي في « الحرب والسلم » وهمنغواي ، ان لهما اسلوبا صحفيا ، اليس كذلك ، واذن ؟ »

« غرام »

صدر حديثا للكاتب المعروف دينو بوزاتي رواية جديدة بعنوان « غرام » تختلف كل الاختلاف عن رواياته السابقة « صحراء التتر » و « انهيار الباليفرن » وسواها من تلك التي تصور عالما غريبا خياليا وهو وسط بين عالمي غوغول وكافكا .

والرواية هي قصة يصح أن توصف بانها « قذرة » لرجل خمسيني يحب فتاة في العشرين . ويمكن اعتبارها فصلا من تقرير الدكتور كينسي عن الحب في ايطاليا . والمعروف ان منازل البغاء قد اقفلت في ايطاليا منذ خمسة اعوام ، ولكن الحنين الى « الغرام المرتزق » ظل قائما في نفوس كثير من الايطاليين الذين هم اكسل من ان يختاروا لهم رفيقات حياة دائمات من اوساطهم واحرص من ان يعرضوا انفسهم لفشل ما في هذا الاختيار .

على ان هنالك طرازا من الفتيات ، ليس هو طراز المومسات ، اصبح اليوم هو الشائع المرغوب فيه في ايطاليا . « فلقاء عشرين الف لير ، بل حتى اقل من ذلك غالبا ، تستطيع ان تملك فجأة بلا ادنى



صعوبة ولا اقل خطر ، فتيات جميلات لو كن في الحياة العادية العامة لكلفن وقتا طويلا وتعبا ومالا كثيرا وقد يتركنك على جوعك .. اما هنا ... فمخابرة تلفونية ، ورحلة قصيرة في السيارة ، وسبعة طوابق بالمصعد ، وها انت امام الساحرة التي تنـزع رافعة نهديها وهي تبتسم لك ...

وهكذا تفضل هذه الفتاة ، بطرازها الجديد ، البغي القديمة المعهودة ، فهي تنتمي الى الوسط نفسه الذي ينتمي اليه زبونها . ان لها غالبا ابا واخا وزوجا او خطيبا يمكن للزبون ان يلتقي به في صالون . واذن ، فليس على الزبون بعد ان ينخفض كالماضي ، فهو يجد لدى « الفتاة » جميع حسنات الخليلة ، بدون مساوىء فتح صعب كثيرا ما يكون لا مجديا .

واذن ، فان رواية بوزاتي « غرام » هي وثيقة عن طراز المرأة الجديد الذي اخذ يروق الشبيبة في ايطاليا . ان « لاييد » الفتاة التي التقى بها دوريغو الخمسيني في بيت السنيورة ارملينا ، تجعله منذ اللقاء الاول مجنونا بحبها ، لا لانها بدت له مطيعة خادمة ، بل على العكس لانها استعبدته ، وخدعته وكذبت عليه واستغلته بوقاحة . وقد ادركت على الفور انها دخلت جلده . وان افضل طريقة لامساكه هي الافلات منه ... فهي تطلب منه مثلا بالتلفون : ان يأتي للبحث عنها حيث ذهبت لتاخذ صورا فوتوغرافية للموضة . وحين يهرع يجدها بصحبة شاب تدعي انه ابن عمها ، فيتهمها فورا بأنها تخدعه ، ولكنها تحنق هي بدورها لاتهامه اياها ، ولكن بشكل لا يقطع العلاقة به . وتتكرر الحادثة عشرين مرة . وكلما اعطاها المال قل احساسه بحقه في ان يحرمها حريتها ، وتنتهي محاولات تمرده كلها بالفشل .

والحق ان ما يربط الرجل بالفتاة انما هو بالدرجة الاولى استغلالها الذاتي . ان « لاييد » شخص حقيقي ، لا « شيء » خاضع لارادة الذكر ، كما هو الان شأن تسعة اعشار الايطاليات . ولا اهمية مطلقا لكونها تنطوي لرغباته الجسدية ، فبوسعها ان تترك له جسمها ، ولكنها تحتفظ لنفسها بروحها وقلبها وعواطفها ومصالحها . ويدرك دوريغو ذلك ، ويفتنه ان يقيس المسافة التي ترسمها بين جسمها وبين شخصها ، بهذه الحرية التي تعرف ان تستغلها تجاه المظهر المادي للحياة.

ولئن راقت « لاييد » لدورويغو ، وللجمهور الايطالي اجمالا ، فلانها بالرغم من اكاذيبها ادخلت الروح والشخصية في العنصر النسائي ، الفاقد الشخصية اجمالا في ايطاليا . فهي شبيهة بسيسيليا ، بطلة مورافيا في « السأم » . فكلتاهما اول بطلتين ايطاليتين تعرفان ان تقيما الموازنة بين مطالب الجسم ومطالب الروح ، أولى بطلتين لا تعطيان الرجل في الامتلاك الجسمي الا جزءا يسيرا من ذاتهما هو الجزء الاقل اهمية .

التحقيـق

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٤ ـ

نقسرك على الاعتراف باننا صفوة وانتم حثالة .

وصرخ بشدة كيما يغلغل هذه الكلمة في اعماقي : حثالة انتم حثالة ، البعث هو حتف مونكم ايها الاوغاد ايها الذيليون ـ الناصريون.

ورفع افراد الفرقة رأسي فادركت انهم يحاولون انتزاع الاعتراف مني عن طريق : الهذيان . فصممت على الصمت الا ان تصميمي تهدد حينما باشروا فيضرب رأسي: لقد اخذتأهذي دونما وعي.. وفجأة توقف التعذيب فرأيت الجماعة التي جاءت بي قد تغيرت كما لاحظت ان الشباب الذين كانوا واقفين كمتهمين اثناء تشخيصي بلا معرفتهم هـم الاخرون قد تغيروا . كان على الارض صديقي ، ح ، موثوق اليدين والرجلين . تسيل من اظافره الدماء بغزارة . وكان وجهه يلتصق بالارض حتى لكانه بلونها ، نظرت اليه طويلا ولما كنت لا استطيع تمييز الاشياء بسبب شدة الضرب على رأسي فقد تلاشت صورته من امامي . ولكنها بدت بعـد لحظات طويلة عملاقة حتى لكأن رأسه قد شق سقف الغرفة .. اخذ ، ح ، ينادي بالشفقة والرحمة ويتلوى ويتوجع فكان خالد طبرة يرد عليـه: « ان تصرفنا معكم هو تصرف قدري . لانكم ضد تيار التاريخ والقدر هـو الذي يوحي لنا بما نعمل .. »

ان كلمات خالد معروفة لدى جميع البعثيين لانها من اقوال الاستاذ عفلق الذي يقول : ان القدر الذي حملنا رسالة البعث اعطانا الحق في ان نامر بقوة ونتصرف بقسوة ، قال ذلك بصورة اخرى .. كان ترديد كلمات واقوال عفلق في مناسبات التعذيب اشبه بترتيل الايات لـدى الكهنوت وقد يعجب البعض من غباء الرهوط البعثية وعدم قدرتها على تفسير اقوال الفيلسوف البعثي !. بيد ان العجب يزول عندما نعرف ان خصائص التربية الحزبية لدى حزب البعث مرتبطة كليـة بالخصائص الرجعية للغيبية ، فالوعي فيها مشروط بالتصديق لا بالمناقشة والايمان فيها بالاحساس الحزبي لا بالادراك العقلي . واغتيال الادراك الانساني يجيء لدى الرهوط البعثية من هذه الخصائص التي هي السمة غـير القابلة للتغيير لدى حزب البعث . كان خالـد يصرخ بوجـه ، ح ، وبوجهي : ان عقيدة البعث لا تناقش لانها شاملة . وكنت دائما الـوذ بالصمت لان مناقشة هذا الوحش الفاشي لا تجدي نفعا لان عقلـه قـد غاب في ضباب الافكار التي يعتنقها بالاضافة الى انني قد بلغت حالـة الاعياء لان عقلي قد بلغ مرحلة اللاوعي الامر الذي جعلني افقد سيطرتي عليه او سيطرة شعوري ولا احد يتصور مدى اللاواقعية التي احسست بها الاسى لانني وحدي الذي شعرت بفقدان قدرتي على التحكم بعقلي.. اخذت اضحك بشدة واصرخ واقلب كل شيء اصادفه وحالتي هـذه مرتبطة عضويا وبقدر ما هي طبيعية بقدر ما هي شاذة لانها ظاهرة تنم عن مدى الانسحاق الذي وصلت اليه .. ان العالم المادي الحقيقـي الذي امامي كان يبدو لي شيئا خاليا ينحل ويموت ثم يتشكل في صورة ثالثة ورابعة وخامسة وهكذا .

اجلسوا ، ح ، جلسة القرفصاء بعد ان حلوا وثاق قدميه واخذوا يضربونه بالصوندات . واخذ جلاوزة الفرقة يعرضون طاقاتهـم عرضا واسعا . فكانوا يتفننون بتعذيبه . وحين اخذ ، ح ، يصيح اخذ اللاكم ميرو يوجه له لكمات قاسية ويصفعه بشدة . وقال خالد بعـد ساعات طوال : « سوف نعلمكم كيف تلينون امام ارادتنا غدا . غـدا سوف تتكلمـون » .

ثم اضاف بلهجة ساخرة : غدا سوف نجعلكم ترون عبـد الناصر باعينكم ، ان كل ما فعلناه معكم لا يعدو كونه تعذيبا هينا اما الادهى من كل ذلك فسوف يجيء غدا . اتفهمون ذلك ؟

وسرعان ما اتجهت الفرقة الينا وما لبثت ان سحلتنا الى الزنزانة السادسة . كان النهار يعلن عن قدومه في تباشير الفجر اما نحن ففي ظلام دامس . ظلام يؤكد النقائض المعادية للشعب بقدر ما يريد دحـر خصائص التقدم والتطور والبناء . والنقائض التي تتحكم بشعبنـا خادمة لاعداء الشعب اصحاب المال والملاك والبيروقراطيين لانها لا تعرف من وسائل التغيير غير العنف . التغيير الى الاسوأ . الى ايقاف التاريخ والعودة به الى الفاشية وعهود التأخر واللاانسانية .. ان نقائض البعث التي يفلسف بها ثورته هي نقائض الثورة الحقيقة لان افكارها واعتماداتها وارتباطاتها لا تسير في خط مستقيم مع تيار الواقع الاجتماعي . وبالرغم من اساليب التكنيك والعلم التي تخدم الافكار الرجعية فان تلك النقائض لم تستطع ان تضع اساليب التكنيك في خدمة اغراضها الا داخـل وسائل الخصائص الرجعية التي يتمتع بها التفكير البعثي . لقد مـزق البعث اموال الدولة وحطم اقتصاديات البلد وخدم اصحاب الاملاك ، والمغامرين من ذوي الرتب العسكرية . امـا الشعب نحن ففي ظلام : بطوننا تصيح . وعيوننا تتقوقع في حلكة الليل الطويل الدامس ..

الزنزانة السادسة ارض مصبوغة بالقاذورات . بنفايات الطعام . اما جدرانها فمصبوغة بدماء الرجال التي حولت مكاسب البعث مـن الكم الى النوع . من حزب بسيط الى حزب يدير امور قطرين سوريـا والعراق .. وبدمائنا سوف يصبغ البعث رايته الاشتراكية . وهـذا مفهوم اغنى واكثر تطورا مع عمليات التطور التاريخية !!.. مالي اهذي يا نفسي . فليكن الانبثاق في الظلام . فالتاريخ جديد .. التاريخ نهار وكل شيء يولد في الظلام يكشفه النهار .

بلى ان التاريخ نهار . والرؤي والفعل هما ارادة الانسان فـي التاريخ . هما طرفا التعبير عن الارادة ، والحضارة هي مركـز اطراف الحياة : العمل . والرؤى ، الغبطة والسعادة . الالم والعذاب والـى جانب هذا الوجه الاخلاقي في الوجه التقدمي في كـل رؤي تحاول ان تبلور خصائص الواقع وتبني فيه كينونة جديدة منبعثة مـن الحالة التاريخية . اما تجاهل خصائص الواقع وتزويق الاشياء فيؤدي الـى ايقاف العالم وتبديد طاقة اللذة والايمان والعقل في الكائن . والسيطرة على المكان والزمان عن طريق القوة المجردة يخضع الانسان دونما تبريـر او قبول ولكنه خضوع الخائف الذي يرى نفسه خارج الواقع لا فيه . والقوة المجردة لعب ميكيافيلي ورياضة سادية ومغامرة تتضمن افتراضات ايمانية تحرك الاعصاب والقوة والجبروت قبل ان تخاطب العقل والادراك والوعي . وقبل ان تحرك الواقع وتنسف حواجزه الماديـة .. الرؤي بطولة فكرية تفتح الحياة في نظرنا وتغير الوجود ، وجودنا ، الى الافضل الى الضرورة والقدرة على التحكم بالزمان والمكان . والشجاعة فـي الرؤي : ملء فجوات العالم . ملء نقائصه . تغيير الواقـع وجعلـه انعكاسا للرؤي . انكاسا للذات . واستسلام العالم لقوة الرؤي اتحـاد بشجاعة الكائن الذي يحمل خصائصها ، فتزول حينذاك الحدود بـين الظاهرة والسببية . اذ ذاك يجد الانسان نفسه . واذ ذاك لا تكون القوة مجردة لانها على مستوى الفكرة قدر الحياة لتغيير الواقع والتغلب عليه .. وعجز الفكرة عن تقديم رؤي قادرة على تفسير خصيصة الامور يعني انها حلمية تخاطب الكائن بلغة غيبية . في ذات الوقت الذي تقدم نفسها للواقع بطيالس تخفي الطموح الشخصاني الـذي يترصد الوقائـع ليستغلها ...

الزنزانة السادسة تقعي فوقنا ، تسحقنا . وكأنهـا ثقل الوجود بكامله ، قذفني الحرس القومي فيها كما تقذف النفايات . فوجـدت عالما يقف على حافة الهاوية ، شبيها بعالم الموت . بلى انه عالم الموت بعينه . عالم القبور فالزمان لا تعرف حدوده : ليله ونهاره ، والشباب يأنسون من العذاب والالم ، كأنهم قد صعقوا فانسحقوا . كان كل واحـد منا يوآسي الاخر . والموآساة حركة في تعاطف الروح الانسانية . بـدء معرفة الالم وتبادل الحب .. اننا بذلك نصور اعماقنا ، غريزتنا ، عقلنـا الذي يريد ان يرى العالم غير مشوه ، وحين نخاطب بعضنا نشعر بـأن انسحاقنا هو شيء معكوس من بطولتنا لاننا عقبة امام تيـار الشر .. شعرت بالغبطة لان جراحي تعمق انسانيتي ، وشعرت بالتعمق البعيـد

لمعرفة باطن الانسان عندما بادر الرجال الذين في الزنزانة الى مؤاساتي .. كان زمننا هو لحظات المؤاساة ، يجري كالماء الذي يبحث عن طريق له . اما حساسيتنا فكانت على صعيد الالم واللذة بين ادراك وحشية الاعماق ووعي انسانية الباطن . الحسرة والغبطة تدفعان شعورنا الى التألم والتأوه على الانسان . والتألم طاقة حياة لانه منها، اما التأوه فمجهود ضائع ... الليل تجسيد فاجع للالم . يرتفع فيه صراخ المعذبين . الليل زمان متشابه . انه يبدو مطابقا لما نراه ونسمعه فنحن لا نتعرف على شيء جديد فيه . انه تكرارية ممضة اعتدنا فيها ان نسمع الصراخ وحكايات العذاب . اما الاشياء كل الاشياء فقد اخذت تعبر في خواطرنا كالغيوم الداكنة .. ان شعورنا شيء يضيع ، يتلاشى في اللاشيء . فلا يكاد احدنا يحكي او ينظر الا وتصبح اللحظات التي يتفرقها ذكرى مؤلمة . جزءا لا طعم له الا الالم . ولكن الذي يدعو الى الفخر ان لحظاتنا يملؤها الايثار .

كانت حساسيتي تزداد كلما شعرت بافراط هياجي العاطفي وتوكيده لوجودي وكلما شعرت بغيابي الوجداني بعدما اصبح عقلي كليل الادراك. كانت حساسيتي مزيجا من الكآبة والعاطفة . وكنت اضجر من الحاح المعتقلين على التحدث معي لانني وجدت نفسي متجذرة في الوحدة والكآبة والانعزال ، فثمة حسرات تبطن افكاري ، وثمة عواطف زاخرة في خاطري . حتى الضحكات التي كان يطلقها المعتقلون لتسليتي قد صبغت بالحزن : ان الوجود يبدو امامي مموها . اما الزمان فكان يبدو لفكري ظاهرة معادة مكررة . وهذا الوضع الوجودي لم يترك لي هنيهة فرح ، الامر الذي جعل بعض المعتقلين ينفرون مني . الدهر شقائي . الذي يصدر عن حساسية مرهفة . انه شقاء التمرد وحزن الثورة . وكآبة الكبرياء المقتالة والانسانية الضائعة . وحس الموت الذي يطبق على وجودي . على حاضري فيقتل فكري ورأيي وحريتي ، الحزن والكآبة هما صيحة تمردي ضد الواقع الذي انا فيه . ضد الواقع ككل ، ضد الديماغوجية التضليلية . والديمقراطية الغيبية التي جسدت طبيعتها الفوضوية : استثمار الاخرين . واغتيال ارادتهم وحريتهم .. ان ديمقراطية الجماعة القوية سواء كانت حزبا او قلة ضئيلة تتفوق على الاغلبية بالمال هي ديمقراطية كتلوية وليست ديموقراطية شعبية لان مفاعيلها تحتوي حرية تلك الجماعة التي تستعبد الاخرين وتمتص قواهم وتسخرهم لصالحها وتستهدف احلال نفسها محل الشعب الذي تضلله . انها تفرض بنفسها قيمة اكبر من الاخرين ولذلك فهي تعتقد ان الشعب : هي ، ولذلك تسعى الى تقييد حرية الفكر والارادة والتعبير والعمل السياسي وليس هذا الافتراض يحتوي رؤي فلسفية تشرح الواقع وتبنيه على ضوء خصائصه وابعاده وقواعده لانها منبثقة من فكر طبقي يفترض الطليعية والقدرة على التفوق . والفكر الطبقي هو سيكولوجيا الحزب او الجماعة ، وهذا ما يؤكد طبقية الاحزاب الفاشية التي تعتقد انها قادرة على تسيير التاريخ والتفوق على طبيعة الاشياء . وفكرة التفوق الشخصي تشبه فكرة التفوق المالي لانها استغلالية تقوم على استثمار الاخرين من اجل الحزب والجماعة المسيطرة . واحلال شخصية جماعية او فردية كتلوية عن طريق القوة او الشعبية المزيفة ، والشعبية المزيفة كما ارى تظهر مدى رداءة النظام لان الانحراف بالجماهير والتغرير بها بعد التقرب لها بالفاظ طنانة وعبارات ضخمة يؤدي لا محالة الى فاشية تامة تستغل شعور الجماهير وتوجهه الوجهة غير الصالحة . وتمثيل الاحزاب الايديولوجية السيكولوجية البارونية يندلع من موقف تاريخي متأزم ، اقتصاديا ، واخلاقيا ، واجتماعيا . كما تنبثق الجماعات التي تنتمي الى تلك الاحزاب من المواطنين ذوي الميول النفسية السادية الذين يعتقدون انهم هم الذين يعرفون كل شيء . وتنطلق ايديولوجيا تلك الاحزاب من التبشير اولا وقبل كل شيء . ثم تلجأ الى الضبابية الفكرية حتى تستطيع ان تتلاءم مع شعورها بالتفوق : ان تنفسها الفكري يكون دائما من التزويق واللاتحدد . وهكذا كان الحزب النازي . وهكذا اصبح حزب البعث . والبعث محاولة لتجسيد عنصر الاستثمار الشخصي كما انه محاولة لتجسيد طبقية حادة تستبدل الطبقية المادية بطبقية شخصانية تطرح مسألة الحزب دونما اعتبار لماهية الانسان الذي تنده . والموقف الذي تدافع وتنطلق منه . ان البعث مليء بالتجاويف الفارغة . والعنف والفاشية يعبران عن الطبيعة السيكولوجية لقادته وبعض رهوطه .

الزنزانة صخرة الشقاء . جدرانها عنيدة راسخة والانسان فيها راسخ في الشقاء ، في البؤس يواجه بحساسيته الحادة الاختناق المعنوي ، انه محترق وضبابي . لان عقله مختل . كعقل الكائن الذي يعيش المدهش واي مدهش نرى في الزنزانة ؟. انه الانين ، انين المعذبين الذي يقوم كالايقاع في مشاعرنا . انه ايقاع يمتزج بمصيرنا الذي يتأرجح بين البقاء المرير والموت .. وافقنا غامض . وفكرنا لا يستطيع اعادة تكوينه ففكرنا كليل . كما انه لا يستطيع ان يتحدث عنه ، لان الحديث عن الواقع غير مناسب فالجواسيس كثار في الزنزانة . الجواسيس يتمتعون بخيرات فرقة التعذيب البعثية : مقابلات ، ومعاملة حسنة ، كل ذلك لانهم باعوا الضمير . هنا في الزنزانة كل شيء جامد بقدر ما هو مستفجر ومتفاعل لان عاطفة الكائن متقدة في ذلك الموضع . ان انفسنا ليست شاهدة وانما مهصورة لان النكال والعسف قد استبدا بها . ولذلك فالقلق يسيطر علينا ، حتى في النوم احلامنا مرعبة . العالم يصير في مشاعرنا من خلال الالم الذي هو نسيج اجسامنا . اما رؤانا وافكارنا وثقافتنا فهي قبض ريح . ان كل شيء يتخلى عنك . حتى تمردك ضد الواقع الزائف . واذا ما صمدت وفكرت فان حسك الداخلي يتحول الى اتون ، وفكري اصبح في هذا المستوى ، مستوى الاتون .. حساسيتي المتمردة اخذت تتقد ، تتفجر بقوة الامر الذي جعلها تنعكس على تصرفاتي التي اصبحت سريعة وعفوية بدون رؤية . هكذا انا . انتظر الغد الذي مر ومرت ثلاثة اسابيع بعده كلها ايام متشابهة او تكاد ، في انتظار الغد الذي اوعدني به خالد بعذاب لا يطاق . وجودنا يجسد جدلا مكتئب .الابعاد لان الحذر من انزلاق اللسان يسيطر علينا . اننا نتاج من نتاجات الزمان الذي نحن فيه . زمان يقرن الالم باللاشيء. كما يقترن الظلام بالنور .. المكان هو شقاؤنا الاكبر ، نتحسس كل شيء فيه بافراط وهياج ، فالشقاء هو حسنا الثائر من اجل انسانيتنا. اما العلاقة بيننا وبين الاشياء فعلاقة تسير في سواد مجلجل بالعتمة لان النور عصي علينا ـ وان كانت افكارنا مؤمنة بالغد ـ .

التاريخ يسير في غاية الوضوح ، الى امام ، وكل جماعة تحاول ايقافه انما تحاول المستحيل . بيد انه رغم ذلك فهناك شقوق وثقوب في التاريخ تتسع لتمرير بعض المواقف المتربصة التي يؤدي بها حزب او طبقة دور الطاغوت . لان التاريخ مجال يضم تناقضات داخلية بقدر احتوائه على الحقيقي .. فالتناقض هو المحتوى الداخلي لتحول التاريخ، والتناقض يكمن في صراع الاتجاهات المتعارضة . وعليه فان التطور سيؤدي الى اندحار الاتجاهات المضادة لانتقائية التاريخ . ومن هنا ومضة النور في افكارنا وتألق الايمان بحتمية اندحار الشر الرابض فوقنا .. ومن هذه الناحية . كنت افكر بأثبات وجودي في الخارج والعيش بامتلاء الوجود النضالي .. سليقة الانسان الواعي فكرة حسه المتناغم مع عقله الذي لا يخضع للانفعال . وسليقة الشجاع في خاطري، في ذاتي . تريدني موجودا في واقعي . اما الغياب فعدم ، الغياب يقتحم صيرورة ذاتي ، يحاول ان يدفعها الى تفاؤل كلاسي ، لانه يتحد بوجودي فيحيله الى بلادة فكرية في موقف فاجع . والبلادة لا تحتمل في الموقف الفاجع .

الزنزانة والمعتقلون والموقف والزمان والمكان تفرس الكآبة في الحساسية التي جعلت ذاتي اشبه بالمعسكر المفتوح للعدو ، كل الاشياء مرآتي .. كل الاشياء تتحداني . اما استجابتي فتفكير عميق . يسود فيه الالم المر المرشوق في كياني الذي يتعلق برؤاه ، بحسه ، بشهادته الضميرية . كياني يترنح ويطفر من خاطرة الى خاطرة والزنزانة صحراء ليس فيها الا اصوات الاشباح ، ليس فيها الا الكهوف ، اما الممرات فطريق الافاعي والثعابين .

ـ هذه الليلة سوف تزورنا ، لا داعي للتفكير ايها الكاتب !

انه صوت خالد طبرة الذي كان يخاطبني . وكأنه يخاطب خروفا عنيدا لا يريد الذبح . كان يبتسم ويتكلم مع المعتقلين وطوال مدة نصف ساعة كان يشمت بهم ..

ان تتكلم عن خالد واعضاء فرقة التعذيب فانك انما تحاول المستحيل لانهم بشر يجمعون بين الصفات السادية الانحرافية والصفات النفسية التي يتحلى بها الشقاة ، والكيفية التي تطبع النفس بطابع السرعة والتشويش وعدم الثبات . والتعذيب بالنسبة لهم هو بمثابة صلوات وتعاويذ . اعني انهم قد تكيفوا نفسيا مع الجو الذي هم فيه ولذلك اصبح الصراخ ، صراخ المعذبين كالافيون بالنسبة لهم . ان عالمهم ضائع بدون تعذيب . لقد حلت فيهم الرابطة الوحشية وافترست الانسان في اعماقهم مما ايقظ حالة السديم والضباب في عقولهم ، الحالة التي تتلاءم مع التعصب وكره الاخر ومقت الحرية . والمعروف ان معظم افراد الحرس يتميزون عن الاخرين بهذه الصفات البسيكولوجية التي جعلتهم يجسدون نفسياتهم في الشارع والمدرسة والمعمل والدائرة . فهم يبتزون الاموال من الناس . ويغلقون المحلات والمتاجر ويصادرون الحريات ويعتدون على الفتيات الخ التصرفات اللااخلاقية التي يعرفها الشعب في العراق ..

هبط الظلام رويدا ، رويدا ومع هبوطه اخذ الصراخ يرتفع من غرفة التعذيب ، والصراخ هو احتدام الموقف المحزن في انفسنا . اما المكان فلا يتيح اي شيء الا اذا كانت ارادة الكائن قوية تستطيع اقتناصه . المكان بؤرة نفسية حادة يستسلم فيها العالم دونما شرط لان القوة تستعبد كل شيء ، حتى تفكيرنا ، !! ، انها قوة السلطان الغشوم وليست قوة الحيوية الفعالة التي تغير التاريخ ، وفي القوة عبث الانسان بالانسان وغضبه يحتدم في التضليل ورياضة في التعذيب، والتعذيب هو لعب الفرقة الخاصة . لعبها الذي يهز الحياة لانه يدفن عناصرها . وطبيعي ان هز الحياة وهدمها وبناءها على الهوى الانفعالي هو انعكاس عجز الفكر المسيطر عن اقتحام الواقع وتحويله، لان الشعارات السطحية فيه اكثر من المحتويات ..

انتصف الليل . وكان وعيي متعلقا بجو يتحرك بفعالية حارة شديدة الحرارة . وكان وجودي يعجز عن السيطرة على فكري لان الشوق يدفعني الى مخاطبة الموت ، وفي مخاطبة الموت تتغير صورة العالم وتصبح عبثية الوجود منبثقة من الزمان الذي ينمو من خلال الهاوية النفسية التي اندفع اليها ، انني اخاطب الاشياء من داخلها . ومن خارجها المغلوب على امره الامر الذي يجعل عبث الحيلولة دون العذاب مجسدا . ويجعل الحزن العميق في باطني يدفعني الى قهر الموت والالم. لقد تمنيت ان اصبح حجرا حتى لا اخضع في النهاية الى وحوش فرقة التعذيب ، ولكن كل شيء مدان حتى وجودي الفكري الذي يتداخل ويتغير ويحير ويتيه من خلال مفاجآت السقوط الذاتي ...

كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل حين وصل ناظم كزار ليتولى امري . اجتزت الممر الطويل . وبلغت غرفة التعذيب .. دخلت وكان نظري يكتشف خالد وعمار وعباس خفاجي وبعض افراد من الحرس لا اعرف اسماءهم . وجلست على الارض كما ارادوا بعد ان اوثقوني بجامعات حديدية بيضاء .. ومرت لحظات ثقيلة اخذت اسائل نفسي عن سبب عدم المباشرة في تعذيبي . وظللت اتكهن واقول : « ربما كانوا ينتظرون بعض رفاقهم ، او ينتظرون وصول الالات الكهربائية الجديدة التي اشتروها من الخارج ، والتي هي الان بحوزة الحرس القومي في قصر النهاية » . وادركت من الاشارات التي دارت بين اعضاء الفرقة الخاصة انهم ينتظرون بعض الرفاق الكبار .. وقد استكشف بصري الاريكة النظيفة المجلوبة خصيصا لهم وعلب السجائر الافرنجية الموضوعة على الطاولات . فتأكد لدي ، أن الفرقة رأت في امري اكثر مما يجب . امسك اثنان بي واقعدوني على احد الكراسي الخشبية ثم وضعوا خوذة فولاذية برأسي . وكانت الخوذة تشبه الخوذ العسكرية الا انها تختلف عنها بوجود صمامات ونوابض وزوائد حديدية في جوانبها .. مرت دقائق قليلة لم تلبث الحركة بعدها ان تزايدت في الغرفة ، واخذ افراد الحرس ينظمون الارائك ويتهيأون لاستقبال يوشك ان يعلن عن قدوم اشخاص لهم مكانتهم .. الجلادون المسؤولون عن الفرقة يعودون .. المكان يزداد وحشية لان الترقب فيه سيد اللحظة .. ادار بعض افراد الفرقة وجهي الى الجدار ، دخل الرفاق الكبار ، فلم اشاهد الا رؤوس اقدامهم ، وتهيأت لادارة وجهي فلم استطع .. كان يقف خلفي احدهم ، وكان يوجه الي اسئلة سريعة .

ــ انت جميل . يجب ان تعلم اننا جئنا لانقاذك اذا اخبرتنا الحقيقة . قبل ان يبدأ الرفاق في تعذيبك من جديد بالالات الكهربائية التي جلبناها للخونة من الغرب . انك شاب مثقف ونحن نحب ان نعامل المثقفين بلين .

كان يتحدث بلهجة ساخرة . ولما وجدني الوذ بالصمت فتح احد الصمامات الخلفية في الخوذة فانتفضت انتفاضات شديدة واخذت اعض اكتافي . وشعرت انني أصبحت شخصا اخر وانا اتوتر واتوجع واتلوى ، ولكنني لم استطع ان ارفع صوتي لان قواي قد خارت تماما .. جلس احد الضيوف الكبار امامي واخذ يوجه الي الاسئلة :

ــ اين المطبعة ؟ من هم العسكريون الذين يناصرون حركتكم ومن هو مسؤولكم ، ما هو دورك في القيادة ؟.

ولم استطع الكلام ، فهززت رأسي نافيا علمي بشيء . وشعرت وانا اقوم بحركات النفي ان جبلا ثقيلا فوق رأسي . وان اذني اليمنى قد انبثق منها تيار ناري . وان انفي اخذ يسيل دما .. ومرة اخرى حركوا صمامات الخوذة فشعرت بعضة نارية ورجة لا توصف . الا ان توتري كان ضعيفا .. وعاد اولئك الضيوف يستجوبونني واحدا بعد واحد ، وكانوا يبدون في نظري متداخلين ، قصار القامات . حينا ، وطوال الاقدام والرؤوس احيانا اخرى .. مهما يكن فقد بدأت لا اشعر بالانتفاضات القوية ولا بالاشياء الخارجية التي تدور حولي ، ولما احسوا بذلك نزعوا الخوذة عن رأسي . وفكوا ازرار ملابسي ونزعوا قميص النوم الذي كنت ارتديه ومزقوا لباسي الداخلي ، وهنا نهض حارس قومي وجعل يلكمني ويلكمني بشدة . ثم اعادني الى الكرسي الخشبي . وبعد لحظة رشوا الماء على جميع انحاء جسمي وجاءوا بالملاقط الكهربائية التي عذبوني بها اول الامر ومرروها على بطني وظهري واسفل عيني اليمنى .. كانت حركاتي دونما وعي وكنت اسقط على الارض فيسحبونني من اقدامي ويباشرون في تعذيبي من جديد .. ولم اعد اتحرك بعدئذ ولم اعد اشعر بالزمن ولم اعد ادرك ما يدور حولي . سقطت في اغماءة بعيدة ، ولم اشعر بالوجود الا بعد انقضاء الليل وانحسار النهار ، وكنت قد استنفدت قواي وفقدت عقلي جزئيا لانني لم استطيع ان اتذكر اسمي وسبب وجودي في الغرفة التي انا فيها . وفيما انا غارق في تأمل العالم الذي بدا لي غريبا وجديدا . دخل ناظم وقال : ــ أأنت حي لحد الان ؟.

فلم اجبه . فاذا به يلكمني بشدة ويرفسني وبعد لحظة حضرت الفرقة فاذا بافرادها يمسكون بتلابيبي ويمددونني على الارض ويأخذون في ضربي بالصوندات .. لم اكن اشعر باي وجع لان حساسيتي قد انهارت . وذلك ما زاد حنقهم غضبا لانهم كانوا يحسبون ذلك مقاومة ، لقد هجر عقلي نفسي فلم اعد ادرك معاني الاشياء . ان كل شيء يستسلم للامعنى في نظري . الاشياء تعبر امامي كالضباب . تتراءى . ثم تموت . ثم تبدو في شكل اخر وسرعان ما تنسحب . واللحظات تضيع فيواللازمن ، لان الحاضر لا يبدو لعقلي حتى ولا لونا باهتا . انه ظلال تملأ المسافة بيني وبين العالم . وجودي فضاء لا حدود له تمتزج فيه النسبية والمطلق لانه يتلاشى ثم يعود كالحجر الثقيل المتجذر عميقا في الارض ...

يا الهي . ان الاشباح تطوقني من كل جانب . ان الضباب يخنق انفاسي . ان كياني يشعر انه منفصل عن الاشياء بقدر ما هو ملتصق بها التصاق التراب بالارض .. كان وجودي يجسد مأساة فاجعة ، ولحظات قاتمة .. بحيث يبدو العالم امامي شبحا مخيفا لا افهمه . لا استطيع معرفة نوعه ، اعجز عن رؤيته واضحا . انني لا استطيع له دفعا . لانني عاجز ولا حيلة لي . قد يكون ذلك الشبح . شبح الموت . لكني عرفت فيما بعد انه رؤى عقلي الميتافزيقية . ولم يفارقني ذلك الشبح الا بعد ان وضع ناظم الملاقط الكهربائية في اذني .

بغداد : **جميل كاظم المناف**



الجمهورية العربية المتحدة

الديموقراطية الثقافية

لمراسل الاداب في القاهرة

***

تعتبر سنة ١٩٦٤ في الجمهورية العربية المتحدة سنة الديموقراطية، كما تعتبر سنة ١٩٦١ سنة الاشتراكية . ففي سنة ١٩٦١ وجهت الدولة ضربات قوية الى النظام القديم ، وكانت هذه الضربات هي العامل الحاسم في تصفية هذا النظام ، فقد تحددت الملكية الزراعية في هذا العام بمائة فدان ، وازداد نفوذ القطاع العام زيادة كبيرة ، واصبح العمال شركاء في ادارة المؤسسات . ولقد كان ذلك كله جهدا صادقا صحيحا في سبيل تحويل وسائل الانتاج الى ملكية الشعب ، بدلا من ان تكون هذه الوسائل ملكا لمجموعة قليلة محدودة من الافراد يكون الربح هدفها الاول والاكبر بدون مراعاة لاي قضية اخرى ... بدون مراعاة لمصلحة المجموع .

ولقد كان عام الاشتراكية هذا تتويجا لمرحلة سابقة عليها ، ففي المرحلة السابقة كانت هناك مواجهة حاسمة للاستعمار ونفوذه ، وكانت هناك محاولة لتقوية الدولة ... دولة الثورة ، حتى تستطيع ان تقوم بدورها في تحقيق اهداف الشعب . وكانت كل المعارك السابقة على ١٩٦١ يمكن ان تصبح بلا قيمة ولا جدوى اذا لم تنته باعلان الاجراءات الاشتراكية ... فما هي جدوى القضاء على الاستعمار وتقليم اظافره في الجمهورية العربية ؟ ما هي جدوى حصر الرجعية في مواقع ضعيفة محدودة وتحطيم نفوذها السياسي ؟ ... ما هي جدوى تقوية الدولة وايجاد اجهزة قادرة فعالة ؟ ... لا جدوى من هذا كله - من الناحية الشعبية على وجه الخصوص - ما لم يكن هناك ثمرة ايجابية لمواجهة الرجعية الاقتصادية .

وهذا ما قامت به الثورة بالفعل فحققت بذلك خطوة فعالة في طريق الاشتراكية ، وهي الخطوة التي تبعتها بعد ذلك خطوات وخطوات. وبعد مرور ثلاث سنوات حاسمة على الاجراءات الاشتراكية ، وبعد ان تمكنت قوى الشعب - في معظمها - من السيطرة على كثير من وسائل الانتاج ، ومن معرفة حقوقها الصحيحة في المجتمع الاشتراكي ، واصبحت قادرة على حماية هذه الحقوق والدفاع عنها . بعد هذا كله ... لم يعد هناك خطر مخيف يحول بين الدولة وبين فتح الباب واسعا امام الديموقراطية .

وهذا هو ما حدث في عامنا هذا ... عام ١٩٦٤ .

لقد قام مجلس الامة .

واصبح لنا دستور كامل « مؤقت » .

واهم من ذلك كله ان السجون قد خلت تماما من اي معتقل سياسي. باستثناء هؤلاء الذين ادانتهم المحاكم في تهم محددة واضحة ... وهم عدد قليل جدا . وتتردد في القاهرة اشاعة قوية أن الرئيس عبد الناصر سوف يفرج حتى عن هؤلاء المسجونين ... فالجو الديموقراطي الصحي القائم الان في الجمهورية العربية اصبح قادرا وحده على حماية الثورة الاشتراكية من الاعداء والامراض .

وبهذا كله تصبح الجمهورية العربية في طليعة الدول الاشتراكية والديموقراطية . وفي هذا الجو الديموقراطي يمكن ان نسأل : ما هو نصيب الديموقراطية الثقافية من هذا الواقع الجديد ؟

هناك مظاهر مباشرة للديموقراطية الثقافية . على رأسها حرية الرأي ... حرية التعبير عن الرأي .

واعتقد صادقا ان هذا الوضع قائم وموجود الان ، وباستطاعة الصحفيين والكتاب ان يقولوا ما يشاءون في حدود نصين هامين يوافق عليهما ابناء الشعب العاملون المستفيدون من التطور الاشتراكي :

النص الاول هو الميثاق .

النص الثاني هو الدستور الجديد .

والوزارة الجديدة في معظمها وزارة من الخبراء الفنيين ، ولا شك ان هذه المجموعة من الخبراء والفنيين يحملون مسؤولية واضحة محددة امام الاجهزة الديموقراطية المختلفة مثل مجلس الامة ، والصحافة . ويمكن بالتأكيد مناقشة هؤلاء الوزراء مناقشة دقيقة ، فليس من بينهم احد يتمتع الا بحصانة واحدة هي خدمة الشعب ، وخدمة الاشتراكية .

والصحافة الحرة ، ليست هي الصحافة المثيرة ، ولكنها الصحافة التي تدرس وتعرف بدقة ووعي حقيقة ما تتحدث عنه وتنقده وتنادي به ، فالحرية في المجتمع الاشتراكي ليست نوعا من العبث او الفوضى ، وليست نوعا من الخوض في المجهول بدون وعي او مسؤولية ... فهذا النوع من الصحافة الصفراء لا يجدي . بل انه على العكس يضر ويعرقل. والمفروض ان تقترن حرية الصحافة في المجتمع الاشتراكي بالوعي العميق والدراسة الشاملة . ولذلك فان باستطاعة الصحفي الذي يدرس موضوعه ويفهمه فهما صحيحا عميقا أن يقف امام السلطة التنفيذية موقف الناقد الحر الصريح الى ابعد حد . انه يستطيع ان ينقد اعلى مستويات السلطة التنفيذية التي يمثلها الوزراء .

فحرية الصحافة في الواقع متحققة ومضمونة في المناخ الديموقراطي الجديد .

ولكن هل الديموقراطية هي حرية الثقافة وحسب ؟ كلا بالطبع . فهناك مظاهر هامة للديموقراطية الثقافية تتصل بمجالات اخرى .

اول هذه المجالات هو الكتاب .

ان معظم دور النشر الان قد اصبحت ملكا للدولة ، واصبح انتاج دور النشر موجها حسب مصلحة الشعب الثقافية . وقد اصبح انتاج الكتب غزيرا الى ابعد حد . فكل يوم تصدر دور النشر عشرات الكتب الجديدة . في مختلف فروع المعرفة والعلم .

والهدف البعيد لهذا الانتاج الغزير هو ان يجعل القارىء العربي على وعي كامل بالثقافة العصرية ، وان يجعل الكتاب سلعة رخيصة حتى لا تصبح كما كانت في الماضي من الكماليات التي لا يهتم بها الا القليلون من اصحاب الامكانيات المادية . اي أن الثقافة عموما كانت نوعا من الترف ، ولم تكن ضرورة في حياة الجماهير التي كانت تبحث عن الخبز اولا وقبل كل شيء . واليوم اصبح من الضروري ان تصبح الثقافة سلعة ضرورية وممكنة بالنسبة للجماهير .

ولكن هل نعتبر انتاج الكتب في الجمهورية العربية انتاجا منظما رغم غزارته ؟... الحقيقة ان انتاج الكتب ما يزال يشكو من عدم التنظيم. ان كثرة الانتاج لا تكفي ولكن لا بد من جودة الانتاج ولا بد من ان يسد

هذا الانتاج حاجات أساسية بالنسبة للجماهير العربية . معنى هذا انه لا بد ان توجد خطة دقيقة منظمة لهذا الانتاج . وهذه الخطة هي التي سوف تدرس احتياجات القارىء العربي وترسم الطريق الصحيح لسد هذه الحاجات . وهذه الخطة هي التي ستحمي الثقافة والانتاج الثقافي من الارتجال والخطأ ، فما زال هناك في القاهرة على سبيل المثال سلسلة من الكتب تصدر بانتظام هي « روايات الجيب » ، وروايات الجيب مزيج من الروايات البوليسية والروايات العالمية المشوهة المختصرة . وهذه الروايات كانت تصدر اثناء الحرب العالمية الثانية ، بقصد الترفيه عن الناس خلال التوتر العنيف الذي كانوا يحسون به أثناء الحرب . وقد استغل المشرفون على اصدار هذه السلسلة ازمة الحرب استغلالا ماهرا ، واستطاعوا أن يكسبوا من وراء ذلك مكاسب طائلة . ولست ادري لماذا تعود هذه السلسلة من الروايات الى الصدور في هذه المرحلة التي نعيش فيها ؟ لماذا تعود الى الصدور من مؤسسة تشرف عليها الدولة ، وتقوم على توجيهها ؟... السبب بالطبع هو عدم وجود الخطة الدقيقة التي يمكن ان تهتدي بها حركة التوسع الثقافي ، بحيث تمنع هذه الخطة تقديم الانتاج الرديء وتساعد على تقديم الانتاج المناسب الملائم الذي يحتاج اليه الشعب بالفعل . وهذه الخطة يجب أن توضع وتستكمل بأسرع وقت ، حتى تكون ضمانا حقيقيا للديموقراطية الثقافية ، فليس المهم هو توفير السلعة بنسبة كبيرة ، ولكن الاهم هو توفير سلعة صالحة مناسبة لخط التطور الذي يسير فيه المجتمع الاشتراكي الجديد .

ومن وسائل الثقافة الهامة التي اصبحت اليوم شائعة : المسرح . لقد تعددت المسارح في مصر بشكل واضح . وتضاعف عددها اكثر من خمسة اضعاف . واصبحت النهضة المسرحية حقيقة واضحة . ففي القاهرة تعمل الان على الاقل عشر فرق مسرحية ، بعضها يقدم مسرحيات عالية رفيعة ، وبعضها يقدم مسرحيات محلية لمؤلفين معروفين ، وبعضها يقدم اعمالا ترفيهية لا تحسب في باب الفن بقدر ما تحسب في باب التسلية العادية .

والحركة المسرحية تمتد وتنتشر في الاقاليم ، فقد انشئت فرق مسرحية مختلفة في السويس وطنطا ومنهور .

وقد ازدادت نسبة الاقبال على المسارح زيادة كبيرة ضخمة . فاصبحت المسارح الان مدرسة اساسية من مدارس الجمهور يتعلم فيها ، ويتنبة وجدانه وعقله ، وتصبح امور الحياة عنده قابلة للمناقشة والاخذ والرد ، بدلا من ان تكون مجموعة من القضايا المسلم بها التي لا تفسير لها والتي لا تقبل المناقشة .

ان نمو النهضة المسرحية يعتبر بلا شك مظهرا اساسيا من مظاهر الديموقراطية الثقافية ، فالمسرح في حقيقته مؤسسة جماهيرية ، يلتقي فيها الناس التقاء رائعا خصبا ، فيتعودون عادات جديدة ، ويصبح لقاؤهم في حد ذاته مدرسة تعلمهم الحياة المشتركة ، وتقرب بين الذوق والفكر ، وتصهر ذلك كله في بوتقة واحدة . ان انتشار المسرح معناه ان تنفتح العقول وتستنير . ان المسرح هو الشمس والهواء والماء بالنسبة للحياة العقلية والروحية .

وفي المسرح العربي المصري عيوب كثيرة ، ولكنها تنضج وتذوب وتتلاشى يوما بعد يوم ، وذلك لان حركة النقد تتسع مع اتساع الحركة المسرحية ، ولان الخبرة الفنية نفسها تنمو وتنضج عند المخرجين وعند الممثلين وعند الجمهور نفسه ، ولن تمر بضع سنوات اخرى حتى يكون المسرح عندنا قد حقق درجة عالية من الرقي والنجاح وحتى يكون قد تخلص من كثير من العيوب التي علقت به خلال المرحلة الاولى من هذه النهضة الشاملة .

اما السينما فهي اقل الفنون عندنا تقدما وما تزال المحاولات التي تبذلها الدولة في هذا المجال بطيئة ، ويبدو ان ذلك يرجع الى ان مجال السينما مجال معقد ، وان السينما بحاجة الى اعداد جيل جديد من السينمائيين على اساس من الثقافة والوعي يكون قادرا على تغيير مصير السينما العربية لتلحق بالتطور الذي يحدث في كل جوانب المجتمع . ومن هنا كانت الصعوبة ، فان اعداد هذا الجيل يحتاج الى وقت طويل

نسبيا ، ويقوم بهذه المهمة معهد السينما وهو معهد حديث لم يتخرج منه سوى دفعة واحدة من الطلاب .

ان السينما لم تتغير كثيرا حتى الان . ما زالت موضوعاتها وطريقتها في فهم الحياة والتعبير عنها بعيدة كل البعد عن الجو العام للمجتمع . والتأثير الذي احدثه الجو العام في السينما هو تأثير محدود القيمة ، لانه من نوع المجاراة والمجاملة للافكار السائدة وليس من نوع التفاعل العميق الاصيل مع الواقع الجديد .

ويوم تصبح السينما اداة صحيحة في ايدي عناصر دارسة وصالحة ، يومها ... ستصبح اداة من اقوى ادوات الديموقراطية الثقافية ، لانها تستطيع أن تتخطى الحدود والقيود وتستطيع ان تصل الى اعماق القرى ، وتستطيع ان تخاطب جميع المستويات بسهولة وقوة وقدرة هائلة على التأثير .

ان الديموقراطية الثقافية تعني قدرة الجميع على التعبير عن ارائهم بحرية وانطلاق واضعين امامهم اولا وقبل كل شيء مصالح المجتمع الاشتراكي . والديموقراطية الثقافية تعني ان تصبح الثقافة والفنون ثروة مشتركة للجميع ، فيستطيع الجميع ان يقرأوا الكتب ، ويستطيع الجميع أن يدخلوا المسارح ، ويستطيع الجميع ان يشاهدوا السينما . بعد ان كانت الثقافة مثل العمل والثروة المادية ملكا لفئات خاصة هي الفئات القليلة التي تملك القدرة المادية .

وبنظرة مخلصة الى الواقع في الجمهورية العربية نستطيع ان نلاحظ بكل وضوح ان الديموقراطية الثقافية تتحقق يوما بعد يوم ، وتستفيد من التجارب والاخطاء ، وسوف ياتي اليوم القريب الذي تصبح فيه الثقافة وتصبح فيه الفنون جزءا من حياة جميع ابناء الشعب.

توينبي في القاهرة

زاد القاهرة في الشهر الماضي الفيلسوف والمؤرخ الانجليزي الكبير ارنولد توينبي . والقى بعض المحاضرات في جامعة القاهرة وجامعة عين الشمس وفي مقر محافظة القاهرة .

وقد اصبح توينبي صديقا للعرب ، ولقضية اساسية من قضايا العرب هي قضية فلسطين . والواقع ان توينبي يكتب عن العرب منذ وقت طويل . واذكر انني قرأت له في كتابه « الحضارة في الميزان » حديثا يفيض بالتقدير والاحترام عن المؤرخ العربي الكبير ابن خلدون ، والمؤرخ العربي المصري عبد الرحمن الجبرتي . وكان توينبي في حديثه عن هذين المؤرخين يفيض بالتقدير للعقلية العربية وللثقافة العربية .

وعندما بدأت قضية فلسطين تصبح قضية دولية ، وعندما حاول الصهيونيون أن يكسبوا مثقفي العالم الى صفهم ، استطاع توينبي وهو العالم البصير باحداث التاريخ ان يكتشف ما في موقف الصهيونية من تزييف كبير ، ولذلك اعلن رأيه في هذه القضية ... واعلن ان الحق يقف الى جانب عرب فلسطين ، ولم يعلن ذلك عندما زار مصر ، وانما اعلنه في كل مناسبة ، وفي كل انحاء العالم ، وما زلنا نذكر تلك المناقشة الواسعة التي دارت بين توينبي وبين الدكتور ياماكوف هرتزوك سفير اسرائيل في كندا . فقد دافع توينبي عن العرب دفاعا رائعا واضحا يستحق منا كل التقدير ، بعد ان كان مصدرا لفخرنا واعتزازنا .

ان صداقتنا لتوينبي هي لقاء بين عقل حر وضمير مستنير رائع ، وبين قضية عادلة ما زالت تبحث عن الانصار والاعوان والمؤيدين في وسط من العاصفة المعادية التي تثيرها الصهيونية ضدنا .

وتوينبي في موقفه من القضية العربية الفلسطينية ، وفي تقديره العميق الواضح لشخصية الرئيس عبد الناصر ، يذكرنا بموقف سارتر من القضية الجزائرية ... ذلك الموقف المؤيد المناصر ، بل ان موقف توينبي اكثر شمولا ووضوحا وقوة .

والحقيقة ان صداقة العرب لامثال هؤلاء المفكرين الكبار تعتبر ثروة معنوية لا حد لها . وبدون المثقفين الغربيين الكبار لن نستطيع ان نقيم دعايتنا خارج البلاد العربية ، وفي وجه الدعايات الصهيونية العنيفة ، والتي استطاعت ان تكسب حتى بعض اليساريين الغربيين ، رغم أن اسرائيل تقوم على اساس استعماري يميني لا شك فيه. والسبب هو ان الصهيونية تقيم وزنا للعلاقات الفكرية والتأثير الفكري ، بينما نعتمد نحن في الغالب على معاركنا السياسية بالدرجة الاولى . ولا نهتم كثيرا بالصلات الفكرية البطيئة والبعيدة المدى .

ولعل كسبنا لمفكر كبير له وزن توينبي وما احدثه هذا الكسب الكبير في صفوف الصهيونية من ذعر ، يثبت ويؤكد ضرورة الاهتمام الواسع بكسب المثقفين الغربيين الذين يؤثرون تأثيرا ضخما على الجماهير والمنظمات السياسية .

القاهرة ر. ن

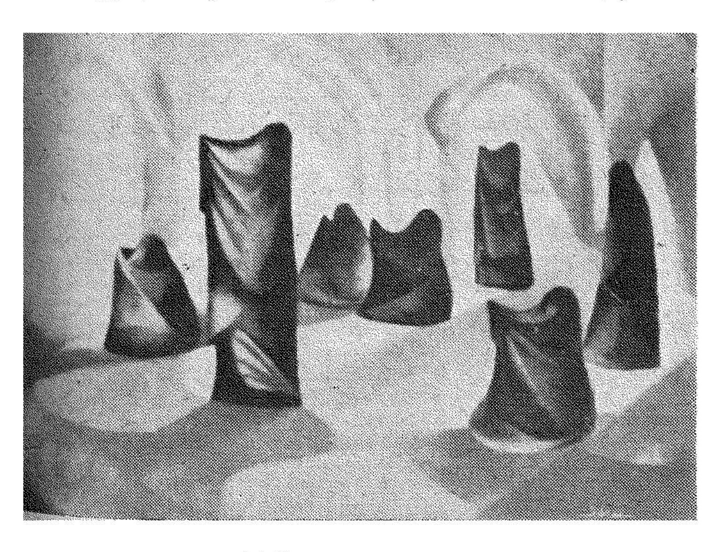


مع الانطباعيين العراقيين

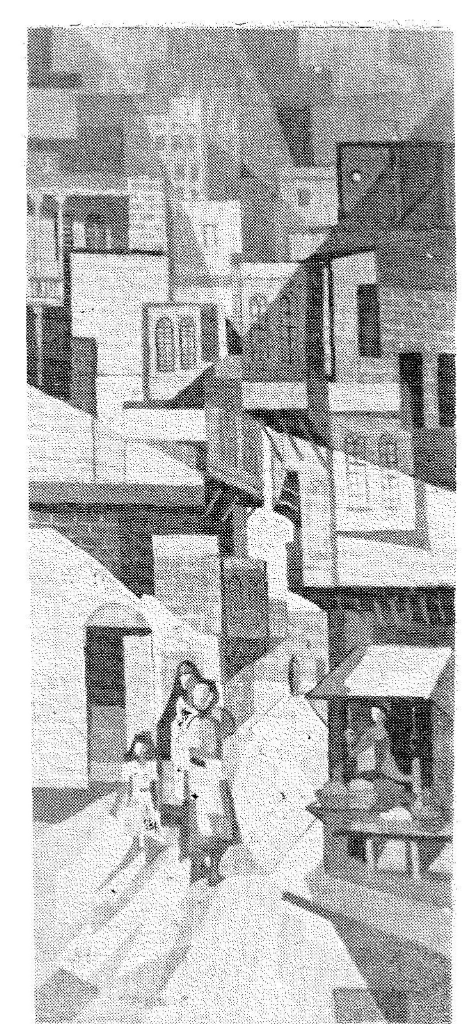
بقلم : عبد الرحمن الربيعي

***

يمكننا ان نطلق عليهم اية تسمية اما ان نقول عنهم بأنهم انطباعيون فهذا شيء بعيد ، لقد أصبحت التسمية شكلية فقط ولست ادري سبب تعلقهم بهذه الصفة ! قال احدهم وهو سعد الطائي لمندوب جريدة



« دعاء » ـ سعد الطائي



« من زوايا بغداد »
الاستاذ حافظ الدروبي

الجمهورية البغدادية : (الحقيقة ان التسمية تختلف عن الشيء الذي نؤديه بحيث ان من ينظر الى صورنا لا يلاحظ انها انطباعية وانما قد تغيرت طريقة الاخراج) اما شيخهم حافظ الدروبي فقد قال مجيبا على سؤال مندوب الجريدة المذكورة عن حقيقة الانطباعيين العراقيين وبداية تكوينهم : (لقد اجتمعنا نحن بعض خريجي كلية الاداب والعلوم وفكرنا بتشكيل جماعة فنية ثم عقدنا عدة اجتماعات لتسمية هذه الجماعة واخترناها بالضبط على انتاجنا انذاك والذي كان قريبا من المدرسة الانطباعية الفرنسية ثم اتخذناها كتسمية لنا ..) وقال: (وقد اخذنا الانطباعية لتكون نقطة انطلاق لنا لايجاد مدرسة شرقية بعد التطور) .

.. واظن ان التسمية كانت صائبة في وقتها اذ كانوا جماعة من تمردوا على قيود كلاسيكية متوارثة وحاولوا الخروج من الدائرة المقفلة التي تحيطهم ، ولكنهم بمرور الايام والتجارب تطوروا ايضا متأثرين بالثورات التكنيكية حتى اصبحوا غرباء على منطلقهم الاول وكان في جواب الطائي ما يقنع . واليوم عندما شاهدت اعمالهم في معرضهم السنوي وجدت ان اقربهم الى الاسم الذي اطلقوه على انفسهم هما الاخوان منذر جميل حافظ وحياة جميل حافظ فهما قد رسما بعفوية وسرعة متكئين على اللون والضوء كمسند لهما ، موقفهما تأملي يفصح عن نفسيتين نظيفتين وتناول خام للموضوع وقد تصلح رسومهما لان تكون نوعا من النشاط المدرسي مما يأخذه طلبة الفن كـ Practice في الاستوديو ، الا في لوحة (حركة) لمنذر جميل حافظ ففيها انعتاق جزئي وتمرد محدود على الطوق الانطباعي .

اما الذي نقف عنده بأعجاب فهو سعدي الكعبي هذا البدائي الذي لم يضمه استوديو في اوروبا ولم يتتلمذ على يد فنان قدير بل كان هو موجه نفسه ، مقوماته تصفح بعض الكتب الفنية ومشاهدة المعارض التي تقام بين اونة واخرى ، انه يرسم بأصالة وجودة يتنكب عمق الافكار النقية التي يعيشها ويخطها على اللوحة ، واني ذاهل جدا امام اعماله ، ولست ادري كيف حطم القمقم الذي كان يلفه عندما كان زميلا لي في معهد الفنون الجميلة ولم يكن انذاك حتى من الطلبة البارزين ! ولكنه كان مخلصا ودؤوبا وهذه ثماره ، ان هذا الضامر الذابل الملامح والذي يحرك يديه بكثرة عندما يتكلم ليسعف كلمات تريد الظهور ولكنه لا يطيق ولن تفهمه الا في لوحاته التي هي كتابه المفتوح . ان الكعبي



« من الصحراء » ــ سعدي الكعبي

***

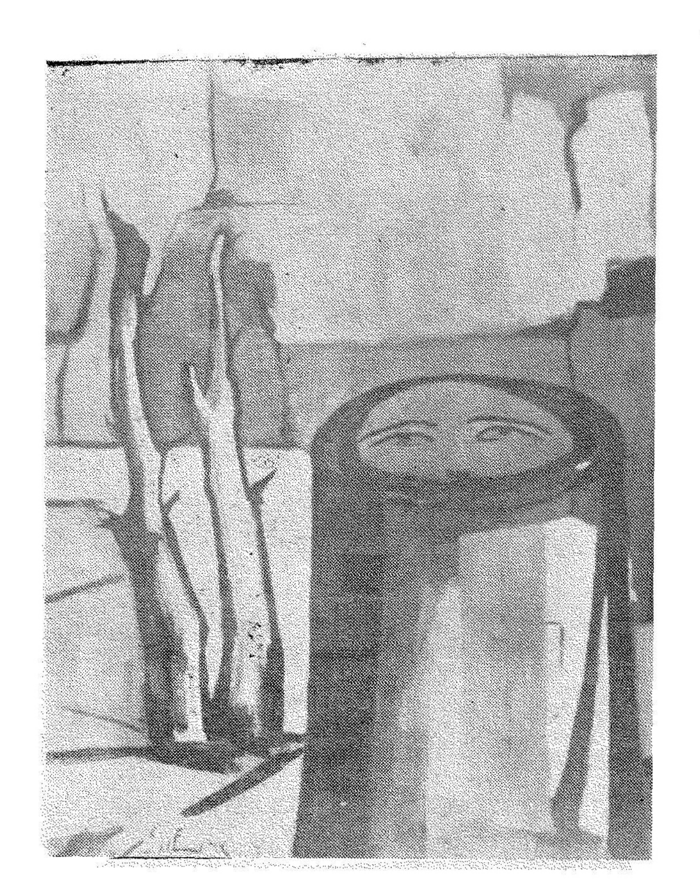
متمرد اصيل لم تلوثه فكرة دخيلة ولا اسلوب مصطنع ، وجد في التراث كنزا يرتاد منه فرجع الى الوراء ،لاجداده السومريين ينقب عن اعمالهم ليطورها بما يلائم العصر الذي يعيشه ، ونلاحظ بأن بعض اعماله جاءت بلا ارضية ، وقد فسر الكعبي هذه الظاهرة بقوله : (نحن كعراقيين علينا ان نهتم بالمدارس العراقية القديمة فنلاحظ أن الفن الاسلامي لم يهتم بالقاعدة وان الارضية لم تكن موضع اهتمام لا سيما في لوحات الواسطي وعبد الله الفضل واني اسعى لاحياء هذه الفنون القديمة واظهارها في الفن الحديث) .

ويمكننا ان نقف على مدى تشبع نفس الكعبي في بيئته عندما نأخذ لوحته (هور) ونقارنها بلوحة اخرى بنفس الموضوع هي (في الهور) لسعد الطائي ، فالكعبي بيئي نقي : رجلان ومشحوف وشبكة ، الرجلان خاويان والشبكة فارغة ملقاة والنهر اسود لا يعطي شيئا ، اما عند الطائي فبالرغم من جودة التكنيك وخضوعه الى سمات خاصة مميزة فأن الوانه ليست بيئية صافية .

ومن لوحات الكعبي الرائعة (بقرات) و (خيول) التي تشد الرائي، فقد افلح الكعبي بالتقاط الحركة الرشيقة عند الحصان العربي والعنق المشرئب الى اعلى بشموخ الرجال الذين اعتلوا ظهره، هذا الخلود والفخر الابدي .. ومن لوحاته الرائعة ايضا (من الصحراء) و (الحمام) و (تكوين رقم ٢) لولا الانغلاق المتطرف لكانت من اعماله الرائعة جدا .

اما شيخ الجماعة حافظ الدروبي فهو حيوي مشرق كما عهدناه ، لوحاته كلها مبتسمة متفتحة كالشيب الذي يسرق من فوديه سوادهما ، انه يدور في نفس تكنيكه الاول والذي هو حدود لحصار طال امده ، قد تكون له في هذا قناعة ما ولكن المشاهد المتتبع يحس هذه الثغرة بسهولة ، وقد بقي الدروبي مرضا يلازم الجماعة فهذه ملامحه مغروسة في اثار اغلبهم وحبذا لو تحرروا منه كليا وتحرر هو من دواره الطويل.

يرسم الدروبي بمستطيلات ودوائر محدثا هذه التكوينات التجريدية المتشبعة والتي لا تميل الى الركة والتهلهل ، ويحق لي ان اقول عنه ذلك القول الباطل : (ليس في الامكان ابدع مما كان) ماضيه وحاضره اسيران لهذه السجون المستطيلة والمدورة ، لقد قويت قدمها الجنين ولم يبتعد خطوة واحدة بعد ، لا اريد ان اطلق على الرجل احكاما سريعة فهو رائد كبير ، صديق الشباب الذين يحبهم ويفرح لانتصاراتهم الصغيرة ، هو متفائل ايجابي بهذه الالوان المشرقة التي لا تنطفىء في واحد من اعماله ، لكن الدروبي لم يزل حاملا معه مرض الغرب ولم يشف منه بعد ، في لوحته (العائلة) يتنفس انفاس (فرناند ليجيه) ويجمع انفاس (ليجيه) و (ماتيس) في لوحته (الموسيقى) . ونلاحظ ظاهرة اخرى بأن مواضيعه ليست داخلية بل



« الى موعد » ـ الدكتور علاء حسين

***

هي قطاعات من الواقع الملموس الذي لا يحتاج احساسنا به لابسط عناء.

اما لوحات علاء حسين فهي مونولوجات داخلية ، لكنها مقفلة تتحول الى ثرثرة فارغة احيانا ، اغلب الوقت هي حادة وخشنة ، ولكن علاء ذكي البس كل حاضر لباسه الخاص فلم يخلط ولم يركض بطيش وراء اي لون غريب .

(حول حنفية الماء) عراقية مئة في المئة ، هذا الشحوب الذي يغطي الوجوه الداكنة الجائعة وجوه بشر يهربون من وجودهم هروبا باهتا فيتوهمون اغتيال هذا الحزن السرمدي باقتناء هذه الملابس الصارخة الالوان ، الا انها تظل نشازا امام عري وجوههم ، ويتجسد انغلاق علاء وعتمته الداخلية في (قلق) ففيها يحاول البوح بشيء مجهول يلح في رأسه ولكنه لم يفصح عنه كليا .

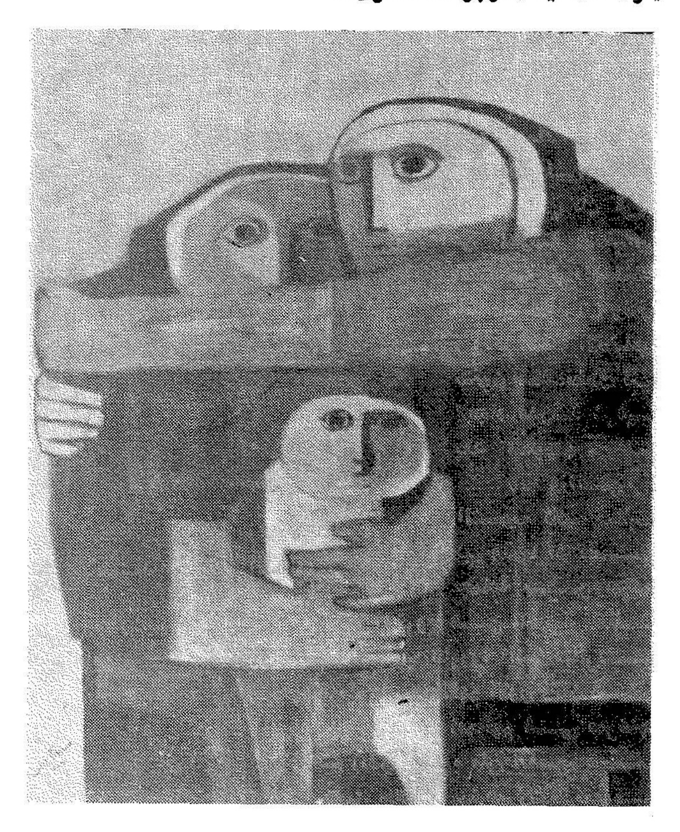
من متابعتنا لاعمال علاء كلها نحس بأنه غير مرتو حتى الان وانه يبحث ، لذا لم تجتمع لوحاته في حدود تكنيك مميز .

اما اعمال ضياء العزاوي فهي لا تزال ضمن حدود مدرسية معينة ، وقد اكثر الاخذ من فائق حسن وحافظ الدروبي .. اعماله اشبه بتمارين هادفه ، ترافقها فرشاة جريئة مغامرة .

في (الاخوان) محاولة للاخذ من الفن السومري ، وفي (الصياد) تجاوب مع « الفن الوحشي » الذي كان تمردا على التثاؤب الاكاديمي ، الا انه يعود ليقع في تكديس اشخاصه باصطفاف ممل كأقلام في علبة مثل (عائلة) و (جاموس) و (في القرية) و (حنان) التي فيها وجوه مصلوبة للامام باستجداء لا يثير شفقة ما ، نفس الشيء الذي وقع فيه الفنان فرج عبو في بعض لوحاته التي عرضها في اورورزدي باك قبل ايام وقد اشرت لهذه الظاهرة في وقتها ضمن المقالة التي كتبتها عنه في جريدة (البلد) البغدادية .

اما ياسين شاكر فأعماله غير مرتوية ، يتكيء على تكنيك ينقله لدرب حافظ الدروبي ويحاول ان يتملص من هذه اللعنة بهذه الضربات الطولية المتوازية في (منظر طبيعي) ولكن هذه الاستمرارية توقع التكوينات في برود وتشوه الهارموني الذي قصده ، ولو امتدت الضربات يمينا وشمالا لكانت فيها ثورة متنفعة من مبادىء الرسامين في (المرحلة الثانية للانطباعية) ويفلح في (انتظار) في رسم القلق اللامثمر والانتظار الخاسىء غير ان وضعه الوجه بلقطة امامية وتركه هكذا ابله فارغا بلا لون يزيد في توتر المكان وبلا تعبير ملائم يجعل من الوجه فكرة زائدة عن الجو .

.. ونقف اخيرا عند اعمال سعد الطائي فهو نسيج مستقل ، في تكنيكه ومواضيعه مغناطيسية صوفية تشد الرائي بقوة زارعة في نفسه هدوءا غريبا اشبه بارتياد مزار دافىء مشبع برائحة البخور وهمهمة التراتيل ... وقد جاءت الوان الطائي بنفم حزين يتردد في كل اللوحات ، واللوحة الوحيدة التي تحاول ان تفلت من هذه السلسلة الحزينة هي (شناشيل) والتي يحاول الفنان ان يسعفها بشروق لوني ولكنها تظهر ببهجة كاذبة فالاصفر والاحمر هما نار لهذا الدخان الذي يفرق الارضية والموجودات الاخرى .



« حنان » ـ ضياء العزاوي

***

(دعاء) اكثر اللوحات افصاحا عن شخصية الطائي ، وبالرغم من قلة اعماله فقد لفتت الانظار ، الا ان كذبات الغرب العريقة تحاول ان تمد رؤوسها في بعض صوره ، فهو واحد من اولئك الذين تتلمذوا على ايدي الفنانين الاوروبيين ، ولا اعتبر هذا مؤاخذة في مرحلة الحيرة التي يمر بها الفنان بين جوهره الحقيقي وبين ما ملأ رأسه من اساليب وافكار خارجة عنه .

ان جماعة الانطباعيين العراقيين في معرضهم هذا قد قدموا للفن العراقي والعربي لبنة جيدة جديدة ، وكان سعدي الكعبي ورفقتهم الرابحة فهذا المعرض هو السماء الاولى التي اشرق فيها نجمه .

عبد الرحمن الربيعي

اكاديمية الفنون العليا ـ بغداد

المأساة في شمس دوار

– تتمة المنشور على الصفحة ١٦ –

كل ما في الماضي من صقيع ومرارة، ان امتنا على موعد مع النصر، على موعد مع الفارس الذي مضى ليعود يحمل معه اشراقه الفجر وحرارة المستقبل.

« يا فارسي
يا بوح اغنية على شفة حزينة
يا موعدا ارجوه من سنة ضنينة. »

الشعر ما عاد تصفيقا وصراخا للحظة ثم ينتهي مفعوله، انالشعر الحديث لا يحتاج للتصفيق والهتاف بل هو غناء لارض الانسان لوطنه، انهاغناء لحياتنا لكن دون بجح وتطبيل.

الشاعر الان بدأ يعي رسالته اكثر من ذي قبل والاتصال وثيقبالرغم من محاولة المتخلفين أبعاد الشاعر الحديث واتهامه. اذا الشاعر الان لا يقف على منبر الخطابه من أجل نفخ المستمع للحظة بل اصبح ثمة اختلاف، فالشاعر الحديث في وسط المعركة ومع الشعب رفيق الجماهير الصامت والمتوقد في آن واحد، انه الصدق والحرارة والخلق. لقد غنى فواز لبردى ولم يغن لشخص معين او لجماعة. غنى للجماهير والعرب جميعا وكان في كل حرف من حروفه بوحا عن شوق بعيد الغور، بوحا عن صمت تفجر.

« وان قلنا
متى نهوي الثلوج ؟
متى يفيض النهر
قلت : غدا. »

الوعد في حبات ماء النهر، في طيبة ارضنا المعطاء، الشاعر مع بردى في الحاضر ومع الاندلس مع ماضي اجدادنا المجيد، يتسكع الشاعر في شوارع دمشق ولكن العربي يثور فيه، ينتفض بجبروت لتفيق معه الجماهير على الوجه النير للماضي بما فيه من طاقاتواندفاع.

« رجعي
في الصدر انفاس
وفي الليل بقيه
فعزائي في ليالي مطر الغربة انت
ما انتهى الخصب بعينيك
ولا انت انتهيت. »

سؤال يطرح من خلال ابيات القصيدة، ترى هل نضب الانسان العربي ؟ ام أن هناك املا لانهاء تسكعه الذهني وتشرده الروحي ؟سؤال يفجر الشاعر له جوابا رائعا، ان ذلك الانسان الذي خرج من الصحراء فانهى عهد الفوضى في الفكر الانساني في عصره لم ينته، بل انه ما زال املا جديدا مرة ثانية، انه يفيق في ليل الغربة، في ليل التشرد والعزاء، العودة للاخذ من الماضي الى ما يربط حاضره بماضيه دون مغالاة وتحجر ... فمنذ ان جاءنا البرص من روما ... الغزاة ونحن نزداد تشردا وغربة في وطننا.

« وداهمنا الغزاة البرص من روما
وعاثت أوجه الاغراب في الساحات
فما ابقت . كالحمى

لقد داهمنا الغزاة، سرقوا فلسطيننا ... فمتى تعود ارضنا حرة من جديد، عندها لا نعود نحس بالغربة ... عندما يصبح هناك للغرباء نقش ... عندما يشمخ العربي برأسه عاليا فيحمل من جديد الرسالة للانسان والحب والخير.

دمشق رشاد ابو شاور
